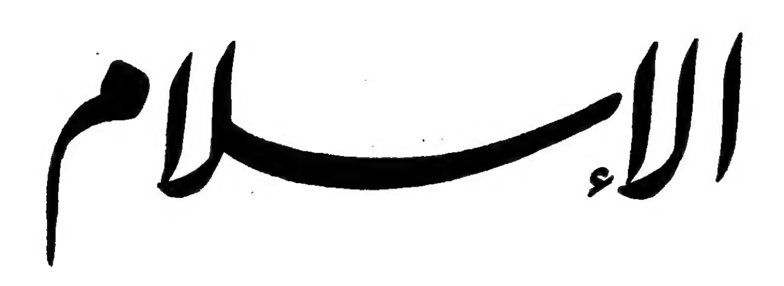
عبد الكريم الخطيب



في مواجهة الماديين والملحدين

دار الشروق

الطبعة الأولى

ابريل ١٩٧٣

الغلاف للفنان عبد السلام الشريف

الإسلام

في مواجهة الماديين والملحدين

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ جواد حسنى ت ٥١٢١٤ برقيا : شروق القاهرة

بيروت : ص.ب ٨٠٦٤ ت ٢٢٣٨٣٨ برقيا : داشروق بيروت

تقديم :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، اياك نعبد ، واياك نستعين ،اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ..

الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، محمد بن عبد الله ، امام المرسلين ، وخاتم النبيين ، اليه كانت رسالة الاسلام ، جامعة الرسالات ، التى تم بها الدين الذى رضيه الله تعالى دينا للانسانية ، وأمر رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يؤذن به فى الناس جميعا : « يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا ، الذى له ملك السموات والأرض ، لا اله الا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله ، النبى الأمى ، الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون » (١٥٨ : الأعراف) فصلوات الله وسلامه عليك أيها النبى الأمى ، ورحمة الله وبركاته عليك ، وعلى آلك ، وأصحابك ، ومن اهتدى بهديك ، واتبع سبيلك ، الى يوم الدين ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ..

وبعد ، فهذا الكتاب ليس دفاعا عن الاسلام ، ولا منافحة عن نبى الاسلام ، فى وجه ما يسقط من أفواه الملحدين ، والمبشرين من زوروبهتان ، على الاسلام ، ونبى الاسلام ، وما يقدمونه بين يدى أباطيلهم ومفترياتهم من مغريات بالمال ، والخمر ، والنساء ، يتملقون بها شهوات الشباب ، ويحركون بها العواطف البهيمية فيهم ، حيث يصادف هذا الاغراء حرمانا جسديا ، وجوعا عاطفيا ، الى قصور فى التفكير ، وجهل بحقائق الدين ، فيجد له مسارب من الضلال ، تسوق الشباب ، ومن فى حكم الشباب الى متاهات تعمى عليهم فيها السبل ، فلا يميزون بين طيب وخبيث ، ولا يفرقون بين نور وظلام ، فتتزاحم فى صدورهم الوساوس ، وتتداعى عليهم الريب والشكوك ، ويكون من هذا أن يخف ميزان الدين عندهم ، وتنحل الروابط بينهم وبين أحكام شريعته ، ، فلا يوقرون تعاليمه ، ولا يقيمون سلوكهم عليها .. وهذا ما يريده أعداء الدين من اتباع هذا الدين ، وهو الانفصال الشعورى والعاطفى عنه ، ثم سيان عند هؤلاء الأعداء لدين الله أن يأخذ هؤلاء المنفصلون عنه اى طريق ، ولو كان طريق الشيطان ، ودين الشيطان .. وحسبك بالبهائية ، والقديانية مصيدة للجهلاء ، ومزلقا للأغرار والسذج ، ينحرف بهم عن طريق الاسلام ، وهم يحسبون انهم على جادة الدين ، وعلى صراطه المستقيم ، ومادروا أنهم مسوقون الى هاوية هيهات لمن يضع قدمه عليها أن يمسكه شىء حتى يهوى الى القاع ، ويدين بدين البهائية أو القديانية ، التى تتخذ من الاسلام وجها تستتر به كيدها لدين الله ، اذ ما أوسع الباب الذى يدخل منه البهائى أو القديانى الى الدين الذى يدعو اليه الملحدون ، والمبشرون .. ثم ما أكثر الضلالات التى تدخل باسم الاسلام ، كذبا وافتراء فى هذه المذاهب الشيطانية ، التى يبدو وجه الاسلام من خلالها أشبه بوجوه السحرة والمشعوذين ، لا يقابل من العقلاء الا بالسخرية والاستخفاف !

***

ومرة أخرى نقول : ان هذا الكتاب ليس دفاعا عن الاسلام ، ولا منافحة عن نبى الاسلام .. فما كانت الحقائق العليا ، والفضائل السامية بحاجة أبدا الى من يدافع عن وجودها ، ويحدث عن

آثارها ، ويعلن عن فضلها وقدرها ، فذلك من شأنه أن يجور على مقامها ، ويهون من شأنها ، بما يوقع فى النفوس من أنها فى خفاء يحتاج الى بيان ، وفى وجه تهمة تحتاج الى دفع ودفاع .. ثم ان من يعمى عن رؤية هذه الحقائق العليا ، ويتنكر لهذه الفضائل السامية ، ويجادل أو يمارى فى بهائها وجلالها ، هو أبعد من أن يهتدى الى حق أو يستقيم الى هدى ، ولو تمثل له الحق شخصا يراه بعينيه ، وجاء اليه الهدى شاخصا يسعى بين يديه ، والله سبحانه وتعالى يقول : ((**ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون .. ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم**)) (٦ ـ ٧ : البقرة) .. وتلك حقيقة عرفها الناس ، وصورها الشاعر الحكيم بقوله :

وليس يصح فى الأفهام شىء ... اذا احتاج النهار الى دليل

واذا كان من المضيعة للجهد الوقوف فى مقام المجادلة مع الذين يعمون عن الحقائق العليا ، والفضائل السامية ـ فانه يكون من الازراء بدين الله ، فى مقام الدفاع عنه ، الموازنة بين حقائقه ، وبين ما تحمل الديانات والمذاهب الأخرى من مقولات ، وتصورات ، ومعتقدات .. ولهذا كانت دعوة الرسول الكريم قائمة على هذا المنهج الذى رسمه له ربه جل وعلا ، فى قوله سبحانه : ((**خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين**)) (١٩٩ : الأعراف) ومن هذا المنهج الربانى للرسول الكريم ، كان المنهج الذى يسلكه المؤمنون بهذا الدين ، مع المخالفين لدينهم ، حيث كان أمر الله تعالى اليهم بقوله : ((**ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا ، وأنزل اليكم ، والهنا والهكم واحد ، ونحن له مسلمون**)) . (٤٦ : العنكبوت) وذلك ضنا بالحقائق العليا أن تنزل فى سوق المزايدة والمهاترة ، وأن توزن بميزان السفسطة والمحاراة ..

ألم تر أن السيف يزرى بقدره ... اذا قيل هذا السيف خير من العصا

***

ومرة ثالثة ، نقول : ان هذا الكتاب ليس دفاعا عن الاسلام ، ولا منافحة عن رسول الاسلام ، فى وجه هذه الدعوات المضللة ، وتلك الرميات الطائشة التى يرمى بها الملحدون والمبشرون فى مواطن الاسلام ، وفى حمى رسول الاسلام ، وانما هذا الكتاب هو فى صميمه دفاع عن العقل الذى كرم الله تعالى الانسان به ، ومنافحة عن حمى هذا العقل أن يمتهن ويسترق ، وأن يخليه الانسان من كيانه ، وأن ينزل عنه لقاء دريهمات معدودة ، أوقضاء وطر من كأس خمر أو شهوة جنس !!

* * *

اننا هنا لا ندافع عن عقـــل فرد أو جماعة ، وانما ندافع عن الانسان من حيث هو انسان ، ومن حيث كان العقل هو الذى أعطى الانسانية هذا المعنى الكريم ، وخلع عليها هذه الخلعة الربانية، التى أعلت بين المخلوقات قدر الانسان ، وعزلته عن عالم الحيوان ، وأقامته على هذا الكوكب الأرضى مقام الخلافة لله على هذا العالم، بكل ما خلق الله تعالى فيه ، مما ظهر منه أو بطن !!

ان الدين ــ أى دين ــ فى مقام استرخص فيه العقل ، وامتهنت فيه مكانته ، وهان فيه سلطانه ــ هو لغو اللغو ، وباطل الأباطيل، حيث لا دين لمن لا عقل له ، ولا عقيدة الا فى رحاب عقل يفقهها ، وينفذ الى مواقع الهدى والخير منها ..

وغايتنا من هـــذا البحث هو أن يعرف للانسان قدره ، وللعقل مكانه ووزنه فى انسانية الانسان ، وفى اعطائه معنى الانسانية ، الأمر الذى يدعو كل ذى عقل أن يحرص على عقله حرصه على الحياة ذاتها ، حيث لا يرضى بالحياة فى غيبة من عقله ، ولا يقبل من من الحقائق الا ما يجيزه هذا العقل ، بعد أن يدفع عنه أى هوى يتسلط عيه ، أو شهوة تخادعه عنه ، والا بعد أن يقلب بين يديه الأمر على وجوهه ، وينقده نقد الصيرفى ، ويأخذه بما يأخذ به القاضى نفسه ، من مراجعة ضميره ، والاحتكام اليه قبل أن يصدر حكمه !! وذلك : « **ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيـــا من حى عن بينة** » (٤٢ : الأنفال) ..

واذا حمد لهذا العصر شيء ، فان أحمد ما يحمد له هو الاعتزاز بالعقل ، والثقة البالغة به ، والتعويل فى كل شيء عليه ، وان جاوز ذلك الحد الذى يبلغ مدى بعيدا من التهور والغرور ، فذلك — على ما به — خير من خمود العقل ، وانطفاء جذونه فى كيان الانسان ..

ان هذا العصر ، هو بحق — عصر العقل الذى أعيد فيه تشكيل الحقائق وتنظيرها على أسلوب من النظر العقلى الصارم ، البعيد عن خفقات القلب ، ونبضات الوجدان ، ولمسات الشعور !

وانه ليس من أنباء هذا العصر ، ولا من المتزين بزى حضارته ، ولا من دعاة أو أدعياء التجديد فيه ، من لا يجعل عقله أمام كل خطوة يخطوها ، وبين يدى كل رأى يراه ، أو عمل يعمله ، أو مذهب يتمذهب به ، أو دين يضيف نفسه اليه ..

ان عصر التقليد والمتابعة قد انتهى ، ودالت دولة الرؤساء الروحيين ، وأصحاب السلطان الدينى على المتدينين ، وأصبح كل انسان سيد نفسه ، ومالك أمر عقيدته ، لا يأخذ من الدين الا ما أرتضاه عقله ، ولا يعتقد عقيدة الا اذا وقعت موقع اليقين من هذا العقل !

* * *

ونحن اذ نعرض حقائق الاسلام كدين يعيش الناس فى ظله ، واذ نعرض حياة نبى الاسلام كنموذج للكمال البشرى ، وكحقيقة من حقائق هذا الدين — فانما نستدعى لذلك العقل بكل ما ملك من ملكات ، وبكل ما اجتمع له من قوى ، وبكل ما وضع العلم بين يديه من سلطان يتسلط به على فحص الحقائق وكشفها ، وفى قبول ما يقبل ، أو رفض ما يرفض منها ..

وذلك — يقينا منا — أن حقائق الدين — أى دين — لا يمكن أن تكون معتقدا مؤثرا فى حياة الانسان ، هاديا له الى الخير ، ووازعا له عن المنكر — الا اذا آمن المرء بتلك الحقائق ، واطمأن الى سلامتها ، وأنزلها من عقله منزل اليقين ، الذى لا يخالطه شك ، أو يطوف به طائف من ريب — عندئذ ، تجد هذه الحقائق

عقلا يحرص عليها ، ويعتز بها ، وينفق منها ، تماما كما يحرص الانسان على النقد السليم ويطمئن اليه ، ويعتد به ثروة ينفق منها ، ويقضى مطالبه بها ، على خلاف النقد الزائف الذى يقع ليد الانسان فى غفلة منه ، فانه يراه شيئا بغيضا منكرا ينبغى التخلص منه فى أسرع وقت ، وبأية صورة !

ومن هنا كانت دعوة الاسلام قائمة على هذا المبدأ العام : « لا اكراه فى الدين » (٢٥٦ : البقرة) والاسلام اذ يقرر هذا المبدأ ، فانما يأخذ بواقع تفرضه الطبيعة البشرية ، وهو أن المعتقدات ليست مجرد شارات ، يتحلى بها الانسان على صدره ليرى الناس منه ما يعتقده .. وانما المعتقدات ، هى معان خفيه مستبطنة فى مدارك الانسان ومشاعره وعواطفه ، لايراها أحد غيره ، ولا يطلع عليها بشر سواه ..

انها أمور ذاتية لا تخضع الا لارادة الانسان المتحرر من أى قهر مادى أو أدبى .. فاذا حمل الانسان حملا على اعتناق مذهب ، أو تدين بدين ، فان ذلك لا يجاوز حدود المظهر الخارجى ، الذى يلبس شارة هذا المذهب ، ويتحلى بحلية هذا الدين ، يدخل به فى أهله ، ويردد الكلمات والعبارات التى يرددونها منه ، أما فى قرارة نفسه ، وفى خلجات ضميره ، فهو فى واد ، والمذهب الذى يتمذهب به والدين الذين يدين به ، فى واد آخر .. وهذا ما كشفه الاسلام من دين بعض الذى دخلوا فيه بألسنتهم ، ولم يخالط الايمان قلوبهم ، اذ يقول سبحانه : **« قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الايمان فى قلوبكم »** (١٤ : الحجرات) ..

ونعم ، قد يضلل الانسان ، وقد يخدع من المضللين والمخادعين ، فيقبل الفاسد السقيم من المذاهب والمعتقدات ، وقد ينزل هذا الخداع والتضليل منزلة الرضا والاطمئنان من عقله وقلبه ، وقد يعيش معها حياته كلها ، وقد تعيش فيها أجيال وأجيال من الناس ، تماما كما يعيش فى الجهل ، ويحيا فى الأوهام والخرافات أفراد وأمم ، وهم يحسبونها من الحق الذى لا يشوبه باطل ، ومن الخير الذى لا يخالطه شر . ولكن هذا كله لن يكتب له البقاء طويلا ، اذ

لابد ان تطلع شمس الحقيقة يوما ، فاذا كل هذا قد انقشع كما ينقشع الضباب من وجه أشعة الشمس ! واقرب مثل لهذا ، أن الانسانية عاشت تاريخها الطويل ، والى عهد قريب على عقيدة أن الأرض ثابتة لا تتحرك ، وانها بساط محدود .. وأنها ، وأنها ، حتى كشف العلم عن فساد هذا الاعتقاد ، وجاء العلماء يقررون هذه الحقائق التى كشفها العلم ، واراها للناس رأى العين ، وملمس اليد ، ومع هذا فانه لا يزال فى الناس من لا يصدق بهذه الحقائق ، ولا يعطيها أذنا سامعة ولا عقلا مصغيا !

ومن هنا كانت مهمة الرسالات السماوية ، ورسالة الرسل القائمين عليها ، هى كشف حقائق الوجود لأقوامهم المبعوثين اليهم ، وذلك بايقاظ عقولهم النائمة ، واثارة مشاعرهم الخامدة ، ولفتهم الى ما فى ملكوت السموات والأرض من بديع الصنع ، وقدرة الصانع وحكمته ..

فنوح عليه السلام ، قد استفتح دعوة الرسل بهذا الأسلوب الذى واجه به الجهل الذى غشى على عقول قومه ، حيث هتف بهم : أن انظروا وتدبروا فى هذا الوجود ، وأن اقرءوا ما فى صحفه من آيات الله ، واخرجوا من عالم الحيوان ، الى عالمكم الذى خلقكم الله تعالى له .. « **ما لكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا ، والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا ، والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا** » (١٤ — ٢٠ : نوح) .

فهذه أول دعوة سماوية الى العقل الانسانى أن يأخذ مكانه الصحيح فى كيان الانسان ، وفى وصله بالوجود ، وفى تعرفه على خالقه من خلال النظر فى مخلوقاته .

ان ذلك الأسلوب السماوى المبكر ، الذى التقى بالانسان فى أولى خطواته على هذه الأرض ، ليدل دلالة قاطعة على مكانة العقل فى الانسان ، وانه بغير هذا العقل ، وبغير الاصطحاب له ،

والحياة معه ، لن يكون الانسان انسانا ، ولن يكون له المقام العزيز الكريم فى هذه الحياة ..

وعلى هذا المسار الذى اختطته دعوة نوح ، سارت دعوات انبياء الله ، ورسله جميعا .. فلا يكاد يلتقى الرسول أو النبى بقومه ، حتى يهتف بهم أن هبوا من غفلتكم ، وافيقوا من ضلالكم ، وانظروا فيما بين أيديكم وما خلفكم ، وعن أيمانكم وشمائلكم ، ومن فوقكم ومن تحتكم . ومن هذا الطريق يقودهم الى الحق ، ويدعوهم الى الله .. فان سمعوا له ، وأنزلوا الغشـــاوة عن ابصارهم ، والعمى عن بصائرهم ، سعدوا وطابت لهم الحياة .

ان الرسالات والرسل رحمة من رحمة الله ، ونور من نوره ، وغيث من غيوثه ، كلها فى معرض النفع العام للناس جميعـــا ، حيث تسع عباد الله كلهم ، وتشمل خلقهم جميعهم ، كالشمس والهواء ، والماء ، لا يتكلف لها الناس كثيرا من الجهد ، ، وانما هى بحيث ينالها كل طالب ، ويأخذ منها كل مريد .. وهكذا كل مامن شأنه أن يصلح حياة الناس ، ويقيم وجودهم .. لابد أن يكون اقرب شىء الى الطبيعة ، بل لابد أن يكون من صميم الطبيعة ، بعيدا عن اية صنعة أو تكلف .. والدين ضرورة حياة للانسان ، وهيهات أن يحيا انسان بغير دين .. ومن هنا كان أقرب دين الى الانسان ، واكثر ملاءمة له ، وابعده أثرا فى حياته ، ما كان جاريا مع الطبيعة البشرية ، مشاكلا لها ، متجاوبا معها ، محلقا بها فى « جو نقى » طهور ، اشبه بماء المطر قبل أن يختلط بتراب الأرض .

* * *

والقول بأن الاسلام دين الفطرة ، انما يعنى أنه الدين الطبيعى، الذى يلتقى مع الطبيعة الانسانية السليمة لقاء مواخيا ، مزاوجا بين فطرة الله ، ودين الله .

فالانسان بفطرته مؤمن بالله ، ذلك الايمان الذى هو أساس دين الله ، ومركز دائرته .. فلو ترك الانسان لنفسه من غير أن تدخل عليه المؤثرات المنحرفة من خارج ذاته لكان مؤمنـــا بالله ، بداع من فطرته ، قبل أن يدعوه داع من رسل الله ..

وهذا ما يشير اليه الرسول الكريم فى قوله : « كل مولود يولد على الفطرة » .. وهو مادلت عليه الآية الكريمة : **« واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على انفسهم ألست بربكم ، قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا انما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون »** (٧٢ — ١٧٣ : الأعراف) .. فهكذا أخذ الله العهد على ذرية آدم ، وهم فى عالم النطف ، وأشهدهم على أنفسهم بألوهيته ، وربوبيته ، فشهدوا .. ومن هنا كان قوله تعالى : **« الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون »** (٢٧ : البقرة) مشيرا بنقض عهد الله فى هذه الآية الى ذلك العهد السابق فى الأزل ، الذى أخذ الله تعالى على بنى آدم ، كما كان مشيرا بقطع ما أمر الله به أن يوصل الى ماكان ينبغى من الكافرين من وصل أيمان فطرتهم بالايمان الذى يدعوهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه اليه ، ولكنهم بكفرهم قد قطعوا ما أمر الله أن يوصل من وصل دين الفطرة بدين الرسالة .

***

نعود بعد هذا لنؤكد أن دعوة الاسلام ، ليست دعوة الى مراسم وطقوس ، والى صور من الرسوم والمشاهد ، وانما هى قبل كل هذا تصحيح لانسانية الانسان ، ورد لاعتباره ، بايقاظ عقله من رقاد ، أو تنبيهه من غفلة ، أو رده من شرود ، أو تقويمه من زيغ ، أو بعثه من موات .. وذلك حتى يعود الى فطرته ، وينفض عنها كل ما علق بها من آفات الضلال والزيغ .. فاذا أقام الاسلام الانسان بهذا المقام،يكون قد وصله بخالقه،ووجه وجهه، وعقله ، وقلبه الى ما لله سبحانه وتعالى من صفات الجلال ، والعظمة ، والكمال .. وبهذا يصبح الانسان أهلا لان يتلقى وصايا ربه ، وأن يخاطب على لسان رسله ، وان يكلف بما يكلف به من عبادات ومعاملات ، واخلاقيات ، هى زاده العتيد ، ليظل محتفظا بانسانيته ، التى صفى الاسلام جوهرها ، ودفع عوائل السوء عنها ..

فالاسلام لا يتعامل الا مع الانسان العاقل الرشيد ، الذى ليس لهواه سلطان على عقله ، ولا لانسان تسلط على ارادته .. فان

التقى الاسلام بمثل هذا الانسان ، صافحه مرحبا به لأول لقاء ، وافسح له مكانا كريما بين أهله ، وان التقى به مفتونا مغرورا ، أو أحمق جهولا ، لم يزو وجهه عنه ، ولم يقبض يده دونه ، ولم يغلق الباب فى وجهه ، بل لقيه حانيا عليه ، رحيما به ، لقاء الطبيب الكريم الرحيم بجريح فى مخلفات معركة .. فهو يضمد جراحه ، ويمسك نزيف دمه ، ويملأ قلبه بدفء الأمل بالابتسامة الحلوة على شفتيه ، وبالكلمة الودود الواعدة بالشفاء ، المبشرة بالعافية .

هكذا يفعل الاسلام مع من يلتقى بهم من مرضى العقـــول ، وضعاف الأحلام .. حيث يلقاهم حدبا عليهم ، حفيا بهم ، يضع بين أيديهم كل دواء يذهب بعللهم ، ويشفى أسقامهم ، اذا هم أقبلوا عليه ، واستساغوا طعمه ، وجروا معه على ما رسم لهم من حدوده ومعالمه ، والله سبحانه وتعالى يقول : « **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين الا خسارا** » (٨٢ : الاسراء) .. أما من يعرض عن هذا الدواء ، ويســـوء ظنه به ، ورأيه فيه ، فانه يدعه وشأنه دون أن يغلق بابه دونه ، ودون أن يحرمه هذا الدواء المحدود له .. فالباب الى دين الله مفتوح لكل انسان مدى الحياة الى ما قبيل أن يحضره الموت !

وننتهى من هذا كله الى القول بأن الاسلام لا يقبل التعـــامل مع انسان الا اذا كان على هذا المستوى الكريم للانســـــان العاقل الرشيد ، سواء أجاء اليه هذا الانسان ابتداء وهو عاقل رشيد ، أم التقى بالاسلام مريض العقل ، سقيم الرشد ، فوجد فى هـــذا اللقاء السلامة لعقله ، والعافية لرشده ، فتهيأ له بذلك أن يدخل الاسلام ، وأن يصحبه صحبة ملازمة ، ويصبح من أهله ..

ان الاسلام ما جاء ليخدع الناس عن أنفسهم ، وعن الأمراض الخفية التى تغتال عقولهم ، وتطمس معالم الادراك منهم ، أو ليقيمهم على هذا المستوى الهابط بانسانيتهم الى مستوى الحيوان، حيث يسلمون قيادهم لأى مخادع ، ويبذلون ولاءهم وأعمالهـــم وأموالهم لكل مستغل مخادع ، فذلك أبعد ما يكون عن أى دين سماوى ، الذى هو خير خالص للانسان ، ورحمة منزله من ربه اليه ، تخصب مدركاته ، وتنمى عقله ، وتعلى قدره ، وتحرسه

من آفات الحياة التى تتهدد وجوده ، فان يكن فى الدين — أى دين — شيء غير هذا ، فهو على القطع ، ليس من دين الله ، الذى هو جامعة كل خير ،ومصدر كل نور وهدى : **« ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور »** (٤٠ : النور) .

وقد كان بحسبنا أن نقف عند هذا فى حديثنا عن الاسلام ، وأن ندع لمن يريدون أن يتعرفوا على حقائقه ، سواء كانوا من أهله أو من غير أهله ، وسواء أكانوا من أوليائه أو أعدائه — ندع لهم أن يشهدوا هذا بأنفسهم ، وأن يتعرفوا اليه بعقولهم عن تجربة وامتحان ، وأن يعرضوا كل حقيقة من حقائقه موضع البحث والتمحيص ، مستنصحين لأنفسهم ، طالبين الحق والخير لهـا ، ثم ليكن لهم بعد هذا ما يشاءون من اقبال على الاسلام ، أو أعراض عنه . . فاما ايمان مطلق ، عن يقين لا تخالطه ذرة من شك، واما كفر صراح بلا توقف أو تردد .

ومع هذا ، فان انسانا يعيش بعقله ازاء الحقائق باحثا دارسا ، وهو فى حال من الشك ، أو التردد ، أو الرفض ، هو عند الاسلام خير ألف مرة من انسان لم ينظر فى دينه بعقله ، ولم يزن حقائقه بمدركاته ، بل أخذ ذلك وراثة من غير كد أو جهد ، ومن غير أن يعرف حقيقة ماورث ، ولا كيف ينتفع بما ورث — ان انســانا كهذا لا يجد فيه الاسلام الانسان الذى يريده عالما صـــغيرا قد انطوى فيه العالم الأكبر ، بجلاله وروعته ، وعظمته ، ثم يريده لبنة صالحة فى بناء أمة بناها الاسلام وأخرجها بتعاليمه لتـكون خير أمة أخرجت للناس .

نقول : كان بحسبنا أن نقف فى حديثنا عن الاسلام عند هـذا وندع لكل انسان أن يختار مع الاسلام الطريق الذى يشاء ، يتبينها بعقله ، ويميزها بادراكه ، ولكن رأينا من الوفاء للحق ، ومن قضاء واجب يقتضيه دين الله منا ، بالدعوة الى الله ، وبدفع الشبه والضلالات والمعاثر التى يلقى بها الشيطان وأولياء الشيطان على محجة هذا الطريق المستقيم ، لتزيغ عنها أبصار ، وتعمى عنها بصائر — رأينا ازاء هذا أن نلتقى بالاسلام لقاء مواجها ، لا يصحبنا فى طريقنا معه ، الا العقل ، والعقل وحده ، بعيدين —

على قدر ما نستطيع — عن كلمنزغ من منازغ العاطفة التى تصلنا بالاسلام ، مجردين — ما أمكن ذلك — من كل المؤثرات القوية التى تركها هذا الدين فى أعماقنا .

فان تحقق لنا هذا ، وذلك ما نرجوه ، ونسأل الله تعالى العون عليه ، والتوفيق فيه — نكن قد أصبنا غرضين فى وقت معا :

أولهما : ارتياد الطريق الى الله ، ونصب معالم عليه لمن يريد أن يقيم وجهه الى الله ، حيث يجد فيها عقله أنسا من وحشته فى صحبة عقل يسلك الطريق معه .

وثانيهما : اعادة كشف الحقائق التى آمنا بها ، وأعطينا ولاءنا لها ، وفى هذا تجديد لحياة هذه الحقائق فينا ، وايقاظ لها من مرقدها فى عقولنا وقلوبنا ، بعد أن طال الزمن بها ، وهى فى حال من الثبات والاستقرار ، فسكنت ، ونامت ، ولم يعد لها مفعول مؤثر فى حياتنا !! وهذا — فى رأينا — هو سبب أول من أسباب هذه العزلة الموحشة بيننا وبين ديننا ، فجمدت حقائقه فى عقولنا ، وبردت جذوته فى صدورنا ، وزال سلطانه على منازعنا ، وسلوكنا .

وطبيعى اننا — ونحن نعرض حقائق الاسلام — لا نعرض لحقائق أى دين غيره ، ولا نعقد الموازنات بينهوبين المذاهب والديانات الأخرى ، لأننا نؤمن بأن الاسلام هو دين الله الذى رضيه لعباده ، كما يقول سبحانه : ((**اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا**)) (٣ : المائدة) .

اننا نعرض هنا حقائق الاسلام لكل مسلم ، ليعرضها على عقله ، أو ليعيد عرضها من جديد ، ففى ذلك العرض تصحيح لكثير من المفاهيم الخاطئة التى تدسست الى كثير من العقول ، وأخذت مكانها من النفوس ، فكان هذا الذى نعانيه من غربة فى الحياة ، ومن اصطدام مدمر بواقعها الذى نلقاه تحت اسم الاسلام ، دون أن يكون للاسلام مفهوم صحيح فى عقولنا ، ومكان مكين فى قلوبنا .. وانه لمن الظلم للاسلام أن نأخذ منه اسمه ، دون حقائقه ، ثم نتعامل بهذا الاسم على أنه هو الاسلام ، فيكون

شأننا معه شأن شاهد الزور ، الذى يدعى أنه قريب الصلة بمن شهد عليه ، وأنه مطلع على أحواله ، فيدينه بهذه الشهادة الزور ، ويضعه موضع الاتهام .

***

والحق أن الذى ينظر الى الاسلام من خلال المسلمين اليوم ، وما أصيبوا به فى أخلاقهم مما ينكره الدين ، ويتوعد بالعقاب الشديد عليه — الذى ينظر الى المسلمين هذه النظرة لا يسعه الا أن ينكر الاسلام ، اذا لم يكن على صلة وثيقة به ، عرف منها حقيقة هذا الدين ، وما يصبغ به أهله من كريم الأخلاق ، وحميد الفعال .. فاذا كان على تلك الصلة الوثيقة بدين الله لم ير بدا من أن ينكر انتساب هؤلاء المسلمين الى الاسلام !

ان الاسلام اليوم غريب فى أهله الذى ينتسبون اليه نسبة الأدعياء الى آباء لا تسرى فيهم دماؤهم ، ولم تلدهم لهم زوجاتهم ..

ولقد شغلنا زمنا طويلا عن النظر الى انفسنا ، واصلاح ما بيننا وبين ديننا ، بأكثر من شاغل :

فأولا : تلك الحروب المتصلة ، وهذه الطعنات الخبيثة الخفية ، التى يسوقها أعداء الاسلام الى الاسلام ، فكان من همنا هو رد هذه الطعنات بالطعن فى الديانات الأخرى ، وكشف ما فيها من تحريف ، وتضليل ، حتى لكأن المعركة بين دين ودين ، وكان الأولى بنا فى هذا المقام هو عرض حقائق ديننا ، لا بالأقوال وحدها ، ولكن بالأعمال التى تتجلى فيها تلك الحقائق فى صورة لا تقبل جدلا ، ولا مكابرة .. أما الأقوال وحدها المجردة من الشواهد العملية التى تشهد لها ، فما أيسر المجادلة فيها ، والدفع بالسفسطة والماحكة ، وان كانت من الحق الصراح !

وخير شاهد لهذا القول ، أن القرآن ، وهو دستور الشريعة الاسلامية ، وجامعة أحكامها ، وآدابها ، هو هو من عهد النبوة ، لم يتغير منه حرف ، ولم تتبدل منه كلمة ، ومع هذا فما أبعد الفرق بين مكانه وآثاره فى حياة المسلمين فى عصر النبوة ،

وبين مقامه وآثاره فى حياة المسلمين اليوم ، وقبل اليوم لقرون خلت .. وما ذلك الا لأن كلمات القرآن قد نزلت فى قلووب المؤمنين الأولين وعقولهم منزل الغيث أصاب أرضا طيبة ، فاهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج ، على حين نزلت هذه الكلمات من قلوبنا وعقولنا منزل الغيث أصـــاب أرضا سيخة جدبيا ، فتحول فيهـــا الى برك قد أسن ماؤها ، وخبثت ريحها ، لو اطلع عليها مطلع لفر منها ، ولسد أنفه أن ينفذ اليه ريحها .

ومن هنا نفهم صدق هذا الوصف ودقته ، الذى وصفت به النبى ، السيدة عائشة رضى الله عنها ، وهى تتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الكلمة الجامعة لصفاته الكريمة كلهـــا اذ تقول : « كان خلقه القرآن » ونعم ، لقد كان الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه قرآنا يمشى على الأرض فى صـــــورة بشر ، فكان تفسيرا حيا لآيات الله وكلماته .. وكذلك كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة مصغرة لهذا السمت النبوى الكريم ، فكان فى كل منهم صورة مقاربة لكثير من آيات الله وكلماته ..

أما حال المسلمين اليوم مع القرآن ، فهم صور شائهـــة له ، وتفسير مغلوط مقلوب لآياته وكلماته .. لا يجدون من القـــرآن مصادقة على ما يستشهدون به من معجز أحكامه ، ومحكم آدابه، حيث يرى الناس منهم غير ما يسمعون .. وما راء كمن سمع ، كما يقول المثل !

وثانيا ، مما شغلنا عن أنفسنا ، وعزلنا عن ديننا ، هو هذا البريق الخادع من مدينة الغرب المادية ، التى اغرت كثيرا منـــا بالعدو السريع اليها ، وبالجرى اللاهث وراءها ، الأمر الذى لم يدع لكثير منا فرصة يراجع فيها دينه ، ويلتمس المدنية الكاملة ، الصادقة ، من معدن هذا الدين ، ومن نسج ثوبها القشيب من خيوط احـــكامه ومبادئه .. وانه لو فعل لأقام فى هـــدى دينه مدنية ، وأسس حضارة ، تزرى بكل مدنية ، وتعلو على كل حضارة .. ولكنه التقليد الأعمى والنظرة العجول ، والشهوة الحمقاء ، هى التى ساقت كثيرا من شبابنا ، وكهولنا ، بل وشيوخنا ، الى هذا المزلق

الخطر ، فكانوا أشبه بالغربان الذين يضعون على أجسادهم ريش الطواويس !!

***

وبعد ، فقد آن لنا هذا التمهيد الطويل ، أن نلتقى بالاسلام وحقائقه وبرسول الاسلام وهديه ، حريصين فى هذا المقـــام على الا نقول على الله ، وعلى دين الله ، وعلى رسول الله غير الحق ، وما كان لنا ـــ ونحن ندعو الى الله ـــ أن نقول غير الحق ، الذى يهدى من ضلال ، ويبصر من عمى : **« فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، »** (الانعام : ١٠٤) .. **« وقل الحق من ربـــكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »** (الكهف : ٢٩) **« والله يقول الحق وهو يهدى السبيل »** (الأحزاب : ٤) .. وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ، بدءا ، وختاما .

الإســلام وقضايــاه

« ومن يبتغ غير الاســلام
دينا ، فلن يقبل منه ، وهو فى
الآخرة من الخاسرين » .
(قرآن كريم)

الاسلام : عقيدة ، وشريعة ..

هاتان حقيقتان كبريان ، يندرج تحتهما كل ما ضم عليه الاسلام من حقائق عليا ، يدين الله تعالى بها أتباعه ، ويحملهم أمانتهـــا ، ويحاسبهم على ما يكون منهم من وفاء بها ، أو خيانة لها ، ثم يجازى كلا بما هو أهل له ..

« ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين احســنوا بالحسنى » (٣١ : النجم) .

والعقيدة ، اقرار باللسان ، وتصديق بالعقل ، وايمان ومعتقد فى القلب ..

والشريعة ، عمل ، وسلوك ، هو مظهر لما تمليه العقيدة ، وما يقضى به المعتقد ، ليظل حيا نابضا فى كيان الانسان ، أشبه بالماء للزرع ، يخرج خبأه ، وينضر عوده ، ويطلع زهره ، وينضج ثمره ..

العقيــــدة :

ويندرج تحت العقيدة خمسة أصول :

أولا : الايمان بالله ..

وثانيا : الايمان بملائكته ..

وثالثا : الايمان برسله ..

ورابعا : الايمان بكتبه ..

وخامسا : الايمان باليوم الآخر ، وما يتصل به ، من بعث ، وحساب ، وجنة ، ونار .

الشريعــة :

ويندرج تحت الشريعة ثلاثة أصول :

أولا : العبـــادات ..

وثانيا : المعاملات ..

وثالثا : الأخـــلاق ..

وهذا اجمالى يحتاج الى تفصيل ..

الباب الأول

العقيدة

أولاً : الإيمان بالله

« قل هو الله احد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » .

(سورة الاخلاص)

الايمان لا يكون الا بعد العلم بما يؤمن به الانسان ، والعلم لا يقع الا بتصور المعلوم ، واقامة مفهوم صحيح له فى عقل الانسان ومدركاته .. والعلم الذى يعطى ايمانا حقا هو أعلى درجات العلم ، وأكمل درجة يبلغها العالم بعلمه ، حتى يقع اليقين عنده بما علم ، وحتى يكون هذا اليقين قوة ذات سلطان محكم ، ومتحكم فى العالم ، بحيث لا يخرج فى أقواله وأفعاله عن مفهوم ما علم واستيقن ، وآمن .

ونسأل : هل ينطبق هذا المفهوم للايمان ، على الايمان بالله ؟ بمعنى ، هل يمكن أن يتصور الانسان الاله ، ويحيط به ، كما يحيط علما بالموجودات التى بين يديه ، وتحت سلطان حواسه ؟

وهذا التساؤل ، انما هو للذين يؤمنون بوجود اله واحد لاشريك له ، قائم على هذا الوجود كله ، خلقا وأمرا ، على اختلاف تصوراتهم لهذا الاله ، وماله من صفات الكمال المطلق عندهم .

أما غير المؤمنين بالله ، فانا لا نقف معهم موقف النظر والمجادلة فى هذا المقام ، بل ندعهم وما هم فيه من حيرة وقلق ، وهم فى هذا الموقف الذى هم فيه فى همهقيم مقعد مع ما يطرقهم من وسواس ، وهم يبحثون عن هذا الاله الذى خيل اليهم أنهم خرجوا من سلطانه ، واخلوا أيديهم منه ، كما يزعمون .. ونحن نزعم بل نجزم أن فراغا هائلا يموج فى كيانهم ، تحركه عواصف مزمجرة من القلق ، والشك

والحيرة .. انهم — مع ما يبدو عليهم من رضى عن موقفهم هذا المنكر للاله — لا تخلو أنفسهم أبدا من طوارق الوساوس ، والكآبة والهموم التى تغشاهم من مناطق مندسة فى أعماقهم ، لا يدرون لها تأويلا ، ولا يستطيعون عنها تحولا ، وهى تحدثهم عن الله ، وتكشف لهم عن سلطانه القائم عليهم ، وعلى كل مافى هـذا الوجود .. ذلك فى الواقع هو وضع الملحدين ، والكافرين ، والمنافقين ، والمشركين ، وكل من فى قلوبهم مرض حجب عنهـم الرؤية الكاشفة للحق الذى ينشر نوره ، ويمد سلطانه فى ملكوت السموات والأرض .. انهم لن يخلصوا لمعتقدهم هذا الفاسـد أبدا ، ولو أخلصـوا له فى وقت ما ، حيث تتدافع بهم أمـواج الحياة ، ويسوقهم تيارها العنيف ، جريا وراء متـاع الدنيـا ومفاتنها — فانهم حين يخلون الى أنفسهم ، تعاودهم الوساوس والأوهام من هذا الشعور بتلك القوة المطلقة ، وهذا السلطان العظيم ، الذى يطلع عليهم من أعماق فطرتهم ، ثم اذا كربهم كرب ، وأحاط بهم بلاء ، وتقطعت الأسباب بينهم وبين النجـاة من هذا الكرب ، والخلاص من هذا البلاء ، عندئذ لا يرون الا وجه الله ، فاذاهم به متعلقون ، وله داعون متضرعون .. انها صحوة للفطرة ، أشبه بصحوة المشرف على الموت .. فاما أن تتحـول هذه الشرارة المنطلقة من كيانه الى وهج تستضىء به جوانب نفسه ، فاذا هو فى نور من نور الله ، لا يغرب أبـدا ، وأما أن تنطفىء تلك الشرارة ، وتصبح رمادا ، يتحول بعدها صاحبها الى عالمه المظلم الذى يعيش فيه ..

* * *

فمن الحقائق التى ربما غابت عن كثير من الناس ، أن وجود الله تعالى حقيقة مستقرة فى كيان الانسان — كل انسان — مندسـة فى وجدانه ، حتى عند أولئك الملحدين والماديين الذين ينكرون وجود الله ، ولا يرون شيئا وراء هذا العالم المادى الذى يعيشـون فيه ، وتتعامل معه حواسهم ، من بصر ، وسمع ، وشـم ، وذوق ، ولمس ..

ان هذه الحقيقة من وجود الله ، فى فطرة من ينكرون وجود الله ، انما تكشف عنها الشدائد والأزمات ، التى يتعرض لها هـؤلاء

المنكرون ، وذلك لا يكون الا حين تضيق بهم مسالك النجاة ، وتسد في وجوههم منافذ الخلاص .. عندئذ تنجلى عنهم الأوهام وتفر من بين أيديهم الضلالات ، التى حجبتهم عن الله ، حيث يصهرهم هذا الكرب الذى هم فيه ، فتنقدح فى كيانهم تلك الشرارة المقدسة من أنوار الحق ، فيرون على ضوئها الا ملجأ من الله الا الى الله ، والا خلاص الا بالولاء له ، والرجاء فيه .. وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : **« قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين .. قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون »** (٦٣ — ٦٤ : الأنعام) وما يكشف عنه قوله جل شأنه : **« هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى اذا كنتم فى الفلك ، وجرين بهم بريح طيبة ، وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين ، لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق »** (٢٢ — ٢٣ : يونس) .

ومما يفهم من هذه الآيات الكريمة ، أن الله تعالى قد استجاب دعاء هؤلاء الداعين ، ممن كانوا على انكار له ، وكفر به ، وذلك فى حال كانوا فيها — ولو للحظة عابرة — أقرب ما يكونون الى الايمان بالله ، واخلاص الدعاء له ، وبغير هذا الاخلاص لا يقبل دعاء .

روى أن عكرمة بن أبى سفيان وجماعة من المشركين ، فروا من مكة يوم الفتح ، استكبارا أن يسلموا ، ويعطوا أيديهم لرسول الله ، وللمسلمين ، فركبوا سفينة ، لم تلبث أن لعبت بها العواصف وأخذتها الأمواج من كل جانب ، حتى كادت تغرق وتلقى براكبيها فى الماء .. وهنا — ومن غير تدبير أو تفكير — هتف القوم ، بالدعاء الى الله فى ضراعة واستكانة ، فقال عكرمة : ما هذا ؟ فقالوا هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله ! فقال عكرمة : هذا إله محمد ، الذى يدعونا اليه ، وانه ان لم ينجنى فى البحر الا هو ، فلن ينجنى فى البر غيره .. فاللهم رب محمد ، ان لك عهدا ان عافيتنى مما أنا فيه ان آتى محمدا ، حتى أضع يدى فى يده ، فلأجدنه عفوا كريما .. ثم جاء ، فأسلم ! » .

ويروى أن الامام جعفر بن محمد الصادق سئل عن الله تعالى ، وكيف يجده من يريده ، فقال لسائله : ألم تركب البحر ؟ قال بلى .. قال فهل هاجت الريح عاصفا بكم ؟ قال : نعم .. قال : فهل خطر ببالك ، أو انقدح فى نفسك أن هناك من يستطيع أن ينقذك اذا شاء ؟ قال : نعم .. قال : فذلك هو الله ! »

وأرانا قد طال وقوفنا مع المنكرين للاله ، وكثر حديثنا اليهم ، وما كان بهم من حاجة الينا ، والى هذا الحديث الذى نعرضه عليهم . وان كنا نحن بحاجة الى هدايتهم ، والى استنقاذهم مما هم فيه من غفلة وضياع .. فهم أعضاء فى المجتمع الانسانى ، ومن خير المجتمع أن تسلم جميع أعضائه من العطب والفساد ..

مع المؤمنين :

وعلى أى : فان حديثنا هذا الى من يؤمنون بالله ، ويعتقدون بوجوده ، وبوحدانيته ، هو حديث عن الاله ، وعن مفهوم المؤمنين للألوهية ، وتصورهم لله ، وما يصفونه به من صفات الكمال .. وفى هذا ما يتيح للملحدين أن يطلوا من عالمهم الملحد . على هذا العالم ، عالم الايمان ، الذى ينكرونه ، وذلك من باب حب الاستطلاع له ، أو السخرية منه !

ومن يدرى ، فقد ينتهى هذا الموقف العارض أو الساخر بكثير من الملحدين ، أن يؤمنوا ، وأن يخلصوا دينهم لله . فان لم يكن هذا ، فما خسرنا شيئا ، على حين أننا ربحنا الكثير بهذا الذكر لله تعالى فى صحبة الجماعة المؤمنة ،فنزداد ايمانا ، وثوابا ..

ما الاله ؟

وندع كل ما نعرف من المفاهيم والتصورات عن الاله ، عند غير المسلمين ، وبحسبنا أن نعرض المفهوم الاسلامى لذات الله ، وما له جل شأنه من صفات .. ثم نترك لغير المسلمين رأيهم فى هذا المفهوم ، وما يقبله العقل أو يرفضه منه ..
فما مفهوم الاله فى الاسلام ؟

الاله فى مفهوم الاسلام ، وفى معتقد المسلمين ، هو كما بينه القرآن الكريم اجلى بيان واوضحه فى كثير من آيات القرآن الكريم ، الأمر الذى ضم عليه حيز كبير من كتاب الله . ويكفى فى الدلالة على هذا ان القرآن المكى يكاد يكون كله دعوة الى الله ، واعلاما به ، ووصفا لذاته ، حتى ليكاد ينحصر دور الدعوة الاسلامية فى هذه المرحلة من مسيرتها ، فى كشف هذه الحقيقة الكبرى ، واقامتها مقام اليقين فى عقول المؤمنين ، وفى مكان الاطمئنان من قلوبهم .. ثم لازالت أيات الله تتنزل فى المدينة ، وفى محاملها الشريفة معارض كثيرة لما لله سبحانه وتعالى من جلال ، وعظمة ، وكمال ..

ففى سورة الاخلاص وهى من القرآن المكى ، يقول الله تعالى : « قل هو الله احد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا احد » .. فى هذه السورة الكريمة ، وصف موجز معجز لذات الحق سبحانه وتعالى .. انه الوصف الذى وصف به الحق جل وعلا ذاته ، فهو سبحانه واحد لا شريك له ، صمد لا يملك احد معه شيئا فى هذا الوجود ، خلقا أو أمرا .. وهو جل شأنه لم يلد ، لأنه لو كان له ولد — وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا — لكان الولد شبيها له ، ثم شريكا فى صفاته ، ثم وارثا له من بعده ، لان كل والد انمـــا يلد من طبيعته ، وجنسه ، وصفاته الغالبة عليه ، ثم ان من طبيعة التوالد أن يخلى الوالد مكانه لمواليده ، طالت صحبته لهم أم قصرت ...

واذا انتفى عن الله ما لا يليق بوحدانيته ، وجلاله ، من نسبة الولد اليه ، كذلك ينتفى عنه سبحانه أن يكون مولودا لوالد ، لانه لو كان جل شأنه ، وتنزهت ذاته ، مولودا لوالد ، لكان والده سابقا له ، ومقدما عليه ، ولا تصلت سلسلة المتوالد الى مالا نهاية من المواليد ، من آباء كانوا مولودين ، ومن مولودين صاروا آباء .. وهكذا ..

ثم هو سبحانه — كما وصف ذاته — « لم يكن له كفوا أحد » وهذا وصف يقطع بنسبة احد اليه مولودا ، وبنسبته هو الى أحد والدا .. لأن هذا النسب يقضى بالتكافؤ بين الوالدين والمولودين..

وتعالى الله تعالى أن يكون له مكافىء أو مماثل ، والا لتعددت الآلهة ، ولما كان لأحد فضل على أحد ، يقيمه مقام التفرد بسلطانه على هذا الموجود ، الذى لا يقوم الا بسلطان اله واحد ، متفرد ، له الخلق والأمر ، دون أن يكون لغيره خلق أو أمر ، الا بمشيئته واذنه ، وتحت أمره وسلطانه ..

وفى سورة البقرة ، وهى من أوائل القرآن المدنى نزولا ، يقول الله تعالى فى وصف ذاته الكريمة : **((الله لا اله الا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه الا بماشاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم))** (٢٥٥ : البقرة) .. فالله ، هو الاله الواحد المتفرد بالألوهية ، لا شريك له ، ولا صاحبة له ولا ولد ، لأن اى اضافة له — سبحانه — من شريك ، أو زوج أو ولد ، لا يكون الا لدفع ضرر ، أو جلب خير ، أو سد نقص ، وهذا مما يناقض الكمال المطلق الذى ينبغى أن يكون لمالك الملك كله ، والذى بغير هذا الكمال المطلق لا يتحقق الاستواء على عرش الوجود ، والامساك بنظامه ..

والله ، هو الحى حياة قديمة قدما مطلقا لا أول له ، سرمدية أبدية أبدا مطلقا لا نهاية له .. فالحياة المحدثة حياة عارضة ، والعارض لا دوام له مهما امتد به الزمن ، لأن الحادث كما وجد بعد أن لم يكن ، لابد أن يزول بعد أن كان : **((كل شىء هالك الا وجهه))** (٨٨ : القصص) .. وتعالى الله تعالى أن يكون محدثا ، لأن هذا يعنى أن هناك من تقدمه فى زمان ، أو مكان ، أو حال فى زمان أو مكان ، والمتقدم أولى من المتأخر بمقام الصدارة ، وكذلك الأمر لو كان بعده شىء ، لأن هذا الشىء يكون الوارث له ، القائم مقامه ، وهكذا تتدافع الموجودات المحدثة ، فلا يكون لأولها الأولية المطلقة ، ولا يكون لآخرها ، الاخرية المطلقة ، ثم تبقى الاولية المطلقة والاخرية المطلقة ، للذى لا أول قبله ، ولا آخر بعده ، وهو الله رب العالمين : **((هو الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، وهو بكل شىء عليم))** (٣ : الحديد) والله ، لا تأخذه سنة اى تهويمة أو غفلة ، ولا يغشاه نوم ، لأن ذلك عارض غالب ، يعرض للكائن

الحى عن فتور وتعب ، فيتسلط عليه هذا العارض ، ويخضعه لسلطانه ، ومن كان لغيره سلطان عليه لا تصح منه دعوى أن له السلطان المطلق ، والله سبحانه ينبغى أن يكون له السلطان المطلق على كل شىء ، الغالب لكل شىء .. **« ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا »** (٦٣ : مريم) .. ثم كيف يصح أن يعرض التهويم أو النوم لمن يقوم على هذا الوجود ، تسييرا وتدبيرا ؟ .. فمن يدبر هذا الوجود فى غفلته أو نومه ، ومن يرعى شئون هذه العوالم ويحفظها من أن يموج بعضها فى بعض ، ويأتى بعضها على بعض : **« ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا »** (٤١ : فاطر) .

والشاعر العربى يقول :

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة

ونام عنها تولى رعيها الأسد

فتعالى الله سبحانه عن أن تأخذه سنة أو نوم ، أو يعرض له تعب أو فتور : **« ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب »** (٣٨ : ق) .

والعلم المطلق المحيط بكل شىء ظاهرا وباطنا ، صفة ينبغى أن تكون لمن يقوم على هذا الوجود ، ويدبر أمر كل موجود .. **« ألا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير »** (١٤ : الملك) فبالعلم المطلق المحيط بالوجود ، النافذ الى كل ذرة من ذراته ، يقوم سلطان الله تعالى على الوجود ، وعلى تدبيره ، وتسييره فى نظام محكم ، **« لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون »** .. (٤٠ : يس) .

فهذا النظام الذى يمسك بالموجودات كلها ، وينظم مسيرتها ، هو دليل ناطق بلسان مبين بأن لهذا الموجود خالقا ، قادرا ، حكيما ، عالما .. **« ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع**

البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير » (٣ ــ ٤ : الملك) .

والعرش الذى يقوم على سلطان الله قد وسع كرسيه السموات والأرض ، بمعنى أن كل شيء فى هذا الوجود ، من صغير وكبير داخل تحت سلطان الله ، يقضى فيه بما يشاء ، ويصرفه كما يريد : « **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** » (٢٣ : النبأ) .

هذه هى بعض صفات الله تعالى فى مفهوم الاسلام ، وهى من بديهيات العقل ، ومن أوليات قضايا المنطق .

فأولا : هذا الوجود ، لا بد له من موجد أوجده بدءا ، على غير وجود سبق ..

وثانيا : موجد هذا الوجود ، لابد أن يكون واحدا لا شريك له ، ولا ند ، ولا شبيه ، متصفا بالكمال المطلق من كل صفة تليق بذاته الكريمة ..

واذا كان هناك ذو علم ، كان لله العلم الكامل المطلق ، الذى يخضع له كل ذى سلطان ، بلا شريك ، أو منازع ، أو معين .. « **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين** »

واذا كان هناك ذو علم ، كان لله العلم الكامل المطلق ، الذى يحيط بكل شيء : « **وما تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين** » (٥٩ : الأنعام)

واذا كان هناك ذو حياة ، فهى من مانح هذه الحياة الذى من حياته يحيا كل حى ، والذى لا يلحق حياته موت أو عدم .. « **وانا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون** » (٢٣ : الحجر) .

واذا كان هناك ذو ارادة ، كان لله الارادة الكاملة المطلقة ، التى تخضع لها كل ارادة ، وتجرى بسلطانها كل مشيئة : « **وما تشاءون الا أن يشاء الله رب العالمين** » (٢٩ التكوير) .

وإذا كان هناك رحمة ، وكان هناك عدل ، واحسان ، فلله سبحانه وتعالى الكمال المطلق من الرحمة والعدل والاحسان ،

وهكذا فى كل صـــفة كريمة يطلبها الانســـان لكماله ، ويحاول أن يبلغ ما يستطيعه منها ، ثم اجعل للاله الكمال المطلق الذى لا حدود له ولا قيود فى أى صفة من تلك الصفات .

ذلك ما يقضى به العقل بداهة ، ويحكم به منطقه فى تصوره للذات الكاملة التى يسلم الانســـان بأنها صـــاحبة الســـلطان المطلق عليه ، فى كل ما يرى ، وما لايرى من عوالم الوجود .

فاذا قضى العقل بهذا ، وهو ملزم بديهيا ، ومنطقيا ، وفلسفيا بأن يقضى به — كان لابد لصاحب هذا العقل أن ينتظم فى سلك هذا الوجود ، وأن يدخل طوعا بارادة الانسان الحر العـــاقل الرشيد تحت سلطان الله ، الذى هو داخل فيه كرها ، ان لم يدخل فيه طوعا . . « **ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها، وظلالهم بالغدو والآصال** » (١٥ الرعد) .

« **قل ائنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى الى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينـــا طائعين** » (٩ — ١١ : فصلت) .

فماذا ينكر الذين يؤمنون بالاله أن يكون مفهومهم للالوهيـــة على هذا الفهم الذى دعا اليه الاسلام ؟ أفى هذا المفهوم شىء ناقص فيما يطلبه العقلاء الراشدون لمن يعبدونه ، ويسلمون اليه وجودهم ، ويدينون له بالطاعة والولاء ؟

واذا كان فى هذا المفهوم الذى صوره الاسلام لصفات الله ، ما يرى العقل — وفاء لحق الكمال لله — أن يضيفه ، فان الاسلام لا يأبى عليه ذلك ، ولا يعيب مسلكه ، بل انه ليحمد لله أن يرتفع

بمدركاته وتصوراته الى أقصى مدى ، وأن يطلب غاية ما يمكن أن يبلغه من تصور لكمالات الله ، ما دام منزها الله عن كل شريك وعن كل صورةتعرض له من صور المخلوقين ، فالله سبحانه : ((**ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير**)) (١١ : الشورى) .

وامر نحب أن ننبه اليه ، وهو أن هذه الصفات التى وصف الله تعالى بها ذاته فى القرآن الكريم ، هى الصفات التى ينبغى أن نتمثل فيها ما له سبحانه وتعالى من كمالات ، على قدر ماتحتمل مدركاتنا وتصوراتنا من هذا الكمال المطلق الذى لا تحيط به العقول ولا تدركه الظنون : ((**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير**)) (١٠٣ : الأنعام) .

***

فنحن ــ البشر ــ مضطرون بحكم ما فينا من عقل أن يكون ايماننـــا بالله ايمانا قائمـــا على معرفة به .. ولما كانت هـــذه المعرفة لا يمكن أن تكون لذات الذات ، رؤية ، أو علما ، أو ظنا ، لأن ذلك يعنى احتواء الذات وتحديدها ، وتعالى الله عن أن يحتوى أو يحد .. لأن الاحتواء ، معناه دخول المحتوى تحت ســـلطان ما يحويه من مادى أو معنوى ، ولأن التحديد يحصر المحدد فى اطار من الزمان أو المكان .. وهذا وذاك مما يلحق الخـــالق بالمخلوقات ، بل يجعل للمخلوقات سلطانا عليه .

نقول ــ لما كانت معرفة الله لا تكون لذات الذات رؤية أو علما أو ظنا ، وكان لابد من معرفة الله ، حتى نعرف مكاننا منه ، وشعورنا بما له من جلال ، وعظمة ، وسلطان ــ فقد لزم أن تكون هـــذه المعرفة عن طريق صفات نصف بها الله ، من خلال شـــعورنا بكماله ، وجلاله ، وعظمته ، وهذا ما يشير اليه قوله تعـــالى : ((**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها**)) (٨٠ : الأعراف) .. فكل مافى أسماء الذوات وصفاتها من كمال ، هو مما ندعو الله تعالى به ، دعاء نستشعر به كمال الله تعالى وجلاله . وتنزيهه عن كل ما للمخلوقات من أسماء وصفات.

والاله فى الشريعة الاسلامية ، اله كبير متعال ، وسع كرسيه السموات والأرض ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير .. ولكنه سبحانه ــ مع علوه علوا مطلقا ، هو قريب قربا مدانيا ، من كل مخلوق ، ومع كبريائيه سبحانه كبرياء عظمة وجلال ، هو سامع كل دعاء ، مجيب كل نداء .. **« واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعــوة الداعى اذا دعــان »** (١٨٦ : البقرة) .. **« ولقد خلقنا الانســان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب اليه من حبل الوريد »** (١٦ : ق)

ذلك ما يعرفه المؤمنون بالله عن الله .. انه سبحانه اقرب اليهم من خطرات نفوسهم ، وخلجات صدورهم ، وهو معهم اينما كانوا .. **« ما يكون من نجوى ثلاثة الا هــو رابعهم ، ولا خمســة الا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بمــا عمــلوا يوم القيــامة ان الله بكل شىء عليم »** (٧ : المجادلة) .. وفى هذا يقول النبى الكريم فيما يرون عن رب العزةجل وعلا : « ما وسعتنى أرضى ولا سمائى ، ووسعنى قلب عبدى المؤمن » .

فصفات الله تعالى التى يصفه بها المؤمنون ، هى غاية ما يمكن أن يبلغه العقل من تصوره للاله الواحد ، القائم على هذا الوجود خلقا وأمرا ، وانــه لمن المحــال أن يقبل العقل الها يعبده ، غير موصوف بكل ما يتصور الانسان من صفات الكمال له ، سواء أكان هذا الاله هو الاله الحق ، أم كان من آلهة الضلال التى يعبدها الضالون .. وهل يمكن أن يتعامل الانسان مع مالا يعرف حقيقة ، أو ظنا ، أو توهما ؟

وقد سئل الامام على كرم الله وجهه : « هل عرفت ربك ؟ فقال سبحان الله ، وهل أعبد مالا أعرف ؟ » .. وهذا حق ، اذ كيف يعبد الانسان مالا يعرف ؟ ولمن يتجه العابد بعبادته ، وولائه ، اذا غاب من تصوره وجه المعبود ؟

فاذا كان للانسان قدرة ، وعلم ، وحكمة ووجود ، وحياة ، وملك ، الى غير ذلك من الصفات التى ينشدها الناس ويجدونها

فى أنفسهم ، أو فى غيرهم ــ اذ كان للانسان هذا ، كان تجريد العقل للذات الالهية من أية صفة ، هو تجريد للذات نفسها من الوجود ، لأن الوجود نفسه صفة ، وكل موجود لا صفه له فهو ــ فى حكم العقل ــ غير موجود !

التجريد والتجســيد :

واذا كان تجريد الذات الالهية من صفات الكمال التى تنبغى لها ، واذا كان هذا التجريد مما يرفضه العقل السليم ، ويأباه التفكير السوى ، لأنه كما قلنا تجريد للذات نفسها من الوجود ــ فان تجسيد الذات ، أو الصفاتمعناه انزال الذاتالى عالم المحسوسات، واخضاعها لحكم الحواس ، بحيث تراها العين ، وتلمسها اليد ، وهذا من شأنه أن يــلزم العقل الذات الحكم الــذى يلزمه كل المحسوسات، وهو التحول والتبدل ، والزوال ، أيا كان هذا المحسوس من القوة ، والمنعة .

والتجســيد للاله أو الآلهة واضــح فى الأطوار الأولى للحياة الانسانية ، باقامة التماثيل والأصنام ، التى تصور بصورة اله ، وتمثله واقعا تحت الحس ، أو باحلاله فى صورة بشرية أو حيوانية يراه الناس من خلالها . .

وهذا التصور للاله ملائم للتفكير البدائى للانسانية ، كما نرى ذلك فى معظم الديانات القديمة . .

ومما وقع فى هذا التفكير البدائى ، هذا التحديد لقدرة الاله ، والمدى الذى يبسط عليه سلطانه . . ولم يقبل هذا التفكير أن يتصور الها واحدا قائما على الوجود كله . . ومن هنا تعددت الالهة ، فكان لكل ظاهرة من ظاهرات الوجود اله ، كما كان لكل مدينة ، أو قرية ، أو جماعة ، الهها الخاص بها . .

فلما ارتقى العقل أخذ يحذف كثيرا من تلك الالهة ويختصرها الى الهين متناطرين ، كالنور والظلام ، أو الخير والشر . .

ولم تتوحد الالهة فى اله واحد الا حين بلغ العقل رشده ، وحين جاءت رسالات السماء تدعو الناس الى اله واحد ، هو الله رب العالمـــين ..

وهنا جاء دور التجريد ..

وتذهب الفلسفة الحديثة فى تصور الاله مذهب التنزيه المطلق ، وتتمثله فكرة أو رمزا ، أكثر منه ذاتا أو حقيقة .. انه مجرد فرض لاله ، موجود ، أو غير موجود .. لا يهم !

وما قيمة هذا الفرض ؟

يقول الفيلسوف الأمريكى « وليم جيمس » :

« لذلك ينبغى علينا ، كفلاسفة ، ومن أجل تحقيق غاياتنا فى ايجاد نظام خلقى واحد ــ ان نفترض وجود الله !

ثم يقول تطبيقا لهذا الافتراض :

« ان اضافة صفة القداسة الى الله ــ الذى أفترض وجوده ــ تجعلنى أعتقد أن الله لا يريد الا الخير ..

« وان لاضافة العلم الكامل لله أثر على سلوكى ، لأنها تجعلنى أعتقدأنه يمكنه رؤية أفعالى فىالظلام !» .. ثم ينهى هذه الافتراضات للاله المفترض ، وما يترتب عليها من أثر فى سلوك الانسان ــ ينهى هذه الافتراضات بقوله : « ان لوجود الله فى نفسك أثر على سلوكك ، انه سيخلق التفاؤل والخير ، وسيخلق الأمن والسعادة .. ان اعتقادك بوجود الله يبرر وجوده ، ويحققه ! » .

وندع هذه التصورات الفلسفية التى تجعل الله مجرد فرض يخلقه العقل ويعتقده ، ثم يتعامل معه ، غير محقق ان كان هذا الفرض يستند الى حقيقة أم لا .. ان الأمر لا يعدو أن يكون مجرد ايحاء نفسى يقيم فى النفس تصورا لاله على صفات خاصة .. ومثل هذه الايحاءات ان لم تكن مستندة .. على يقين،كانت أشبه بالأحلام، تطير فى لحظة من لحظات اليقظة ..

والاسلام ، لا يقول بتجسيد ولا تجريد لله سبحانه وتعالى ، وانما يؤمن به من خلال هذا الوجود الذى لا تتناهى عوالمه ، والذى هو فى حركة دائبة فى كل الاتجاهات ، يمسك به نظام دقيق محكم ، لا يتحول ، ولا يتبدل .. فعلى هذا الوجود سلطان قائم ، موصوف بكل صفات الكمال التى من آثارها كل ما فى هذا الوجود من عوالم ، وهذا ما يشير اليـه قوله تعالى ، **« هـو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم »** (٣ : الحديد) .

يقول عبد الغنى النابلسى : « الظاهر ، من حيث صفاته وأسماؤه ، فى صورة كل أحد ، من غير أن يحل فى شىء أو يكون بشىءقد اتحد .. والباطن ، من حيث ذاته العلية ، عن معرفة أحد من البرية » .

ويقول ابن عربى : « يريد العارفون أن يفصلوه تعالى بالكلية عن العالم ، من شدة التنزيه ، فلا يقدرون ، ويريدون أن يجعلوه بعيدا عن العالم من شدة القرب ، فلا يتحقق لهم .. فهم على الدوام متحيرون » ..

وهذا الكلام ، وان اصطبغ بصبغة صوفية الا أنه يصور الواقع فى تفكير المؤمنين فى ذات الله ، أنه سبحانه لا يحتويه فكر ، والفكر أبدا مشغول به ، ولا يحده تصور ، والتصور دائما منازع فيه .. وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » فكل ما خطر فى النفس ، أو جال فى الفكر من تصور لذات الله ، فالله تعالى منزه عنه ..

وفى هذا يقول أبو بكر الصديق رضى الله ،وقد سئل :

هل عرفت ربك ؟ قال : نعم .. قيل وبم عرفته ؟ قال : عرفت ربى بربى ، ولولا ربى ما عرفت ربى ..

قيل وكيف عرفته ؟ قال : العجز عن الادراك ادراك .

رضيت بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد نبيا ورسولا .

***

ثانيا: الإيمان بملائكته

« الحمد لله فاطر السموات
والأرض جاعل الملائكة رسلا
أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع
يزيد فى الخلق ما يشاء ..
ان الله على كل شىء قدير »

(١ : فاطر)

الملائكة خلق من خلق الله غير المرئى ، وهم عبيد الله ، مسخرون بقدرته ، مؤتمرون بأمره : **« لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون »** (٦ : التحريم)

فهم فى ملك الله ، وهم بعض من هذا الملك ، كالنور ، والهواء ، والشمس والقمر ، والنجوم والانسان ، وغير ذلك من عوالم المخلوقات ، لهم دور فى هذا الوجود ، يؤدونه حسب طبيعتهم ، فيما خلقهم الله تعالى له ، شأنهم فى هذا شأن كل ما خلق الله من كائنات .. **« وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما الا بالحق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون »** (٣٨ — ٣٩ الدخان) .

ولأن الملائكة من العوالم غير المنظورة ، أو المحسوسة ، فان الايمان بهم هو ايمان بالغيب ، الذى ينكره الماديون ، ولايعترفون به ، لأنهم لا يعترفون الا بالمحسوسات وحدها ، أما ماوراء الحس

فهو عندهم عالم من الأوهام والخرافات.. والمؤمنون بالله ، هم الذين يؤمنون بالغيب ، لأن ايمانهم بالله ، يقتضي الايمان بما يخبرهم الله تعالى به من غيوب ، وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : **« ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون »** (٢ — ٣ : البقرة) .

والايمان بالملائكة ليس معناه الايمان بذواتهم ، وانما المقصود منه العلم بوجودهم فى هذا الوجود علما مستيقنا ..

ثم انه ليس الايمان بالملائكة ، والعلم المستيقن بوجودهم ، مردا لذاته ، وانما هو مقدمة للعلم بأنهم رسل من رسل الله ، الى من يصطفيهم الله سبحانه وتعالى من عباده ليكونوا رسله الى الناس ، بما يدعوهم الله تعالى اليه من الايمان به ، وما وراء هذا الايمان من أوامر يأتمرون بها ، ومنهيات ينتهون عنها ..

وذلك انه لما كان رسل الله بشرا ، لا يستطيعون بحكم طبيعتهم احتمال الاتصال بالله تعالى اتصالا مباشرا ، فقد اقتضت حكمته سبحانه ان يختار من عالم الملائكة ، عالم النور ، سفراء بينه جل شأنه ، وبين من اصطفاهم من الناس رسلا .. **« الحمد لله ، فاطر السموات والأرض ، جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى ، وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء ، ان الله على كل شىء قدير »** (١ — فاطر)

وعلى هذا ، فان الايمان بالرسل ، يقتضى أن يسبقه الايمان بالملائكة الذين هم حملة رسالات الله تعالى اليهم ، وفى هذا يقول الله تعالى : **« الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس »** (٧٥ : الحج) فيصطفى سبحانه من يحمل رسالته الى من يصطفيهم سبحانه من الناس الى الناس ..

وقد كان العرب فى الجاهلية يؤمنون بالملائكة ، وأنهم من العالم غير المنظور ، ولكنهم يضيفون الملائكة الى الله اضافة نسب لبنوة اليه سبحانه وتعالى الله عما يقولون علوا كبيرا : **« أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟ »** (١٠١ : الانعام) .

وفى هذا يقول الله تعالى : « **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم انى اله من دونه ، فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين** » (٢٦ ـــ ٢٩ الأنبياء) .

ثم ان هؤلاء الجاهلين الذين نسبوا الملائكة الى الله ، وجعلوهم أبناءه ، لم يشاءوا أن يتصورهم ذكورا ، أو ذكورا واناثا ، شأن المواليد من الآدميين وغيرهم ، ولكنهم قالوا ان الملائكة جميعا اناث ، ليس فيهم ذكر .. وفى هذا يقول الله تعالى عنهم . « **وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا .. أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون** » .. ويقول تبارك اسمه أيضا : « **ويجعلون لله البنات ، سبحانه ، ولهم ما يشتهون ، واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون ، للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم** » (٥٧ ـــ ٦٠ النحل) .. هكذا يزين الضلال السوء لأهله ، فيرون حقائق الأشياء مقلوبة ، فيبدو لهم الأبيض أسود ، والجميل قبيحا ، والحق باطلا .. اذ كيف يساغ عند هؤلاء الذين قالوا ـــ سفها وضلالا ـــ ان لله أبناء هم الملائكة ، ثم يكون هؤلاء الأبناء اناثا ، مع أنهم يكرهون الاناث ؟ « **واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب .. ألا ساء ما يحكمون** » .. **ثم لقد أمعنوا فى الضلال اذ صوروا هؤلاء الملائكة الاناث فى صورة تماثيل ودمى ، وأطلقوا عليها من أسماء الاناث ما يشاءون ، ثم عبدوها لتقربهم الى الله زلفى : فكان من معبوداتهم : اللات ، والعزى ، ومناة ،** كما يقول سبحانه منكرا عليهم ما افتروه على الله وعلى الملائكة :
« **أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك اذن قسمة ضيزى ، ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى** » (١٩ ـــ ٢٣ : النجم) .

هذا ، ويذكر القرآن الكريم أن الملائكة جند من جند الله ، يمد بهم المؤمنين ، ليكونوا قوة مساندة لهم فى قتال أعدائهم ، كما يقول

سبحانه فى سورة الأنفال ، وما أمد به سبحانه المسلمين فى غزوة بدر من جنده : ((**اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين**)) (الآية : ٩) .. وهو مدد روحى ، يثبت الله به الذين آمنوا ، ويربط به على قلوبهم ، فيكون قليلهم كثيرا ، وضعيفهم قويا .. وذلك ما يشير اليه قوله تعالى فى الآية التالية للآية السابقة ، اذ يقول سبحانه : ((**وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر الا من عند الله أن الله عزيز حكيم**)) (الآية ١٠) .. وكما يشير الى ذلك قوله تعالى : ((**اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان**)) (الآية : ١٢) .. فالله سبحانه وتعالى هو الذى يلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب .. والأمر فى قوله تعالى : ((**فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان**)) هو موجه منه سبحانه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والى المؤمنين معه بضرب المشركين ، وقد ملا الله تعالى قلوبهم رعبا ، على حين ثبتت الملائكة أقدام المؤمنين وربطت على قلوبهم .. أما الملائكة ، فانهم لم يباشروا القتال ، والا فان ملكا واحد كان يقضى بضربة واحدة على أى جيش مهما كان عدده ، وعدده .. أما أن يكونوا ألف ملك ، فان ذلك معناه أن تلك الألف هى قوى معنوية ، دخلت على قلوب المؤمنين ، فكان ميزان الواحد منهم فى القتال بعشرة من المشركين ، وبهذا يصح أن يضاف البلاء ، والنصر الى المؤمنين ، على خلاف مالو قاتل الملائكة معهم ، وكفوهم البلاء ، والجهاد ، والاستشهاد .. ويشهد لهذا المعنى الذى أشرنا اليه شواهد كثيرة من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى فيما أخذ به المشركين فى غزوة الأحزاب ، نصرا للمؤمنين ، وتأييدا لهم : ((**يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا ، وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا**)) (٩ : الأحزاب) فالريح هنا جند من جند الله . وان كانت محسوسة ، والملائكة جند من جند الله ، وان كانوا غير مرئيين ، ولكن كلا من الريح والملائكة لا يظهرون فى صورة جنود مقاتلين ..

ثالثا: الايمــان برســـــله

« قولوا آمنا بالله ، وما أنزل الينا ، وما أنزل الى ابراهيم واســـماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى ، وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحـــد منهم ونحن له مسلمون »

(١٣٦ : البقرة)

من الايمان بالله تعالى ، الايمان برسله ، الذين يصطفيهم من الناس لحمل رسالته الى النـــاس ، حيث يمكن التفاهم بين أبناء الجنس الواحد من مخلوقات الله .. على خلاف مالو كان الرسول الى الناس من غير جنسهم ، حيث يتعذر التفاهم الذى تقوم دونه تلك الوحشة من اختلاف الطباع بين الجنس وغير جنسه ..

ولهذا اقتضت حكمة الله أن يكون رسله سبحانه الى الناس ، من الناس ، بل ومن بين أقوامهم وعشائرهم ، حيث يولد بينهم ، ويعرفون آباءه ومكانه فيهم ، وحيث يتحدث باللسان الذى يتحدثون به ، وفى هذا يقول الله تعالى : **« وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ، ليبين لهم »** (٤ : ابراهيم) .

وقد نازع كثير من الناس ــ قديما وحديثا ــ فى أمر الرسالة والنبوة ، وهل هناك ضرورة انسانية تدعو الى أن يقوم فى الناس

أنبياء ورسل بالسفارة بين الله والناس ، حاملين اليهم وصـــايا السماء وشرائعها ؟

والناس فى هذا مذاهب وشيع ، بين مؤمن ، وشاك ، ومنكر .

فالمؤمنون بالله ، وبالشرائع السماوية ، يعتقدون انهم انمـــا أخذوا شريعتهم عن رسول من عند الله اليهم ، وأن هذا الرسول انسان من بينهم يعرفونه كما يعرفون آبناءهم وآباءهم ، وأن الله تعالى قد أختاره ليحمل اليهم شريعته ..

وأما غير المؤمنون بشرائع السماء ، فلا يتصورون أبدا أن يكون بين انسان من الناس صلة بالعالم العلوى ،لاختلاف الطبيعة بين العالمين ، الأرضي والعلوى ، هذا اذا صح — عند القائلين بهذا الرأى — وجود للعالم العلوى .. أما الماديون ، فلا يعترفون أصلا بوجود العالم العلوى ، أو عالم الروح ، واذن فالرأى عندهم فى رسل الله هو الانكار الصريح للرسالات السماوية ، وللرسل ، ولله أيضـــــا ..

ولا حديث لنا هنا ، مع المؤمنين برسل الله وأنبيائه فى هـــذا الأمر ، فذلك هو ايماننا وعقيدتنا ، كما هو ايمانهم وعقيدتهم .. وانما نقف معهم صفا واحدا فى وجه المنكرين للنبوات ، على اختلاف مذاهبهم وتعدد آرائهم .. ثم انه لا حديث لنا كذلك مع الماديين ، الذين ينكرون ما وراء المادة ، ولا يعترفون بالاله الخالق .. اذ أن الحديث فى شأن الرسل والأنبياء القائمين بالسفارة بين الله والناس، لا مســـاغ له الا فى ظل الايمان بالله ، عنـــد من يؤمنون به ، لأن الايمان بالرسل فرع عن هذا الأصل ، الذين هو الايمان بالله ، فاذا لم يتحقق الايمان بالأصل ، فلا جدوى من الحديث عن الايمان بالفرع ..

وحديثنا اذن هو مع الذين يعترفون بوجود الله ، ويؤمنون به ، ولكنهم ينكرون الرسل ، ولا يتصورون قيام سفارة بين أحد من الناس بين الله والناس ، ولا يرون داعية تدعو الى قيام نبى أو رسول يحمل الى الناس وصايا السماء ..

والذين يذهبون هذا المذهب هم طائفة من الفلاسفة والحكماء الذين تلبس عليهم الأمر فى شأن الرسل ، وأبت عليهم عقولهم أن تستسيغ هذه المهمة النبيلة العظيمة التى قام عليها أنبياء الله ورسله فى هداية الناس ، وكشف ما تغشاهم من فتن وضلالات . .

وهؤلاء الحكماء والفلاسفة ينظرون الى هذا الأمر بنظرتين متباعدتين : نظرة تحقر الانسان ، فلا تراه أكثر من كائن حيوانى كسائر الحيوان ، لايعدو أن يكون فصيلة من فصائل الحيوانات ، أو سلالاتها . . فهو — والأمر كذلك — مقضى عليه أن يحيا حياته فى هذا القطيع ، دون أن يكون له سبيل للانعزال عن هذا المجتمع الحيوانى ، على هذه الأرض !

تلك هى نظرة الفلاسفة المتشائمين الذين نظروا الى الحياة بمنظار أسود ، فرأوا الوجود كله مجللا بالسواد ، ورأوا الانسان دودة غارقة فى أكوام من التراب ، أو سابحة فى بحار من الأوحال !!

وقد عاشت هذه النظرة المتشائمة ، التى تنظر الى الحياة ، والى الانسان هذه النظرة السوداء القاتمة ، عاشت فى أجيال الناس جيلا بعد جيل ، وكان لها دورات عاصفة فى عقول كثير من الفلاسفة والمفكرين . . وأقرب مثل لهذا ما يقوله ، الفيلســوف الألمانى « نيتشـه » : « لا نريد ملكوتا فى السموات ، فنحن بشر ، نريد ملكوتا أرضيا » ! ويقول « نيتشـه » أيضا : « اذا كان الله قد خلق الانسان ، فانما خلقه قردا ، يلهو به فى أبديته الطويلة ! » .

أما النظرة الأخرى ، فهى على عكس تلك النظرة التى تحط من قدر الانسان ، وتمسك به على مربط الحيوان . . هى نظرة تسمو بالانسان ، وترتفع بقدره ، وتغالى فى قيمة عقله ، فتراه مستغنيا بهذا العقل عن أى شىء يعينه على كشف معالم الطريق ، بل ان العقل وحده مطالب بأن يكون دليل الانسان وهاديه ، فان ضل فان ذلك من تفريط صاحبه ، وعدم اعتداده به ، فان غرق صاحبه فالذنب ذنبه ، ولا يلومن الا نفسه . . وعلى هذا التقرير ، فانه لا ضرورة لمبعوث من السماء ، يحمل الى الناس شريعة من السماء

تقيم لهم دينا ، وتحدد لهم سلوكا ، وحسب الناس فى هذا أن يرجعوا الى عقولهم ، أو الى عقــول من فيهم من قــادة ، ومصــلحين ، وفلاسفة .. منهم واليهم ، ومن الأرض ، وفى الأرض !

ومن أصحاب هذه النظرة أبو العلاء المعرى ، الذى يقول فى لزومياته :

أيهــا المغــرور ان خصصــت بعقــل
فاســـألنه ، فـــكل عقـــل نبى

هذا وقد تولد من هاتين النظرتين : المتشائمة والمتفائلة ، أو المتدلية والمتشامخة ، نظرة أخرى ، ترى أن الانسان فى حاجة الى هداية السماء ، والى تلقى ارشــاداتها ونصائحها .. ولكن ذلك لا يكون عن طريق أحد من الناس .. لأن الناس على سواء ، ولا يصح أن تميز السماء بعضهم عن بعض ، وتفضل بعضهم على بعض ، فاما أن يكون اتصال السماء بهم جميعا ، واحدا واحدا على حد سواء ، واما أن يكون مبعوثها اليهم من عالم الملائكة ..

وقد كشف القرآن الكريم عن هذا اللون من التفكير الانسانى فى مواجهة الرسل ، وفى انكار الناس عليهم أن يكونوا بشرا مثلهم ، وذلك اما عن حسد للانسان أن يعلو على بنى جنسه ، واما عن استعلاء بالرسالة السماوية أن يحملها انسان .. وفى هذا يقول الله تعالى ، عن قوم صالح : « **أبشرا منا واحدا نتبعه ؟ انا اذا لفى ضلال وسعر ، أألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر** » (٢٤ــ٢٥ : القمر) .. ويقول سبحانه فى قوم شعيب : « **قالوا انما أنت من المسحرين، وما أنت الا بشر مثلنا ، وان نظنك لمن الكاذبين** » (١٨٥ ــ ١٨٦ : الشعراء) ويقول جل شأنه فى فرعون وملائه : « **أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون** » (٤٧ : المؤمنون) ويقول سبحانه فى كفار قريش : « **أكان للناس عجبــا أن أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس ، وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون ان هذا لساحر مبين** » (٢ : يونس) .. ويقول تبارك اسمه فى قوم نوح من قبــل : « **ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا**

لخاسرون (٣٤ : المؤمنون) ، ويقول سبحانه عنهم أيضا : **« ما هذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ، ولو شـــاء الله لأنزل ملائكة »** (٢٤ : المؤمنون)

وهكذا ينكر الناس أن يكون منهم رسول من الله اليهم ، ناظرين الى هذا الرسول بعين الحسد ، أو الاستصغار ، على حين تتطلع أنظارهم الى ملك من عند الله ، فهو الجدير بأن يكون رسوله اليهم ، وفى هذا يقول الله تعالى عن مشركى قريش : **« لولا أنـــزل علينا الملائكة أو نرى ربنا »** (٢١ : الفرقان) .

ولو وقع للناس ما يتمنون من أن يكون الرسول اليهم ملـــكا لما استقام للناس معه أمر ، ولا صلح بينه وبينهم شأن ، ولمـــا وقع بينهم وبينه تفاهم .. انهم سيفتنون به ، ويذهلون عن رسالة، والله سبحانه وتعالى يقول : **« قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا »** (٩٥ : الاسراء) وكيف يطمئن للملائكة مقام بين الناس ؟ ان الملك لا يمكن أن يظهر فى الناس فى أية صورة غير صورة الانسان ، والا كان مبعث فتنـــة لهم ، انهم سيتدافعون اليه تدافع الفراش الى ضوء المصباح ، يدور حوله دورة مجنونة الى أن يسقط نصبا واعياء ، أو يلقى بنفسه اليه فيحترق ! كذلك لا يستقيم أمر الناس مع الملك اذا جاءهم فى صورة انسان ، انه لا يغير حينئذ من نفوس النـــــاس شيئا مما عندهم من أمر الرسول البشر .. فهذا وذاك على سواء بينهم .. فالملك فى حالته تلك ، أنسان من الناس ، يرونه رأى العين ، فى صورة بشرية لا تختلف عما يرونه من صور الآدميين ، فاذا قال لهم انه ملك رموه بما رموا به الرسول البشرى من انه ساحر ، أو مجنون ، أو مفتر كذاب ، الى غير ذلك من التهم التى يرمون بها الرسل .. وبهذا كان رد القرآن الكريم على هـــــذا المطلب الغبى الأحمق الجهول .. **« وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلنـــاه ملـــكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون »** (٨ ــ ٩ : الأنعام) .. أى انه لو جاءت رسل الله الى الناس من الملائكة لما جاءوهم الا فى صورة بشرية ، لأن مجيئهم فى صورتهم الملكية لا تحتمـــله

عقول الناس ، ومجيئهم فى صورة بشرية لا يغير من الأمر شيئا ، ولا يجعل لهم عند الناس شأنا غير شأنهم مع الرسل الآدميين ، ولوقع ابليس ، والشك ، والاتهام ، الذى يلقون به رسل الله المرسلين اليهم من بينهم .

امكان اتصال الانسان بالعالم العلوى :

فى ظل الايمان بالله ، لا يسأل المؤمن هذا السؤال : كيف يمكن أن يتصل انسان بالله ، ويتلقى كلماته الى الناس ؟ .. فذلك شأن من شئون الله تعالى ، وأثر من آثار رحمته وقدرته ، وقول المؤمن بالله أمام كل خارق من خوارق الطبيعة هو : ((**ان الله على كل شىء قدير**)) .

ومع هذا ، فقد رد العقل المؤمن على من ينكرون امكان اتصال الانسان بالملأ الأعلى ، وجاء الى هؤلاء المنكرين بالأدلة المادية المحسوسة التى يتعاملون بها فى الحكم على الأشياء .

فمثلا ، نرى ابن خلدون وهو يريد أن يقيم الدليل على امكان اتصال الانسان بالملأ الأعلى ، نراه يعقد فى مقدمته فصلا ، يرتب فيه عوالم الوجود مراتب بعضها فوق بعض : الجماد ، فالنبات ، فالحيوان ، فالانسان ، فالملائكة .. وهو فى هذا الترتيب يضع على رأس كل عالم كائنا تتمثل فيه خصائص عالمه فى أعلى مقاماتها، حتى لتكاد تمس العالم الذى فوقها .. وهكذا تتصل العوالم بعضها ببعض ، فتكون منها وحدة وجودية ، فيها دليل على وحدة الصانع من جهة ، كما فيها امكان ترقى العوالم السفلى الى العالم الذى فوقها .. وهكذا ..

ان ابن خلدون يقيم هنا صرحا من الأدلة على امكان الوحى ، واتصال السماء بالأرض ، عن طريق مخلوق أرضى ، هو قمة مخلوقات العالم المادى ، ومن هذه القمة يمكن أن يلمس السماء ، ويلمح أضواءها ، وهذا المخلوق ، هو الانسان ، الذى يضع قدميه على الأرض ، ويلمس برأسه السماء .

ومما يقوله ابن خلدون هنا : « ثم انظر الى عالم التكوين ، كيف ابتدأ من المعادن ، ثم النبات ، ثم الحيوان ، فى هيئة بديعة من التدريج .. فآخر أفق المعادن — أى الجماد — متصل بأول أفق النبات ، مثل الحشائش وما بذر له ، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان ، مثل الحلزون والصدف ، لم يوجد لهما الآن قوة اللمس فقط ، ومعنى هذا الاتصال فى هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب أن يكون أول أفق المدى الذى بعده » .. ثم ينتقل ابن خلدون الى عالم الحيوان .. فيقول :

« واتسع عالم الحيوان ، وتعددت أنواعه ، وانتهى فى تدريج التكوين الى الانسان ، صاحب الفكر والروية » .. ثم يعرض ابن خلدون بعد هذا أثر العالم العلوى فى الموجودات كلها ، ويجعل لهذه الموجودات تحركا يتدرج بها من حال الى حال ، حتى تصل الى الانسان ، ثم يتدرج الى العالم الانسانى فى أفراده حتى يبلغ به نهاية الأفق الذى يلامس فيه الملأ الأعلى ، ويتهيأ للانتقال اليه .. يقول ابن خلدون :

« فوجب من ذلك أن يكون للانسان استعداد للانسلاخ من البشرية الى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة ، وقتا من الأوقات فى لمحة من اللمحات ، وذلك بعد أن تكمل — أى النفس — ذاتها الروحانية »(١) .

وأيا كانت نظرة ابن خلدون هذه ، وأيا كان حظها من الصحة والصدق ، فانها تنبئ عن حاجة الانسان الى قوة فوقه ، يتعامل معها ، ويفيد منها ، الأمر الذى تحقق من اتصال بعض الناس — وهم رسل الله — بالملائكة ، وتلقى ما ينزل الله تعالى عليهم من كلماته ، المحملة بالفيض العميم من الرحمة ، والاحسان .

فارسال الرسل من الناس بكلمات الله تعالى الى الناس أمر تقتضيه طبيعة الحياة البشرية ، وما يعرض لتلك الطبيعة من

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٩٢ وما بعدها .

فساد ، كما يعرض للاجسام من علل وأمراض .. فكان لابد من اساءة لتالك النفوس البشرية ، يكشفون عن أدوائها ، ويقدمون الدواء الناجع لها ، وذلك بما يتلقون من هدى السماء ، اذ هـو الدواء لا دواء غيره اذا فسدت تلك النفوس ، بما تداعى عليها من علل .. انها نفحة لها من عند الله ، ولا دواء لها الا ما ينزل عليها من رحمات الله ، المحملة فى آياته وكلماته المنزلة على رسله .. وفى هذا يقول الله تعالى عن آياته وكلماته المنزلة فى كتابه : « **ونننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** » (٨٢ : الاسراء) ويقول تبارك اسمه : « **قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد** » (٤٤ : فصلت) .. فالرسل هم حجة الله على عباده كما يقول سبحانه : « **وما كنا معذبين حتى نبعث رسـولا** » (١٥ : الاسراء) وكما يقول تبارك اسمه : « **وان من أمة الا خلا فيها نذير** » (٢٤ : فاطر) .



رابعًا: الإيمان بكتبه

« قل يا أهل الكتاب .. هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل وان أكثركم فاسقون » .

(٥٩ : المائدة)

كانت دعوة رسل الله الى أقوامهم — قبل ابراهيم عليه السلام — دعوة محدودة فى مضمونها ، مقصورة فى الغالب منها ، على الايمان بالله ، ووصل الانسان بخالقه ، الذى يطلع على ما يعمل أو يقول فى سر أو جهر .

ولهذا كانت كلمة الرسول الى قومه هى : « **اعبدوا الله ، مالكم من اله غيره** » .. ولم يكن ذلك بالأمر الذى تقتضى كتابا يجمع كلمات الله المنزلة على الرسول ، ويكون دستورا للناس .. لأن الرسالة كلها كلمة أو كلمات يغادى بها الرسول قومه ويراوحهم ، فان أخذوا بهذه الدعوة ، وآمنوا بالله ، كان لهم هذا الايمان زادا طيبا يعيشون به فى أمن وسلام ، فى هذه المرحلة من الحياة البشرية التى كانت حياة فطرية ، أو أقرب الى الفطرة ، لم تزدحم فيها مطالب الانسان ، ولم تتسع أمامه آفاق الحياة ، ولم تتح له تلك التجارب والمعارف التى مكنت — فيما بعد — من الدخول فى هذا الصراع الرهيب مع الوجود ، ومع كل موجود ، ثم مع الانسان والانسان .

فلما تقدمت الانسانية فى مجال الاحتكاك بالحياة وفى ميدان التنافس بين أفرادها وجماعاتها ، لم تعد الفطرة وحدها قادرة على أن تمسك بالناس على طريق الحق ، والعدل ، ولم تعد القوانين الوضعية التى اهتدى اليها الناس بالتجربة قادرة على تقيم فى الناس وازعا يزعهم عن الزيغ والانحراف ، عندئذ تدخلت السماء برسالاتها ، وبشرائعها ، لتقيم فيهم هذا الوازع الذى تعجز القوانين الوضعية عن اقامته .. فكثرت الوصايا ، والأحكام التى حملها رسل الله الى أقوامهم ، وكان لابد أن تكتب فى صحف وكتب ، حتى تكون مرجعا للناس يرجعون اليه .. وفى هذا يقول الله تعالى عن تلك الصحف الأولى : **« ان هذا لفى الصحف الأولى ، صحف ابراهيم وموسى .. »** .. وكان ابراهيم عليه السلام ، ومن بعده من رسل ، يتلقون من عند الله ما يتلقون من هذه الوصايا الى أن كانت شريعة موسى التى جمعت كثيرا من الوصايا التى سبقته ، مضافا اليها ما اقتضته الحياة التى أضاف اليهما الزمن كثيرا من المشكلات التى واجهت الانسان فى تلك الفترة .. وحين جاء عيسى عليه السلام ، كانت مهمته هو أن يقيم شريعة موسى فى نفوس بنى اسرائيل ، وقد عبثوا بهذه الشريعة ، ومكروا بها ، والقوا عليها ظلالا كثيفة من خبثهم وضلالهم .. فكانت رسالته فى القوم أن يذل كبرياءهم ، ويقتل داء الغرور فى نفوسهم ، وأنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن الله هو الههم من دون الناس جميعا .. ولهذا كان عنوان رسالته ، وملاك دعوته الى بنى اسرائيل هو : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، ومن نازعك قميصك فألق اليه رداءك ! » .. وذلك هو الدواء المر اللاذع المرارة ، للاستشفاء من هذا الداء الخبيث القاتل ، المتمكن من بنى اسرائيل .. داء الكبر والغرور والحسد للناس جميعا أن يصيبهم شيء من فضل الله .

وتجيء الرسالة الخاتمة ، رسالة الاسلام ، ويجيء رسولها خاتم المرسلين ، محمد عليه الصلاة والسلام ، فتقول فيها السماء آخر كلماتها الى الناس ، وتختتم آخر وصاياها لهم ، حيث ضمت تلك الكلمات وهذه الوصايا على كل القواعد ، والمبادىء التى يجد فيها الناس كلمة الفصل فيما يختلفون فيه ، وفيما يأخذون

أو يدعون مما تقضى به الحكمة ، ويمليه العدل ، والخير والاحسان .. فى يوم الناس ، وفى غدهم القريب والبعيد الممتد ، الى أن يخلى الناس مكانهم من هذا الكوكب الأرضى .

ومن هنا كان من شريعة الاسلام ، الايمان بكل ما سبقها من شرائع سماوية ، ايمانا قائما على أن ما شرع الله تعالى للامم السابقة هو من شريعة الاسلام ، وأن ما أرسل الله تعالى به رسله هو مما اجتمع فى رسالة محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا يعنى أن دين الله واحد ، وأن ما يحمل الرسل الى اقوامهم ، هو من هذا الدين ، دين الله ، الذى جاء على تمامه وكماله فى رسالة الاسلام : كما يقول الحق تبارك وتعالى : **« ان الدين عند الله الاسلام »** (١٩ : آل عمران) .

والقول بأن رسالة الاسلام ، هى الرسالة الخاتمة الجامعة ، وأن رسولها هو جامعة الرسل وخاتمهم — هذا القول يحتاج الى دليل عقلى ، ما دمنا قد جعلنا العقل هو الحكم فيما نعرض له من قضايا هذا البحث .

ونقول : ان هذا أمر لم نغفل عنه ، واننا اذ نقرر هذا فى تلك المرحلة من البحث ، فانما لانجعله حكما قاطعا . ندعو الى التسليم به ، وانما يرضينا ممن ينظر فى هذا البحث بعقله ، طالبا الحق راغبا فى التعرف عليه ناشدا الافاق التى يطلع منها — يرضينا منه أن يضع هذا القول موضع الفرض ، وأن يخطو بعد هذا الى حيث يجد من الأدلة والبراهين ما يكشف له عن يقين يطمئن اليه ، سواء أكان هذا اليقين ، ايجابا او نفيا ، قبولا أو رفضا .

واذا فلنفترض أن رسالة الاسلام هى الرسالة الخاتمة ، وان كتابها هو المصدق لما سبقه من الكتب السماوية والمهيمن عليها ، ثم ان لك أن تطالبنا بعد هذا بالدليل العقلى على صحة هذا الفرض .

ونقول أن بين أيدينا من الأدلة ما لا نحصيه عدا ، ومالا يتسع له هذا البحث الذى نريده موجزا من جهة ، كما نريده من جهة

أخرى .. مجرد دليل ، يفتح الطريق لطالب الحق ، وينصب له بعض المعالم عليه ، ثم يترك للعقل مجالا للنظر ، والبحث ، والاجتهاد ، وان كنا نود مخلصين ، لو أخلينا بين العقل وبين هذا الفرض ، يقلبه كيف يشاء ، ويقيمه على الوجه الذى يراه ، ولكنا نشفق على كثير من طلاب الحقيقة ، وخاصة الناشئين ، الذين يقفون على شاطئها ، وفى قلوبهم أشواق عارمة الى احتوائها ، وهم بعد لم يتعلموا السباحة ، ولم يحسنوا العوم ، الأمر الذى ان تركوا فيه وشأنهم كانوا بمضيعة لا قدرة لهم على دفعها .. فان تقدموا غرقوا ، وان وقفوا أمضهم الوقوف ، واستبدت بهم الحيرة ، وقتلهم اليأس ، وكانوا فريسة دانية من يد الشيطان ، وأشياع الشيطان ! ..

واذن فلنجمل القول فى عرض الأدلة العقلية على ما ندعى لكتاب الاسلام ، من هيمنة ، وصدق ، وعموم .. هيمنة على الكتب السماوية السابقة ، وصدق بأنه من عند الله ، وعموم بأنه للانسانية كلها منذ نزل من السماء على رسول الله ، الى يوم يقوم الناس لرب العالمين ..

فأولا : ما ثبت ثبوتا قاطعا شهدته الحياة ، وشهد به أعداء هذا الكتاب من اعجازه اعجازا مطلقا ، لأصحاب اللسان الذى نزل به القرآن .. وهم أرباب الفصاحة والبيان ، وأقدر الناس وأقواهم فى هذا الميدان ، ميدان التحدى ، فلم يجرؤ أحد منهم ، من شاعر أو خطيب أن يقوم لهذا التحدى ، وأن ينازع القرآن سلطانه القاهر ، الذى أذل كبرياءهم ، ومرغ أنوفهم فى الرغام ، وهم أصحاب الأنفة والحمية ، وأيثار الموت على اعطاء الدنية والفرار من المعركة مهما تكن قوة الخصم وكثرة رجاله ، وقوة سلاحه .

وليس هذا التحدى مجرد كلمة عارضة ، أو موقفا محدد الزمان والمكان ، والناس .. وانما هو دعوة مطلقة من كل قيد فى الزمان أو المكان أو الناس .. ولهذا كانت تلك الدعوة بعضا من القرآن الكريم ، لا يتم الا بها ، قائمة بقيامه ، خالدة بخلوده .. وذلك ليقوم منها داع يدعو كل من يتصل بهذا الكتاب أن يقف عند هذا

التحدى ، وأن يحاول بكل ما يستطيع أن يختبر نفسه ازاءه ، فان عجز ــ وهو لا محالة عاجز ــ فلا عليه من ذلك بأس ، فما هو الا انسان واحد ، يضاف الى أجيال الانسان كلها التى سبقته ، والتى ستجىء بعده ، فى عجزها ، واستخذائها أمام سلطان هذا الكتاب وسطوته .. ان ذلك حكم سماوى قاهر ، وقدر الهى غالب محيط بالناس جميعا ..

لقد كانت آيات التحدى تقرع أسماع العرب ، وهم يشغبون على القرآن ، ويتصدون لدعوته ، فيولون بين يديه مدبرين مذعورين ، يصيحون صيحات المجانين ، ويهذون هذيان المحمومين ..

فاذا جاءهم القرآن الكريم قائلا : **« وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين »** (٢٣ : البقرة) .. لم يكن لهم من عزاء ازاء خزيهم المفضوح الا ترداد مثل هذه المقولات التى أخذها القرآن من أفواههم : **« ان هذا الا سحر يؤثر »** (٢٤ : المدثر) .. **« لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الأولين »** (٣١ : الأنفال) **« انما يعلمه بشر »** (٣ : النحل) .. **« أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا »** (٥ : الفرقان) .

ولقد وقف الرسول الكريم أكثر من عشر سنين بمكة ينتظر من المشركين أن يقوم منهم مدع يدعى أنه أتى بالسورة التى يتحدى بها دعوى القرآن ، فلم يقم منهم أحد ، حتى ولو كان على سبيل المكابرة والمداراة لهذه الكبرياء الجريحة .. فلما أوشكت الدعوة أن تتحول برسولها من مكة الى المدينة ، نزل هذا الاعلان العام ، يحمل التحدى المطلق ، لا للناس وحدهم بل ولعالم الجن معهم ، فقال تعالى : **« قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »** (٨٨ الاسراء) .

وهنا يقوم مع اعجاز القرآن شاهد منه على صدقه ، وأنه من عند الله ، اذ ما زال هذا التحدى قائما على الناس جميعا ،

مع ما لبسوا فى الحياة من الوان العلوم والمعارف ، ومع ما حصلوا من علم ومعرفة ، ومع ما دخل على اللغة العربية من مختلف الثقافات ، وما أثمرت العقول العربية من ثمرات ، فى الأدب والفن والعلم ، والفلسفة ، وما أخرج العلماء من موسوعات الكتب فى مختلف العلوم والفنون .. فان كل هـذا الحصاد الذى تحويه المكتبة العربية ، قديما وحديثا ، مخطوطا ومطبوعا ، ليقف بين يدى القرآن الكريم ، موقف الحصا الملقى تحت سفح جبل شامخ يطاول السماء !

وثانيا : مع ايماننا بأن القرآن الكريم ، لم يكن كتابا علميا يحمل بين يديه مقررات فى قضايا العلم ، يكشف بها عن أسرار الطبيعة للناس ، ويضع بين أيديهم حلول كل مشكلة فى هذا الصراع القائم بينهم وبين ما خبأت الطبيعة فى صدرها من كنوز ، فذلك أمر لم يكن من تدبير هذا الدين ولا من شرعه الحكيم أن يفعله .. اذ أنه لو فعله لكان مما يترتب عليه ، أن تعطل وظيفة العقل ، وأن تقتل فيه نوازع حب الاستطلاع ، والكشف عن المجهول ، والبحث الدائب بمجهوده الذاتى وراء أسرار الطبيعة ، وقهرها ، والتسلط عليها ، ولفقد الانسان بهذا وجوده الكريم الذى استحق به أن يكون أهلا لخلافة الله على هذا الكوكب الأرضى ، ولأصبح شيئا من أشياء هذه الأرض ، الساكنة أو المتحركة فيها .. ثم من جهة أخرى يصبح هذا الكتاب مجمدا ، لا يستطيع التحرك وراء الحقائق العلمية التى ضم عليها ، شأنه فى هذا شأن كل كتاب علمى ، يمتص الناس الذين يستقبلونه لأول مرة كل عصارة فيه ، ثم يطرحونه وراءهم ، لا يكادون يلتفتون اليه ، ولا يكاد من بعدهم ينظر فيه ، وهو مشغول بالعلم الجديد الذى ولد بعد هذا العلم .. وليس هذا شأن كتاب أراده الله تعالى ليكون مبعث هدى ونور ، ومائدة غذاء دائم للعقول والقلوب ، على امتداد الحياة الانسانية .. ولهذا كانت آيات هذه الكتاب محملة بهذا الاشعاع الربانى الذى لا يخبو أبدا ، والذى كلما ورد عليه الانسان وجد خيرا جديدا ، وزادا عتيدا ، لمدركاته ، ومشاعره .

نقول مع ايماننا بأن القرآن الكريم لم يكن كتابا علميا ، فانه قد تحدث كثيرا عن الطبيعة ، ومظاهر الكون ، فى الأرض وفى

السماء لتوجيه الأنظار اليها ، ولفت العقول نحوها ، ليشهد الانسان فى هذا الوجود عظمة خالقه وقدرته ، وليرى فى عوالم الكون آيات من علم الله وقدرته ، وذلك لا يكون الا اذا وقف الانسان ازاء هذا الكون وقفة الباحث الدارس المتأمل ، حيث تؤدى به هذه الوقفة الى كشف أسرار تغريه بمتابعة السير فى هذا الطريق المليء بالعجائب والغرائب ، وفى هذا يقول الله تعالى : « **ان فى ذلك لآية للمتوسمين** » (٧٥ : فاطر) .. والقرآن الكريم اذ يلفت الأنظار الى بعض مظاهر الوجود معروضة فى هذا الاطار الفنى ، وفى ذلك الأسلوب الذى يهز المشاعر ، ويثير الوجدان ، البعيد عن التقرير والتلقين — فانه فى هذا العرض يمسك بالحقيقة من جوهر الشيء المعروض ومن صميمه ، بحيث اذا استطاع الانسان فى يوم ما أن يصل الى معرفة هذا الشيء والى الكشف عن المجهول منه ، وجد مصداق ذلك فيما جاء به القرآن الكريم فى عرضه له .. ولا نستكثر من ضرب الأمثال لهذا ، وحسبنا أن نشير الى قوله تعالى : « **يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل** » (٥ : الزمر) .. ففى هذا توجيه للنظر الى قدرة الله تعالى ، فى تناسخ الليل والنهار ، وفى اقتسامهما الزمن بينهما ، فلم يكن الزمن على هذه الأرض نهارا سرمدا ، أو ليلا أبدا .. **وذلك تقدير العزيز العليم** ، حتى تصلح حياتنا على هذه الأرض .. « **قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ، أفلا تبصرون .. ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** » (٧١ — ٧٣ : القصص) .

هذا ما يبدو فى ظاهر الآية الكريمة : « **يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل** » وهو المقصد الأول لمواقع العبرة والعظة منها .. ثم اذا كشف العلم — وذلك بعد نزول هذه الآية بعدة قرون — ان الأرض كروية الشكل ، وليست مسطحة كما كان ذلك واقعا فى مدارك الناس يومئذ ، ثم اذا أعيدت تلاوة الآية الكريمة ، مصاحبة لهذا العلم الجديد من كروية الأرض ، وجد أن اللفظ

القرآني : ((**يكور**)) معنى مقصودا يراد به أن الليل يأخذ شكل نصف الكرة حين يغطى النهار ، وأن النهار يأخذ شكل نصف الكرة أيضا حين ينسخ الليل .. وليس معنى هذا أن القرآن الكريم أراد أن يكشف للناس عن هذا العلم ، الذي ترك للناس أنفسهم أن يكشفوه ان استطاعوا ، ليكون ثمرة سعيهم وعملهم ، وانما الذى كان من القرآن هو أنه نطق بالحق ، وصور الواقع ، وجمع فيه بين الظاهر الجلى ، والباطن الخفى ، بحيث اذا انكشف هذا الباطن لم يقع بينه وبين الظاهر تناقض .. وهذا لا شك وجه مشرق من وجوه اعجاز القرآن الكريم .

وثالثا : هذا السلطان القائم بين يدى كل آية من آيات القرآن الكلم ، ومع كل كلمة من كلماته ، بحيث لا يستطيع أحد أن يبدل كلمة من كلماته ، أو يغير وجه آية من آياته .. لا لأنه حفظ فى الصدور ، أو كتب فى المصاحف ، فذلك مهما يبلغ من الحرص ، والحيطة ، لا يعطى أى كلام هذه الحصانة المطلقة ، ولا يدفع عنه مكابرة المكابرين ، وادعاء المدعين ، وخاصة فى مقام الخصومة واللجاج ، وفى طلب الغلب بكل سلاح من أسلحة الزور والبهتان .

ولقد اختلف المسلمون منذ اليوم الأول لوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولحاقه بالرفيق الأعلى ، ابتداء من ردة المرتدين ، وتنبؤ المتنبئين ، أول خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، الى مقتل عثمان ، الى حرب على كرم الله وجهه لأصحاب الجمل ، الى حربه معاوية ، والخوارج ، ثم الى فرق الخوارج ، والمعتزلة ، والشيعة .

وكل فرقة من هذه الفرق ، وكل جماعة من تلك الجماعات تدعى لها فى الاسلام دعوى ، وأنها هى المسلمة ، وما عداها خارج عن الاسلام ، وعلماؤها وخطباؤها يأتون على ذلك بالحجج والبراهين المؤيدة لدعواهم بالحق وبالباطل ، وكلهم يرجع الى كتاب الله ، ويستشهد بآياته ، ويتأولها تأويلا فاسدا أو صحيحا .. ومع هذا فما جرؤ أحد حتى من تلك الفرق المارقة ان يتلو آية على غير وجهها ، أو أن يبدل حرفا أو كلمة فيها ، حتى لكأن قوة قاهرة تأخذ عليه لسانه ان هو تحرك بكلمة مفتراة يدخلها

على كلام الله ، لينتقذ بها موقفا حرجا يقفه مع خصومه ، أو ليسند بها حجة واهية بين يديه .

ومع كثرة ما افترى المفترون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقولوا عليه مالم يقله لينصروا قضيتهم الخاسرة ، وليكسبوا دعواهم الباطلة — فان القرآن الكريم ظل بمنأى عن الافتراء ، والكذب ، وعن الكيد والدس .. وذلك لأن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم مهما علا وسما هو كلام بشر ، يمكن ان يدخل عليه من الكذب ، ما ينخدع به كثير من الناس الذين لا يميزون معادن الكلام ، ولا يفرقون بين الذهب ، وما موه بالذهب! .. أما القرآن الكريم ، فهو كلام الله ، الذى لا يمكن أن يطاوله كلام ، أو أن يدخل الى ساحته ما ليس منه ، اذ سرعان ما يفضح كما يفضح الحصا بين أكرم الجواهر .. ولهذا حذر النبى صلى الله عليه وسلم من الكذب عليه ، وتوعد الكاذبين عليه بالعذاب الأليم ، فقال صلى الله عليه وسم : « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .. على حين لم ينبه الرسول الكريم من الكذب على كتاب الله ، ولم يتوعد عليه ، لعلمه صلى الله عليه وسلم أن الكتاب الكريم فى حراسة ذاتية من ان يدخل عليه كذب ، أو يندس فيه افتراء .. وهذا ما يشير اليه قوله تعالى فى وصفه لكتابه الكريم : « **وانه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد** » (٤١ — ٤٢ فصلت) .. وقد صدق الله تعالى وعده ، وحفظ كتابه ، فلم يأته باطل فى زمن نزوله ، ولا فيما جاء بعد ذلك أو يجىء من أزمان ..

ذلكَ هو كتاب الله ، الذى بين أيدينا ، لم يتبدل منه حرفٌ ، ولم تتغير منه كلمة .. وذلك هو اليقين الذى يجده كل منصف طالب للحق .. فمن وقع فى نفسه شك — أى شك — من هذا — فدونه كتاب الله ، ينظر فيه آية آية ، وكلمة كلمة ، وحرفا حرفا ، فان عثر على ما يقيم هذا الشك فى نفسه ، فخير له أن يعتزل كتاب الله ، وأن يولى وجهه الى حيث يشاء .. « **ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور** » (٤٠ : النور) .

* * *

خامسًا: الإيمان باليوم الآخر وما يتصل به من بعث وحساب وجنة ونار

« ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون .. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون»

(٢ ــ ٥ : البقرة)

قليلٌ من الناس أولئك الذين يرحلون عن هذه الحياة الدنيا ، دون أن تنازعهم أنفسهم الى التعلق بها والحنين اليها ، مهما كان سوء حظهم فيها ، وشقاؤهم بها ..

الناس جميعهم ــ الا هذه القلة القليلة ــ يتعلقون بالحياة راغبون فى المزيد من البقاء فيها ، ولو أخذت منهم الأيام ، وألحت عليهم العلل ، وحطمتهم السنون ..

فحب البقاء طبيعة كل حى ، وهو فى الانسان طبيعة وارادة معا .. طبيعة تدفعه الى حفظ نفسه ، بالابقاء على ذاته أطول عمر ممكن ، وارادة تخلقت فى الانسان من اتصاله بالحياة ، واختلاطه بالاحياء ، وانفساح آماله بينهم ، وامتداد آثاره فيهم .

والموت هو الذى يقطع على الانسان حبل هذا الرجاء ، ويقتل فى نفسه كل دواعى هذا الأمل فى امتداد الحياة الى غاية لا نهاية لها .

ومع هذا ، فقد رفض العقل الانسانى منذ أول مرحلة من مراحل تفكيره أن يجعل الموت خاتمة نهائية لحياة الانسان .. وقد اتخذ لذلك عدة أساليب ، يخفف بها من سطوة العدم الذى يخيل اليه أنه سيحتويه بعد الموت .. فأقام المقابر لموتاه ، وسعى اليهم فى أوقات مختلفة ، يناجيهم ، ويبثهم ما بصدره من حنين وأشواق ، حتى لكأنهم فى سفر قد طال وهو ينتظر عودتهم ، ولقاءهم بعده ..ثم حول المقابر وعليها ، أقيمت التماثيل للموتى وتليت الأدعية ، وقدمت القرابين ، ليجد الميت فى ذلك ما يهنأ به ويستريح اليه .

وهكذا ، أقام العقل الانسانى حياة — على أية صورة — فى عالم الموتى .. ولم يؤمن العقل أبدا بأن وراء الموت هذا العالم الذى يلفه العدم المطلق ، كما يتوهمه الماديون الذين عرفهم الناس جيلا بعد جيل .

ولقد كان أهم ما ميز دين المصريين القدماء ، هو فكرة الخلود ، ووصل الانسان بعد الموت بحياة جديدة ، وتلك الفكرة هى جرثومة التفكير التى تخلقت منها الديانة الفرعونية ، والتى قامت فى ظلها حضارة الفراعنة .

وقد تنقلت هذه الفكرة فى الانسانية ، وصحبت أطوار طفولتها وصباها ، وشبابها ، وكهولتها ، وتخلق من كل أولئك صور وأشكال للخلود ، بعضها ساذج يثير الضحك المشوب بالعطف والألم معا ، على أولئك الذين قدموا أنفسهم قربانا وثمنا للخلود ،

وبعضها ذكى عبقرى يكشف عن عظمة الانسان ، واستئهاله للخلود .

ثم جاء دور الديانات السماوية ، فالتقت مع ذكاء الانسان وعبقريته ، وكشفت له عن حقيقة هذا الخلود الذى وقع فى تفكيره ، واستقر فى ضميره ، ولكنه لا يجد له الدليل الذى يقيمه مقام اليقين فى كيانه ، فجاءته كلمات السماء بالبيان المبين عن الحياة الآخرة ، وما فيها من حساب ، وثواب ، وعقاب ، وجنة ونار .

فالديانات السماوية كلها تحمل الى الناس عقيدة البعث والحساب والجزاء ، وتجعل الايمان بهذه العقيدة مقرونا بالايمان بالله ، ومكملا لهذا الايمان .

واتباع الديانات السماوية الثلاث اليوم ، الموسوية ، والعيسوية والاسلامية ، يؤمنون بالحياة الآخرة ، وبالحساب ، والجنة والنار ، ولكن مع اختلاف فى المفاهيم والتصورات .. كما سنرى بعد .

فى الديانة الموسوية :

يشك المؤرخ والعالم الموسوعى الكبير — ول ديورانت — فى صحة التوراة ، ويرى أن أهواء اليهود قد لعبت بها ، فجعلت من أسفارها سجلا للأحداث التى مرت بهم ، فكان كل سفر ، يحمل طابع العهد الذى دون فيه ، مصطبغا بما فى نفوس أبناء هذا العهد من بؤس ونعيم ، أو هزيمة وانتصار .

يقول « ول ديورانت » : وكان سبب كتابة التوراة ، أن الشعب شرع يرتد عن عبادة « يهوه » الى عبادة الالهة الأجنبية .. فأخذ الكهنة يتساءلون : ألم يأن لهم أن يقفوا وقفة قوية يمنعون بها تدهور العقيدة القديمة ؟

« ورأوا الأنبياء(١) يعزون الى «يهوه» ما يجيش فى صدورهم من عواطف يؤمنون بها ، ويعتقدونها .. فاعتزموا — أى الكهنة — أن يبلغوا الناس رسالة من الله نفسه ، فى صورة سنن الهيئة تبعث النشاط والقوة فى حياة الأمة الخلقية ، ويضمنون بها معاونة الأنبياء .. وسرعان ما ضموا الى جانبهم الملك « يوشيا » .

« فلما كانت السنة الثامنة من حكم يوشيا أبلغه الكاهن « حلقيا » أنه وجد فى سجلات الهيكل ملفا عجيبا قضى فيه موسى نفسه على جميع المشكلات التاريخية والخلقية التى كانت مثار جدل عنيف بين الكهنة والأنبياء ! ..

« وكان لهذا الكشف أثر عظيم فى نفوس القوم ، فدعا «يوشيا» كبارهم الى الهيكل ، وتلا عليهم سفر الشريعة فى حضرة آلاف من الشعب ، ثم أقسموا ليطيعن منذلك الوقت ما جاء فى هذا السفر ! » (٢) .

ثم يقول « ول ديورانت » :

« وكما ظهر حلقيا فى الحركة الأولى ، ظهر « عزرا » فى عام ٤٤٤ ق . م ، ودعا اليهود الى اجتماع عام وخطير ، وشرع يقرأ عليهم من مطلع النهار الى منتصفه « سفر شريعة موسى » وظل هو وزملاؤه سبعة أيام كاملة يقرءون ما تحتويه ملفات هذا السفر ، ولما فرغوا من قراءتها ، اقسم الكهنة والزعماء والشعب على أن يعظموا هذه الشرائع .

« وظلت تلك الشرائع من تلك الأيام النكدة الى يومنا هذا المحور الذى تدور عليه حياة اليهود ، ولا يزال تقيدهم بها طوال

---

(١) يجب الانفهم كلمة الانبياء هنا على المعنى الاصطلاحى لها ، فلقد كثر فى بنى اسرائيل ظهور المتنبئين ، من أصحاب الحماس الدينى الذين ذهب بهم هذا الحماس الى ادعاء النبوة ، ليكون لهم سلطان مؤثر فى الناس .

(٢) قصة الحضارة جزء / ٢ ص ٢٥٦ .

تجوالهم ومحنتهم ، من أهم الظواهر فى تاريخ العالم (قصة الحضارة : جزء ٢ ص ١٩٦) .

ثم يسأل ولى ديورانت :

« كيف كتبت هذه الأسفار ؟ ومتى كتبت ؟ وأين كتب ؟

ويجيب على هذا فيقول :

« وذلك سؤال برىء ، لا ضير منه ، ولكنه سؤال كتب فى الاجابة عليه خمسون ألف مجلد .. ويجب أن نفرغ منه فى فقرة واحدة ، نتركه بعدها من غير جواب » .

يشير بذلك الى أن هذه الخمسين الف مجلد لم تعط جوابا على هذا السؤال : كيف كتبت هذه الأسفار ؟ ومتى كتبت ؟ وأين كتبت ؟

وسؤالنا هو : ماذا فى هذه الشريعة التى بين يدى اليهود عن الحياة الآخرة ؟

ويجيب ول ديورانت على هذا السؤال بقوله :

« لم يكن فى هذا الدين — أى شريعة موسى — جحيم يخصص لعقاب المذنبين ، ولكن « شيول » أو أرض الظلام ، التى تحت أرض لم تقل هولا عن الجحيم ، وكان يلقى فيها الموتى جميعهم ، الطيب منهم والخبيث ..

ثم يقول « ول ديورانت »

« على أن اليهود قلما كانوا يشيرون الى حياة أخرى بعد الموت ، ولم يرد فى دينهم شىء عن الخلود ، وكان ثوابهم وعقابهم مقصورين على الحياة الدنيا .. ولم تدر فكرة البعث فى خلد اليهود الا بعد أن فقدوا الرجاء فى أن يكون لهم سلطان فى هذه الأرض » (قصة الحضارة : جزء ٢ ٢٤٥) .

وإذن فكل ما عند اليهود عن الحياة الأخرى لم يكن الا وليد يأسهم من مكان كريم فى هذه الدنيا .. ولو وجدوا هذا المكان لكان لهم فى الحياة الأخرى نظر آخر !! ..

فى المسيحية :

لم يواجه المسيح — عليه السلام — قضية البعث والحساب والجزاء مواجهة صريحة ، ولم يحاول أن يجعل منها مجالا للبحث والتقرير ، لأنه لم يكن من همه أن يقرر عقيدة أو يشرح شريعة..فالمسيح انما أرسل الى بنى اسرائيل أو خراف اسرائيل الضالة ، كما كان يقول ، وقد جاء الى بنى اسرائيل ، ليتمم الناموس ، أو الشريعة ، وليقيم القوم على الطريق المستقيم الذى تنكبوه ، ولينتزع تلك القسوة التى تمكنت من قلوبهم ، فاغتالت منها عواطف الرحمة والحب ، وملاتها ضغينة وحقدا ، وعداوة للانسانية كلها ..

كانت مهمة المسيح عليه السلام ، حيال هذا القطيع المعربد ، — كما كان يقول عنهم — أن يبعث الى هذه القلوب الصلدةالمتحجرة قطرات من عواطف الحب والرحمة والاخاء .. أما الاله فانهم يعرفونه ، ولكن لا يتعاملون معه ، وأما البعث والجزاء والجنة والنار ، فانهم على علم بها ، ولكن بلا عمل لها ولا احساس بها .. ومن أجل هذا كان مايذكره المسيح عن الله ، وعن البعث، وعن الحساب والجزاء ، تذكيرا ، وتخويفا من المصير البئيس للذين لا يوقرون الله ، ولا يعملون له حسابا ..

يقول السيد المسيح فى بعض عظاته : « لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ، ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوا ، بل خافوا بالحرى من الذى يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما فى جهنم » (انجيل متى : الاصحاح العاشر) .

ويقول : « يرسل ابن الانسان ملائكته فيجمعون فى ملكوته جميع المعاثر ، وفاعلى الاثم ، ويطرحونهم فى أتون النار ..

هناك يكون البكاء ، وصرير الأسنان .. حينئذ يضحى الأبرار كالشمس فى ملكوت أبيهم .. من كانت له أذنان للسمع فليسمع » (انجيل متى : الاصحاح الثالث عشر) .

البعث فى الاسلام :

أولى الاسلام قضية البعث اهتماما خاصا ، اذ كان البعث مضلة للكثير من الضالين ، لما وقع فى تصورهم من استحالة ان يعود الانسان الى الحياة مرة أخرى بعد أن تذهب معالمه فى الأرض ، ويصبح ترابا من ترابها .. بل ان كثيرا من المشركين كانوا على استعداد لأن يؤمنوا بالله وحده ، وأن يطرحوا هؤلاء الشركاء الذين اتخذوهم معبودين مع الله ، ليكونوا شفعاء لهم عنده ، على حين أنهم لم يكونوا مستعدين بحال الى الايمان بالبعث بعد الموت ، ومن ثم كان تكذيبهم للنبى اذ جمع فى دعوته اياهم الى الايمان ، بين الايمان بالله ، والايمان باليوم الآخر .

ولهذا ، لم يذكر القرآن الكريم عن المشركين ما كان من اعتراضهم على الايمان باله واحد ، ما ذكره عنهم فى كثير من المواضع من انكارهم للبعث .

فاذا ذكر القرآن عنهم فى انكارهم لوحدانية الله قولهم : ((**أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشئ عجاب**)) (٥ : ص) .

وقولهم : ((**واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن..قالوا وما الرحمن؟ انسجد لما تامرنا .. وزادهم نفورا**)) (٦٠ : الفرقان) .

ـ اذا ذكر القرآن عنهم وجها واحدا لاعتراضهم على وحدانية الله ، ذكر عنهم ألوانا من الجدل ، وصورا من الاحتجاج على استحالة البعث ، وذلك كما فى قوله تعالى على لسانهم : ((**وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد**)) (١٠ : السجدة) .

وقولهم : ((**أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون خلقا جديدا**)) (٤٩ : الاسراء) .. وقولهم : ((**هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد**)) (٧ : سبا) .. الى كثير من مئات الآيات، التى تعرض أقوال المشركين فى البعث ، وترد على هذه الأقوال ، وتنقضها ، وتسفه أحلام الذين يرددونها .

ولهذا لم يقبل الاسلام ايمان من لا يؤمن بالله ، ثم لا يؤمن باليوم الآخر ، ولا بلقاء الله ، ولا بالوقوف بين يديه ليحاسب عما عمل فى الدنيا ، وليلقى جزاء ما عمل من خير أو شر .

وليس البعث لمجرد البعث ، وانما هو للحساب والجزاء ، والجنة أو النار .

ما الحياة الدنيا فى شريعة الاسلام الا معبر الى الآخرة ، والا امتحان للانسان ، يكشف فيه عن جوهره ، ويخرج الثمر الطيب أو الخبيث منه .. وهذا الثمر هو زاده الى الحياة الآخرة ، فان تزود فى دنياه بالأعمال الطيبة الصالحة ، وجد فى الآخرة الحياة الطيبة الصالحة ، وان تزود بالخبيث الكريه ، وجد هناك الحياة الخبيثة الكريهة .

الجنة فى الاسلام :

وهذا أمر نحب أن نقف قليلا عنده ، وهو أن كثيرا من المضللين ، قد عابوا الجنة التى وعد الله المتقين من عباده على الوصف الذى وصفها القرآن الكريم به ، واتخذوا من هذا ذريعة للطعن فى القرآن ، وفى شريعة القرآن ، وأنه لو كان من عند الله ، لما جاء بالجنة على تلك الصورة ، التى تداعب خيال سكان البادية ، وتترضى نفوسهم المحرومة ، وبطونهم الجائعة ، بهذه الوعود ، أو بتلك الأحلام ، التى تمد لهم فيها موائد الطعام ، عليهامايشتهون من فاكهة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، ومن لحم طير ، وكئوس خمر، فاذا ما أكلوا هنيئا وشربوا مريئا ، أنتقلوا من هذا الى سرر

مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، : « يطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا »..ثم مالوا الى حور مقصورات فى الخيام ، متكئين على فرش بطائنها من استبرق .. اما لباسهم فمن سندس واستبرق ، وأما حليهم فأساور من ذهب ..

وفى تلك الجنة أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وانهار من خمر لذة للشاربين .. وفى الجنة جنات تجرى من تحتها الأنهار ، أكلها دائم وظلها ! ..

هذا ، وكثير غيره مما ذكر القرآن الكريم من نعيم أهل الجنة ، قد كان عند أهل الزيغ والضلال مادة استهزاء وسخرية « الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

فالشريعة الاسلامية عند هؤلاء الضالين المضلين ، شريعة ، تتملق الجانب « الحيوانى » فى الانسان ، وتقوده الى الاسلام من مقود شهوة الجسد ، وغريزة الحيوان ، وهى من أجل هذاأباحت تعدد الزوجات ، كما أباحت الطلاق .. ثم انها اذا لم يكن فى يدها ما تقدمه لأهلها فى هذا المكان الجديب من الأرض ، مما هم محرومون منه من طيب الطعام ، ولين الكساء ، وبارد الماء ، ووارف الظل — أحالتهم الى عالم آخر ، يجدون فيه كل مايشتهون، وفوق ما يشتهون .. والمحروم أشبه بالغريق ، يتعلق ولو بخيط العنكبوت !

ولا نتحدث هنا عن تعدد الزوجات ، وضوابطه وحكمة ، ولا نتحدث عن الطلاق ، ودواعيه وحدوده .. فذلك له موضعه من هذا البحث .

اما هذا النعيم المادى ، الذى يجده المؤمنون فى الجنة ، فانه ان لم يكن كل مطلوب الانسان ، أو ان لم يكن مطلوب كل الناس — فانه ليس كل ما فى الجنة ، بل ان هذا هو قليل قليل مما فيها ، مما كانت تطلبه بعض النفوس فى الدنيا ، ولا تجد

سبيلا اليه ، فماتت على هذا الحرمان منه ، فكان من تمام نعيمها أن تنال ما كانت تشتهيه ، وترغب فيه .. ثم ان لها بعد ذلك من ألوان النعيم « ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .. وهذه صورة نجدها فى ساكن الريف والقفار ، يسمع عن أطعمة ينال منها سكان المدن ، فاذا جاء الى المدينة كان أول ما يتمنى الحصول عليه أن يشبع من جوع ، وأن يرتوى من ظمأ ، فاذا شبع وروى تطلع الى قطعة لحم ، أو رغيف نظيف من بلـاب « القمح » .. ثم لا يزال يتنقل شيئا شيئا ، ويتبدل طعاما بطعام ، ولباسا بلباس ، ومنزلا بمنزل حتى يتمنى أن يكون من أصحاب القصور العامرة ، والمركبات الفاخرة ، والخدم من الجوارى والغلمان ..

ثم الى من نتحدث بهذا الحديث دفاعا عن جنة الاسلام ؟ االى الماديين ، وحياتهم كلها مشكلة من مادة غليظة ، دونها مادية الحيوان ، وحتى ليأكل أحدهم ما يشتهى ، ثم يقىء ما أكل ليأكل .. ثم يأكل ويقىء مرات ، وهو لا يريد أن يرفع رأسه عن الطعام والشراب ؟

ومن عجب أن يكون فى اتباع المسيح ـ عليه السلام ـ من يلقى على الاسلام هذا البهتان ، ويروج له ، ويتخذ منه مقولةباطلة على الاسلام بأنه دين مادى دنيوى ، ينقل أتباعه من الدنيا الى صورة أخرى منها ..

فالديانة المسيحية على الرغم من أنها تلبس لباس الروحية ، نجدها تعرض صورا حسية من نعيم الجنة مثل تلك الصور التى جاء بها القرآن ، سواء بسواء .

فلقد ذكر السيد المسيح ، لتلاميذه أنهم سيشربون معه من خمرة ابنة العنب فى ملكوت السموات ، فيقول لهم : « انى لست شاربا من ابنة هذه الكرمة ، حتى أشربها معكم تارة أخرى فى ملكوت السموات » (انجيل متى : الاصحاح : ٢١) .. فأخبر السيد المسيح أن فى الملكوت الأعلى شرابا وشاربين ، وحيث يكون شراب، يكون أكل ، وفى هذا يقول : « ستأكلون وتشربون على مائدة أبى »

(انجيل متى : ٢٢) وهناك الى جانب المأكل والمشرب غرفات لأهل الجنة على نحو ما ذكر القرآن .. يقول السيد المسيح : « ما أكثر الغرفات والمساكن عند أبى ! » (أنجيل متى ١٤٠) .

فالقرآن الكريم اذن لم يكن بدعا بين الكتب السماوية ، فيما جاء فيه من أوصاف وأصناف هذا النعيم لأهل الجنة !

فلم اذن تتهم الشريعة الاسلامية بأنها شريعة الجسد ؟ وبأنها الشريعة التى تغرى أتباعها بهذه الألوان من الطعام والشراب واللباس ، التى يسيل لعابهم لها ؟

انها تهمة ظالمة ، باطلة ..

ظالمة ، لأنها تتجه الى الاسلام وحده ، دون الشرائع والديانات التى تقول بما يقول به الاسلام من نعيم الجنة ..

وباطلة ، لأنها تقوم على فهم خاطىء للانسان ، وللوحدة الذاتية له ، التى ينبغى أن يحتفظ له بها فى الحياة الآخرة ، تلك الوحدة التى تجمع الروح والجسد معا ، فلا يكون الانسان انسانا الا بتلك الذات ، ولا يعرف الانسان النعيم والشقاء ، ولا يحس بأى منهما الا بذاته كاملة .. أما الصورة التى يكون عليها الانسان فى الآخرة ، وهل يكون جسده هذا من لحم ، ودم ، وعظم ، فذلك علمه عند الله .. ولكن الذى نستيقنه ونؤمن به هو أن الانسان لن ينسلخ من ذاتيته ، ولن يخرج عما يتلبس به من شعور بهذا الوجود الذاتى الذى له ، حيث أن الذى ينعم بنعيم الجنة هو انسان هذه الدنيا ، وأن الذى يعذب بعذاب جهنم هو انسان هذه الدنيا أيضا .. والا كان الجزاء — من النعيم أو العذاب — واقعا على غير أهله ، ممن أحسنوا أو أساءوا على السواء .. وهذا ما لم يقل به شرع ، وما لم يتصوره عقل .

هذه هى أصول العقيدة الاسلامية : الايمان بالله ايمانا يفرد الله تعالى بالوحدانية ، وينزهه عن الشريك ، والصاحبة والولد ، ويصفه بكل كمال مطلق .

والايمان بالملائكة ، وأنهم خلق من خلق الله ، وعباد من عباده المكرمين ، وقد اصطفى الله تعالى منهم من يكون حامل رسالاته الى رسله ، وهو جبريل عليه السلام .

والايمان بكتب الله ، المنزلة على جميع رسله ، ايمانا مجملا ، قد جاء القرآن الكريم بتفصيله وبيانه ..

والايمان برسل الله وأنبيائه وأنهم صفوة أقوامهم،قد اصطفاهم الله تعالى لتبليغ رسالاته الى الناس ، وأن محمدا هو خاتمهم ، فلا نبى بعده ، ولا كتاب بعد كتابه .

والايمان باليوم الآخر ، وبالحساب ، والجزاء ، والجنةللمؤمنين المتقين ، والنار للكافرين ، والضالين .

والديانات السماوية كلها تدعو الى الايمان بهــذه الأصــول الخمسة ، التى يلتقى عندها جميع المؤمنين ..

وكل دعوة سماوية انما ملاكها وصل الناس بخالقهم ، وتوجيه وجوههم وقلوبهم اليه ، واقامتهم على طريق الحق ، الذى تجتمع عليه قلوبهم ، وتتآخى به نفوسهم ، وتتوحد به مشاعرهم،اذ كانت وجهتهم جميعا الى آله واحد ، ومعبــود واحــد ، هو الله رب العالمين .. فتلك هى وصاة الله تعالى الى رسله ، وتلك هى دعوة رسل الله الى أقوامهم ، وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : **« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيــه »** (١٣ : الشــورى) .

ان أى تصور لحقيقة أية دعوة سماوية يقوم على غير هــذا المفهوم ، هو تصور خاطىء ، وانحراف مغرض مضلل ، يخــرج به صاحب الدين عن دينه ، ويعمى به السبل الى هذا الدين ، ويصد الناس عنه ، ويقطعهم عن النظر فيه ..

ومن هنا نستطيع أن نقرر بأن أكثر ما وقع بين أصحاب الديانات السماوية من شقاق ، وما قام بينهم من خلاف ، وما نشب من

قتال ، وما ذهب من نفوس وأريق من دماء — انما مرده فى الأغلب الأعم الى فساد فى الفهم السليم للدين ، والى خلط بين الحقائق الدينية والنوازع الذاتية ، والأهواء المريضة ، والعصبيات العمياء .

ونود هنا أيضا أن نذكر أنه اذا كانت العصور الوسطى قد سجلت كثيرا من المخازى الانسانية فى مختلف صور الحياة ، وفى جميع مستوياتها ، وأن الضلال والجهل قد أصابا — فيما أصابا — الفطرة ، فتحولت بالدين من دعوة الى المحبة والأخوة والرحمة ، الى عداوة ، وقطيعة ، وجفاء ، حتى لقد وقع بين الديانتين ، المسيحية والاسلام ما وقع من حروب صليبية ، دامت عدة قرون ، وتحولت بسببها كثير من المناطق المأنوسة بالناس ، والمعمورة بالخصب والخير ، الى خرائب موحشة ، وأطلال بالية — نقول اذا كانت القرون الوسطى قد شهدت هذا الضلال ، وسجلت على الانسانية هذه الصحف السود باسم الدين ، وتحت رايته ، فانه قد صار حقا لازما على هذا العصر — عصر العلم والحضارة والنضج العقلى — أن يمحو هذه الصفحات السوداء المخزية من تاريخ البشرية ، وأن يطمس عليها ، بما يسجل من صحف انسانية مشرقة ، تحدث عن الأخوة والحب والمودة التى تعمر قلوب الناس وتؤلف بينهم ، بما عمرها من ايمان بالله ، وبما أشرق فى قلوبها وعقولها من أضواء آياته وكلماته .. فذلك هو الذى يرد للانسانية اعتبارها ، ويغفر لها ما سلف من جهلها وضلالها .

هذا ، ويحمل الينا هذا العصر الذى نعيشه ، بوادر طيبة . تبشر بأن روح التعصب الأعمى للدين ، قد أخذت تجلو عن كثير من العقول ، وتزايل كثيرا من النفوس ، التى حررها العلم من الانقياد لغير العقل ، والاستجابة لغير ما يقضى به منطقه ، وبهذا خرج كثير من الناس عن سلطان المضللين والمخادعين ، الذين يسوقون الناس باسم الدين الى كل مجهل ومتاهة ، كما يساق القطيع بعصا الراعى الأحمق الجهول !

وفوق هذا ، فانه قد كان للعلم أثره فى تنقية الدين من كثير من الضلالات والأباطيل التى أضيفت اليه ، وتلبست به ، فحجبت

الناس عن مواقع الخير والهدى فيه ، وحرمتهم الانتفاع بما يحمل من معالم الحق والخير ، ومن هنا كان هذا الذى وقع بين الناس وبين معتقدهم الدينى من الجفـاء والنفرة ، حتى لقـد خيـل لكثير من الناس أن عصر العلم يجافى الدين ويعاديه ، وأنه كلما حصل الانسان علما ازداد تفلتا من الدين ، وتحللا منه ، ومجانبة له ، والا لمـا كان هـذا الالحـاد الذى غطى قارات بأسرها ، واستولى على عقول أمم تبلغ مئات الملايين عدا ، فى أوربا ، وأمريكا وآسـيا ..

والحق أن العقل والدين ، اذا سلم كل منهما من الآفات التى دخلت عليه ، وخلص من الشوائب التى علقت به ، فانهما يلتقيان على الاخاء ، والألفة ، ويكون من لقائهما خير لهما معا ، فيزداد العقـل هدى واستبصارا بالدين ، ويزداد الدين ألقا واشراقا بالعقـل ! .

أما اذا سلم العقل ، وانطمست معالم الدين ، أو سلم الدين ، وعمى العقل ، فان القطيعة بينهما أمر لا معدى عنه . اذا لا يجتمع الضدان ، ولا يتآخى المتناقضان .

وانه يوم ينفصل العقل عن الدين ، أو يبعد الدين عن العقـل ، فلينظر المرء : من أية جهة كان هذا ؟ ومن أى مدخل دخل عليه؟ثم ليقض بما شاء ، وليعلم قبل هذا أو بعده أن العقل السليم لا يصادم الدين ، وأن الدين الحق لا يجافى العقل ، ولا يأخذ طريقـا غـير طريقـه .

واذ كان الأمر كذلك . فانه مطلوب من كل ذى دين أن ينظـر فى دينه نظرا باحثا متفحصا ، وأن يرد موارده الصافية بعيـدا عما دخل عليه من غرائب المقولات ، وما تحمل من طلاسـم وملغزات ، ويومها يجد أصحاب الأديان السماوية أنهم على طريق واحد ، وعلى وجهة واحدة ، فلا تتشعب بهم السبل ، ولا تتفرق بهم المذاهب وان وقع بينهم ثم خلاف فهو فى الصور والأشكال ، لا فى المقاصد والغايات : « **ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم** وجه الله » (١١٥ : البقرة) .

ومن هذا الهدى السماوى الكريم الذى نزل به القرآن الكريم فى الدعوة والاخاء بين الناس ، وبهذا الأسلوب التربوى الحكيم ، يهتف القرآن بأهل الكتاب أن يلتقوا بالمسلمين فى رحاب الله ، وأن يسلموا جميعا وجوههم له : « **قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون** » (٦٤ : آل عمران) .

فأهل الكتاب جميعا — قبل غيرهم — مدعوون الى الايمان بالله ايمانا لا يخالطه شرك ، ايمانا باله كبير متعال ، ليس كمثله شيء، فى ذاته ، أو صفاته .. فاذا صح هذا الايمان ، واستقام مع هذا الوجه لم يكن ثمة ما يعزل المؤمنين بالله بعضهم عن بعض ، اذ كلهم عبيد الله ، ومؤمنون بالله .

واذا كان اليهود قد عزلوا أنفسهم عن المجتمع الانسانى منذ كان لهم وجود ، وكان لهم دين ، واذ زين لهم الشيطان أنهم أبناء الله ، وأنهم شعبه المختار ، وأن الناس ما عداهم همل لا ينظر الله تعالى اليهم ولا ينالهم برحمته التى اختص اليهود بها وحدهم ، حتى انهم ليأبون على الناس أن يدينوا بدينهم الذى لا يتسع لغيرهم — اذا كان هذا شأن اليهود من المجتمع الانسانى — فان الذى بين المسلمين والمسيحيين ليختلف عن هذا اختلافا بينا ، اذ ليس فى النصرانية ولا فى الاسلام تعصب للجنس،حيث كان اتباع الديانتين من كل جنس وقبيل . ولهذا لم تقم بين الاسلام والنصرانية تلك الحواجز الصفيقة التى تحول بين أى منهما وبين أن ينظر فى دين صاحبه ، ويتعرف عليه .

وقد تكشف هذا اللقاء المستمر بين المسيحية والاسلام عن وجوه كثيرة من الاتفاق ، وكان لذلك أثره فى أن تقوم بينهما روابط المودة والاخاء والتواصل ، على خلاف ما كان من اليهود من بغضة وعداوة للمسلمين والمسيحيين ، هى بعض بغضتهم وعداوتهم للانسانية كلها .. وفى هذا يقول القرآن الكريم : « **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ، والذين أشركوا ، ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا ، الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم**

قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون ، واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق،يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ، فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء المحسنين)) (٨٢ — ٨٥ : المائدة) .

والخلاف الوحيد الحاد بين الاسلام والمسيحية ، انما هـو فى تصور ذات الإله . فهم جميعا — المسلمين والمسيحيين — يؤمنون بأن لهذا الوجود الها عظيما قائما على تدبيره .. ولكن تصور هذا الاله فى ذاته وصفاته هو مركز الخلاف بينهم ..

وهذا الخلاف مع عظم شأنه ، وجلال خطره ، يمكن أن يلتقى فيه الفريقان على الحق ، اذا خلصت القلوب من دواعى الهوى ، وسلمت النفوس من دخائل السوء ، ونزعات التعصب ، وقصدت وجه الحق ، دون التفات الى شىء آخر سواه ..

والفرصة مواتية فى هذا الموقف بالذات للتعرف على الله ، والى تصوره على الوجه الذى يليق بكماله ، وعظمته وجلاله ، حيث كشف العلم عن كثير من الافاق التى يمكن أن ينظر منها العقل الى الله ، والى تصوره على الوجـه الذى ينبغى أن يكون له ، من عظمة وجـلال .

الباب الثانى

الشريعة

أولاً: العبـــادات

ويندرج تحت الشريعة ــ كما أشرنا من قبل ــ ثلاثة أصول عامة ، تنظم العلاقة بين الناس وخالقهم ، ثم بين الناس والناس. وهذه الأصول هى : العبادات ، والمعاملات ، والأخلاق .

ولا نريد هنا أن ندخل فى تفاصيل هذه الأصول ، وبيان أحكامها ، وأركانها ، وانما الذى يعنينا هنـــا هو بيان لأصولها العـــامة ، وما لهذه الأصول من أثر فى حياة الأفراد والجماعات ...

فالعبادات هى ماتعبد الله تعالى به عباده ، من صلاة ، وزكاة، وصيام ، وحج..هى جميعا مقدورة بطاقة الانسان ، وباحتماله ، فليس فيها شىء يشق على الانسان ، ويجاوز حدود قدرة أوساط النـــاس ..

والله سبحانه وتعالى يقول : **« لا يكلف الله نفسا الا وسعها »** (٢٨٦ : البقرة) ويقول تبارك اسمه : **« وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج »** (٧٨ : الحج) .

ثم ان هذه العبادات جميعها مشفوعة برخص ، تعفى الانســـان من أدائها ، اعفاء موقوتا ، أو دائمـــا ، اذا لم تتحقق الشروط الموجبـــة لهـــا .

ثم هى أيضا ليست أعمالا آلية ، تؤدى لمجرد القيام بهـــا فى أوقاتها على الصورة المرسومة لها ، وانما هى رياضة تربوية ، تطهر الانسان وتزكيه ، وتقيمه على الطريق المستقيم ، وذلك لا يكون الا اذا خالطت العبـــادة مشاعر المؤمن ، ومست شغاف قلبه ، وألبسته لباس الخشوع والاخباب بين يدى الله .. فان لم يكن منها هذا الثمر الطيب الذى يصبغ الانسان بمكارم الأخلاق ،

وحميد الصفات — كانت ردا على صاحبها ، غير واقعة بموقع القبول من الله تعالى .

وملاك الأمر فى هذه العبادات ، هو الاقبال عليها بعزم وثيق ، ونية خالصة ، ورغبة صادقة ، حيث تلقاها النفس حفيـــة بها ، مشوقة اليها .. وهذا ما يجعل للعبادات ثمرها الطيب ، وأثرها المحمـــود .

أما اذا خلت العبادة — أى عبادة ، بل أى عمل — من هـــذه المشاعر ، فانها لن تترك فى كيان الانسان شيئا ينتفع به ، حيث مرت به دون أن يلتفت اليها ، أو ينفعل بها .

فاذا بلغ الأمر الى أن تهمل هذه العبادات ، أو تؤدى فى تكره واستثقال ، فان ذلك هو الخسران المبـــين ، والضلال البعيـــد ، حيث يقوم منه شاهد على الجراة على الله تعالى ، واعلان المحادة له ، والتحدى لأوامره .. ولهذا توعد الله تعالى المستخفين بالعبادات وعدهم من الكافرين ، كما يقول سبحانه : **« وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم الا أنهم كفروا بالله وبرسوله ، ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ، ولا ينفقون الا وهم كارهون »** (٥٤ : التوبة) كما توعد سبحانه وتعالى بالويل ، أولئك الذين لا يشغلهم أمر الصلاة ، ولا يرصدون أنفسهم لأوقاتها ، فيغفلون عنهـــا ، ويؤدون منها ما يقع لهم ، يقول سبحانه : **« فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون »** .

* * *

ونود أن نقف وقفة قصيرة بين يدى كل عبادة من تلك العبادات ، التى جاءت بها شريعة الاسلام للمؤمنين بهذا الدين .

* * *

الصلاة : ومعناها فى اللغة الدعاء ، وهى فى لسان الشرع تلك الصلوات الخمس المفروضة على المؤمن فى اليوم والليلة .. ولكل صلاة وقتها ، وعدد ركعاتها ، كما هو معروف عند المسلمين جميعا .

وقبل أن يدخل المصلى فى الصلاة يجب أن يكون طاهر البـــدن والثوب ، وأن يكون على وضوء ، متحققا من طهارة المكان الذى يصلى فيه ، مستقبلا القبلة ، مستجمعا نفســـه ومشـــاعره ،

مستحضرا جلال الله ، وعظمته . فيختشع لهذا الجلال وتلك العظمة ، وبهذا يخرج من صلاته بزاد طيب يزداد به رصيده من الخير والاحسان .. وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : **« قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون »** (١ ـ : المؤمنون) .

فالصلاة ليست فى حركاتها وسكناتها ، وفى قيامها ، وركوعها ، وسجودها،وانما فى الآثار التى تتركها فى المصلى ، فتنهاه عن الفحشاء والمنكر ، كما يقول سبحانه : **« ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »** (٤٥ : العنكبوت) .. والصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، هى تلك الصلاة التى استوفت شروطها الحسية والمعنوية . ومن هنا كانت الصلاة عماد الدين ، فمن أقامها أقام دينه ، ومن هدمها هدم دينه .

الزكاة : والزكاة ، معناها النماء والزيادة ، ومعناها أيضا الطيب ، يقال رائحة زكية أى طيبة .. وهذه المعانى كلها فى الزكاة الشرعية ، وهى ما يخرجه المؤمن من ماله لينفقه فى الوجوه التى بينها اللهتعالى فىقوله : **«انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله والله عليم حكيم »** (٦٠ : التوبة)

وهى واجبة على من ملك نصابا معينا من المال ، وحال عليه الحول ، كما هى واجبة فى الزرع عند حصاده ، وفى الأنعام ، بشروط معروفة ، وحدود مبينة ..

والذى يعنينا من الزكاة هنا ، هو أنها دعوة الى التكافل بين المسلمين ، وبعث لمشاعر الأخوة بينهم ، واقامة المسلم على مراقبة دائمة لأحوال المجتمع الاسلامى الذى يعيش فيه ، وتفقد أحواله ، ومعالجة عوامل الضعف التى تنجم فيه ، وبهذا يسلم المجتمع من العوارض التى تتهدده بالهدم والانحلال ..

والزكاة ، معاملة بين الله ، والمزكى .. لأنها تتعلق بصلته بربه ، وبطاعته له ، فهى لهذا عبادة من العبادات ، لا يقبلها الله تعالى

من مؤديها الا اذا خلصت لها نيته ، ورضيت بها نفسه ، وابتغى بها وجه الله تعالى ، وأداها على وجهها كما يؤدى الصلاة والصيام .

ومن هنا كان أثرها الاجتماعى عظيما ، حيث يخرج المال من يد أصحابه فى غير تكره منهم ، وفى غير من أو أذى لمن يمدون اليهم أيديهم بهذا المال .. وذلك بما أقام الله تعالى من حراسة على هذه العبادة ، أن يطوف بها ما يفسدها على أصحابها ، وعلى من هم أهلها ، فيقول سبحانه : **« يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى »** (١٦٤ : البقرة) ، ويقول تبارك اسمه : **« قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم »** (٢٦٣ : البقرة)

لقد كانت الزكاة ذات شأن عظيم،فى الصدر الأول للاسلام،والأموال فى دنيا الناس أقل بكثير مما هى عليه اليوم ، وذوو الحاجة أكثر بكثير منهم اليوم — ومع هذا فقد كانت الحصيلة التى تجتمع منها فى بيت مال المسلمين تسد حاجة الفقراء والمساكين وغيرهما من أصحاب الفروض فيها ، حتى لقد تولى منها النبى صلوات الله وسلامه عليه ، قضاء دين من مات وليس له مال يدفع منه ما عليه لغرمائه .. فقد روى عن أبى هريرة أنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يؤتى بالميت عليه دين ، فيقول : هل ترك لدينه وفاء ؟ فان حدث أنه ترك لدينه وفاء ، صلى عليه ، والا قال : صلوا على صاحبكم .. قال أبو هريرة : فلما فتح الله عليه الفتوح قال صلوات الله وسلامه عليه : « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن توفى وعليه دين ، فعلى قضاؤه ، ومن ترك مالا فلورثته » .

ويذكر التاريخ أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لما حمل اليه أبو موسى الأشعرى أموال الخراج والصدقات وكانت ألف ألف ، فقال عمر له : بكم قدمت ؟ قال : بألف ألف ، فاستعظم عمر ذلك ، وقال : هل تدرى ما تقول ؟ قال : نعم .. قدمت بمائة ألف ومائة ألف ، حتى عد عشر مرات ، فقال عمر : ان كنت صادقا فليأتين الراعى نصيبه من هذا المال ، وهو باليمن ، ودمه فى وجهه ، (أى من غير أن يريق ماء وجهه بالسؤال ، ومد يده الى غيره) .

هكذا كان شأن الزكاة وأثرها فى المجتمع الاسلامى فى صدر الاسلام ، وقد أسقط أبو بكر رضى الله عنه حجة من امتنعوا عن الزكاة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاربهم محاربة المرتدين ، وعاملهم معاملة الكافرين المحاربين .. لأنها حق لله أولا ، وحق لعباد الله ثانيا .. يحاسب عليها من لم يؤدها حسابين ، حسابا من الله تعالى ، وحسابا من المجتمع الذى يعيش فيه ..

هذا ، وليست الزكاة بالأمر الشاق على النفس ، الجائر على المال .. انها جزء من أربعين جزءا من رأس المال الفائض عن الحاجة ، اذا حال عليه الحول ، وبلغ نحو اثنى عشر جنيها أو أكثر ، وهذا قدر قليل تقبله النفوس الطيبة عن رضى، وتسمح به فى سخاء ، اذا علم المسلم أن وراء هذا تزكية لنفسه ، وتطهيرا لها ، ونماء لماله وبركة عليه فيه ، وفى ولده من بعده .. يقول الرسول الكريم : « ما أحسن عبد الصدقة الا أحسن الله الخلافة على تركته » ويقول صلوات الله وسلامه عليه : « ان الصدقة لتمنع ميتة السوء .. وانها لتقع فى يد الله قبل أن تقع فى يد السائل » ..

واذا كانت الزكاة قد حددت بقدر معين من مال المزكى ، فان ذلك لا يكفى من يطلب المزيد من رحمة الله واحسانه أن يتجاوز هذا الحد ، الذى هو فرض ، الى ما وراءه من صدقات هى نوافل ، يقبل الله تعالى قليلها وكثيرها ، ويضاعف الجزاء على القليل والكثير منها يقول سبحانه : **« ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فان لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير »** (٢٦٥ : البقرة) .. ويقول جل شأنه : **« مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم »** (٢٦١ : البقرة)

هذه عبادة من عبادات الاسلام ، لو أحسن المسلمون أداءها لكانت بابا واسعا من أبواب الخير للمجتمع الاسلامى ، حيث تدعو الراغبين فى ثواب الله ورضوانه الى السعى الجاد ، والعمل المثمر ، حتى يجتمع فى أيديهم المال الذى يسد حاجتهم ، ويفضل منه ما يقدمونه زكاة وصدقة .. كما تحفز الزكاة القاعدين والمقصرين

الى أن يلحقوا بهؤلاء المتصدقين ، حتى يستغنوا عن الصدقات ، ويصبحوا من المتصدقين .. وهكذا تدور الزكاة دورتها فى المجتمع الاسلامى ، تأخذ بيد العاجزين ، والمستضعفين ، وتقيل عثرات العاثرين ، وتفك رقاب العانين والمدينين .. وبهذا تنطلق قوى المجتمع كلها للعمل والبناء ، فلا يكون فيه أحد كلا على أحد ، وبهذا أيضا تتحرر انسانية الانسان ، فلا يذل لغير الله ، ولا يحنى الرأس الا بين يدى الله ..

الصـــــوم :

والصوم عبادة تعبد الله بها الانسان ، فى صور متعددة ، تناسب زمان الانسان ومكانه ، وذلك بالحرمان من بعض مطالب الجسد ، وشهوات النفس ، كالصوم عن بعض الأطعمة دون بعض زمنـــا معينا ، أو الصوم عن الكلام وقتا محددا .. ففى هذا وذاك دربة ومران على كسر شـــهوات النفس ، التى أن تمكنت من الانسان ساقته سوقا عنيفا ، وقادته الى مواقع التهلكة ..

وفى الاسلام جاء الصوم محدد الزمان بشهر رمضان ، مبين الصفات ، بترك شهوات الجسد من الطعام والشراب والاتصال بين الزوجين ، من الفجر حتى غروب الشمس ..

هذه هى صورة الصوم فى الاسلام .. ولكن هذه الصورة ليست هى المقصودة من هذه الفريضة ، بل لا بد أن تدب فيها الحياة ، وتسرى فيها الروح ، حتى تؤثر فى الصائم ، كما يؤثر الكائن الحى فى الحياة ..

فليس الصـــوم مجرد جوع ، وعطش ، وحرمان ، وانما هو رياضة نفسية على قهر شهوات كثيرة متحكمة فى الانسان، وقتل آفات فتاكة متمشية فى كيانه .. وذلك عن طريق هذه التجربة العملية التى يقف فيها الانسان كل يوم ، يلح عليه الجوع أو العطش، وبين يديه الطعام أو المـــاء ، ثم هو مع هذا يعرض مختارا عن أن يذوق طعاما ، أو شرابا ، ولو فعل لمـــا كان لأحد عليه من سلطان ،

وانما السلطان القائم عليه فى تلك الحال ، هو سلطان ضميره ، ووازع دينه ، وشعوره بمراقبة الله تعالى له .

هذه التجربة اليومية التى يعيش فيها الصائم أيام صومه ، جدير بها أن تربى فيه مع الصبر ، الضمير الحى اليقظ ، الذى يحاسب صاحبه ، ويمسك به عند ما يدعوه داعى الهوى الى أمر منكر ، يتعدى به حدود الله ..

فمن صام ولم يجعل حساب الصوم عنده قائما على هذا الحساب الذى يمده بزاد عتيد من الصبر وقوة الاحتمال ، ويقيم فيه الضمير الحى اليقظ الذى يرد عنه عادية الأهواء والشهوات — من صام ولم يجعل حساب الصوم عنده هذا الحساب ، فقد بخس الصوم حقه ، وفوت على نفسه الخير الكثير المرتقب من ورائه .. يقول الرسول الكريم : « من لم يدع قول الزور ، والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه .. » ..

هــذه عبادة من عبادات الشريعة الاســلامية ، غايتها أن تمد الانسان بأسباب القوة والمنعة ، وان تقدره مع احتمال ما يلقاه من شدائد الحياة وتبعاتها .. انها تقضى على آفات الوهن والضعف الكامنة فى كيان الانسان ، تلك الآفات التى تصرف المصابين بهــا عن التصدى لعظائم الأمور ، والتمرس بجلائل الأعمال .. فاذا سلم المجتمع الاسلامى من تلك الآفات ، وذلك حين يؤدى فريضة الصوم على الوجه الذى رسمته الشريعة له ، كان مجتمعا جديرا بأن يقود ركب الحياة ، ويخوض غمارها ، فى قوة لا تضعف ، وبعزيمة لا تلين ، فيبلغ بذلك منازل العزة والكمال ..

الحج :

وهو الفريضة الرابعة من العبادات .. وقد جعله الله تعالى مرة فى العمر لمن استطاع اليه سبيلا ..

وفى الحج تشهد الحياة أكبر ظاهرة للمجتمع الاسلامى ، حيث يجتمع حجاج بيت الله من أقطار الأرض جميعها ، فى هذا المكان

المقدس ، مجردين من كل مظاهر الحياة ، التى تفرق سماتها بين الناس ، وتشير الى المكان الاجتماعى لكل منهم .. انهم هنا فى زى واحد ، هو زى الاحرام ، لا يعرف فيه ملك من سوقة ، أو عالم من جاهل ، أو غنى من فقير .. ومن هذه الصورة التى تمحى فيها شخصية المرء وذاتيته ، يغرب من كيان الانسان ، ويختفى من مشاعره كل ما كان يعيش فيه بين قومه وعشيرته ، من مظاهر الاكبار والاجلال التى وضعه ماله أو جاهه ، أو سلطانه فيها ..

هنا فى موقف الحج تزول الفوارق التى تفصل بين الطبقات ، وتفرق بين الأجناس والألوان .. واذا كان المسلمون أمة واحدة ، يحكمهم حكم الهى واحد،هو أنه لافضل لعربى على أعجمى،ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى ، واذا كان المسلمون يحققون هذا فى وقوفهم بين يدى الله فى الصلاة خمس مرات كل يوم ، حيث يقفون صفوفا على قدم المساواة بينهم ، لا يتقدم غنى لغناه ، ولا يتأخر فقير لفقره ، بل يأخذ كل مكانه حيث يكون من المسجد ، ومن صفوف المسلمين فيه — اذا كان ذلك هو شأن المسلمين أو ما ينبغى أن يكون شأنهم — فان الحياة كثيرا ما تغلب على هذا الشعور ، وتذهب بتلك الصورة التى جمعتهم فى الصلاة ، حين تتفرق بهم السبل ، ويأخذ كل مكانه فى مسيرة الحياة ..

وهنا يأتى دور الحج ليعيد صياغة وحدة الأمة صياغة تنصهر فيها المشاعر ، فاذا هى شعور واحد ، لأمة واحدة .. وهكذا يعيش الحجاج المثلون للأمة الاسلامية فى جميع آفاق الأرض — يعيشون فترة الحج وهم فى هذا القالب الذى توحدت فيه مشاعرهم ، والذى جعلهم أمة واحدة ، كالجسد الواحد ، ثم يعودون الى أوطانهم يحملون مشاعر هذه الوحدة ، ويعيشونها فى أقوامهم ، فاذا كان العام التالى جاء غيرهم ، فأدى هذا الدور الذى أدوه .. وهكذا سنة بعد سنة الى يوم الدين .. يتزود المؤمنون كل عام من فريضة الحج بهذا الزاد الذى يوحد جماعاتهم ، ويؤلف بين قلوبهم ، ويجمعهم جميعا على الأخوة المتوادة المتواصلة ، تواصل الأعضاء فى الجسد !

هذه هى العبادات فى الاسلام : الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج .. وكل منهــا دواء لأكثر من داء ، مما يعرض للناس فى

مسيرة الحياة ، وكل منها زاد طيب يتزود منه الناس لمسيرة الحياة ، فلا يصيبهم فيها ظمأ ولا نصب ، ولا يطلع عليهم منها ما يعوق مسيرتهم ، أو يعدل بها عن الطريق القاصد الى مواقع الخير والفلاح ..

ان كل ما تعبدنا الله تعالى به من عبادات ، لا بد أن تظهر آثاره فى حياتنا ، وأن نجنى من ثماره الطيبة فى يومنا وفى غدنا .. فان لم نجد ذلك ، كانت العبادة شيئا ثقيلا لا تخف النفس الى أدائه ، ولا تنشط الى الاستجابة له .. وهذا من شأنه أن يميت كل شعور متجه نحوها ، فتتحول الى أعمال لا ارادية ، لا يشعر بها صاحبها ، ولا يتأثر بها منه عقل أو قلب ..

فمن صلى ولم ينته عن الفحشاء والمنكر ، فليس مصليا ..

ومن زكى ، ولم يطب طعامه ، ولم يكن من الحلال كسبه .. فليس مزكيا ..

ومن صام ، ولم يدع قول الزور والعمل به ، فليس صائما ..

ومن حج ، ولم يخرج من ذاتية نفسه ، ولم يغتسل من آفات التمايز ، والتعالى ، والتفاخر ، التى ألقتها الحياة عليه — فليس حاجا ..

ويوم يؤدى المسلمون صلاتهم ، وزكاتهم ، وصومهم ، وحجهم على الوجه الذى أمر الله تعالى ، يومئذ تختفى من المجتمع الاسلامى تلك الآفات التى عوقت مسيرته فى الحياة ، وقعدت به عن أن يكون قائد تلك المسيرة ، ويومئذ يبلغ المسلمون بأخلاقهم المصبوغة بصبغة الاسلام ما وعدهم الله تعالى به من تمكين فى الأرض ، ومن حياة طيبة فى الدنيا ، والآخرة جميعا .



ثانيًا: المعـــاملات

المراد بالمعاملات هنا ، هو ما يقع بين الناس والناس من ضروب المعاملات المـالية لتبادل المنافع فى مجالات الحياة ، من أخذ ، وعطاء ، وبيع وشراء ، ورهن وقرض ، وتأجير ، واعارة ، وتوريث ، وغير ذلك مما تنتقل به الأشياء والمنافع من يد الى يد ..

والعمل هو المصدر الطبيعى لحصول الانسان على ما يصلح أن يكون شيئا يتعامل به ، ويجرى فى الحياة مجرى النفع والتبادل .. فمن لم يعمل لم يجد ما يسد به حاجته ، ومن ثم لم يجد ما يكون مادة تبادل لمنفعة بينه وبين غيره .. أما أن يعتمد الانسان على عمل غيره ، فى حين أنه قادر على العمل ، فذلك عدوان على هذا الغير ، وأكل لمـاله بغير حق ، سواء أكان هذا الأكل عن رضى من صاحب المال ، أو عن طريق السرقة منه ، أو الاحتيال عليه ، أو نحو هذا مما يعيش عليه بعض الأفراد فى المجتمعات ، فيكونون أشبه بالديدان المعوية التى تسكن أحشاء الانسان ، وتشاركه طعامه وشرابه ، وانه كلما كثرت أعداد هؤلاء الطفيليون فى المجتمع ضعفت قوته ، وذهبت ريحه ، ولبسه الفقر ، وركبتـه الذلة والمسكنة ..

ولهذا ، فان الاسلام قد رسم السياسة الحكيمة ، وأقام الحدود المحكمة لهذا المجال الحيوى الذى لا حياة للأحياء الا به ..

فأولا : لم يكتف الاسلام بالدوافع الطبيعية التى تدفع الانسان الى العمل ، حيث تستحثه غريزة الحياة وحب البقاء الى التماس ما يحفظ هذه الحياة ، ويمد لها فى أسباب البقاء ، بالتماس الكسب من وجوه الحياة ، وجلب ما يحتاج اليه الجسد من غذاء ، وكساء ، وسكن وغطاء .. لم يكتف الاسلام بهذه الدوافع الطبيعية ، بل عمل على ايقاظها ، وحمايتها من آفات التواكل التى تتسلط على بعض النفوس الضعيفة ، فتمسك بها عن السعى الجاد ، والعمل

الدائب ، لتقيمها فى ظل الدعة والسكون ، فدعا الاسلام الى العمل ، وأهاب بأتباعه أن يعملوا ، ثم لم يكتف بهذا ، بل رفع مكانة العمل والعاملين الى مقام العبادة والعابدين ، وبهذا لا يجد المسلم فرصة يتحلل فيها من هذا الأمر الملزم ، الذى ان لم يكن دعوة من دعوات الحياة ، فهو دعوة من دعوات الدين ..

فالصلاة وهى رأس العبادات ، والركن الثانى من أركان الاسلام ـ هذه الصلاة أظهر ما فيها العمل والحركة .. من وضوء تتكرر فيه عمليات الغسل للوجه واليدين والقدمين مرات كل يوم .. ومن قيام ، وركوع ، وسجود يتكرر عشرات المرات فى اليوم والليلة ..

ان هذه الحركات دلالة على ما ينبغى أن يأخذ به الانسان نفسه من الحركة والعمل حتى فى مقام العبادة .. ولهذا ربط الاسلام بين الصلاة وبين السعى والعمل ، فقال تعالى : « **فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** » (١٠ : الجمعة) .. ففى الصلاة عمل ، وفى العمل صلاة ، وعبادة وذكر لله ، وابتغاء من فضله !

وأكثر من هذا ، فان الاسلام جعل العمل ضربا من ضروب الجهاد فى سبيل الله ، بل وقدمه على الجهاد فى سبيل الله ، اذ لا جهاد الا من رجال أقوياء تمرسوا بالعمل ، وراضوا أعضاءهم عليه ، كما أنه لا جهاد بغير رصيد من المال ، والزاد ، والسلاح ، وذلك كله لا يحصل الا بالعمل .. واستمع الى قوله تعالى : « **فاقرءوا ما تيسر من القرآن ، علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون فى الأرض ، يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ، فاقرءوا ما تيسر منه ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله ، ان الله غفور رحيم** » (٢٠ : المزمل) .. فالضرب فى الأرض ، معناه السعى ، والسعى بقوة ، تزلزل الأرض ، وتوقظ نيامها ، وهذا السعى القوى هو الذى يتيح للانسان أن يقوم بالركن الثانى بعد الصلاة وهو الزكاة ،

وان يكون من المقرضين لله مما رزقهم الله .. ثم انظر كيف أقام الله تعالى الضرب فى الأرض بين مقامات تلاوة القرآن بدءا وختاما ، حتى يكون العمل قائما على هدى ونور من آيات الله وكلماته ، فلا يدخل عليـــه جور أو عدوان ، أو انحراف عن الحق والعدل والاحسان ..

عن رفاعة بن رافع ، رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، وقد سئل : أى الكسب أطيب ؟ فقال : « عمل الرجل بيده ، وكل بيع مبرور » ..

ثم لأن العمل فطرة مركوزة فى الانسان ، فان الاسلام لم يشأ ان يغير من هذه الفطرة ، أو يحجز عليها ، بل ترك أبواب العمل ومجالاته كلها مفتوحة للانسان ، يدخل اليها من كل باب ، ويسلك اليها كل مسلك ، حسب قدرته وحوله .. فكل عمل يبلغ بالانسان غاية ويحقق له نفعا من غير أن يؤذيه ، أو يجور على مرءوته وخلقه ، أو يعتـــدى على حقوق الناس ، هو عمل مبرور يزكيه الاسلام ، ويجزى عليه الجزاء الحسن ..

يقول ابن تيمية : « وأما العادات ، فهى مااعتاده الناس ، والأصل فيها عدم الحظر ... والأصل فيها العفو ، فلا يحظر منها الا ما حرمه الله ، والا دخلنا فى معنى قوله تعالى : **((قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق ، فجعلتم منه حراما وحلالا))** (٥٩ : يونس) ولهذا ذم الله المشركين الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به .. وفى صحيح مسلم ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ، قال الله تعالى ــ فى الحديث القدسى ــ : **((انى خلقت عبادى حنفاء ، فأجتالتهم الشياطين ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ...))**

« ومعنى هذا ، أن ما يجرى فى حياة الناس من قانون عاداتهم هو موضع احترام من الاسلام ، يقر الناس عليه ، ولا يحرم عليهم من هذا شيئا الا ما خفيت عليهم أضراره ، أو اشتبه عليهم أمره ، كالخمر ، والخنزير ، والربا ..

ثم يقول ابن تميمة :

« البيع ، والهبة ، والاجارة ، وغيرها ، من العادات التى يحتاج اليها الناس فى معاشهم ، كالأكل والشرب ، واللباس .. وان الشريعة قد جاءت فى هذه العادات ، بالآداب الحسنة ، فحرمت منها ما فيه ضرر ، واستحبت ما فيه مصلحة راجحة فى هذه العادات ومقاديرها وصفاتها »(١)

وثانيا ، من سياسة الاسلام الحكيمة ، وحدوده المحكمة التى أقامها على السعى ، والعمل هى حماية ثمرات هذا السعى والعمل ، من أن يقع ليد غير يد من سعى وعمل ، فحرم أكل أموال الناس بالباطل ، فقال تعالى : **« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم ، وأنتم تعلمون »** (١٨٨ : البقرة) وذلك بالرشا التى يقدمها بعض النـــاس لمن يفصلون فى الخصومات المـــالية بين الناس ، ليميلوا عن سبيل العدل فى الفصل ، ويعطوا من لا حق له .. وقال سبحانه : **« يايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله »** (٢٨٨ ــ ٢٨٩ : البقرة) فهذه حرب يعلنها الله ، ورسول الله ، والمؤمنون بالله وبرسوله ، على الربا ، وآكلى الربا .. لأنه أكل لأموال الناس بغير الحق ، واغتيال لثمرات العاملين بهذه المعاملة المدمرة ، التى تبدو فى صورة تبادل منفعة ، على حين تنطوى على سرقة خفية ، لا تظهر للمتعامل بالربا وهو واقع تحت قسوة الحاجة ، التى يغيب معها رشده ، ويذهب صوابه ..

ثم من جهة أخرى رصد الاسلام عقوبة رادعة ، لمن يعتدى على مال غيره بالسرقة ، فأوجب قطع هذه اليد الآثمة المعتدية ، متى ثبتت عليه تلك الجريمة ، واستوفت أركانها ..

---

(١) القواعد النورانية الفقهية ، لابن تيمية ، ص : ١١٢ ــ ١١٣ .

واكثر من هذا ، فان الاسلام نبه الى أمر ربما غفل عنه بعض اصحاب المـــال ، اذا كان عندهم من المـــال ما فيه سعة لقرض غيرهم قرضا حسنا .. وذلك بتوثيق هذا القرض ، وكتابته ، والاشهاد عليه ، حتى لا يضيع حق الدائن (المقرض) اذا تسلط الهوى على المدين (المقترض) ــ فانكر الدين ــ كله أو بعضه .. فقال تعالى : ((**يايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينهم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب ، وليملل الذى عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شــيئا ، فان كان الذى عليه الحق ســفيها أو ضــعيفا ، أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعــدل ، واستشهدوا شــهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، ان تضــل احداهما فتذكر احداهما الأخرى ، ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ، ولا تسأموا ان تكتبوه صــغيرا أو كبيرا الى أجله ، ذلكم أقسط عند الله ، واقوم للشهادة ، وأدنى الا ترتابوا**)) (٢٨٢ : البقرة)

ففى هذه الآية الكريمة وثيقة من أحكم ما عرفت الحياة من وثائق حفظ الحقوق ، قد جاء بها الاسلام فى وضـــوح كوضوح الشمس ، مفصلا كل خطوة من خطواتها ، سادا كل ثغرة يمكن ان ينفذ منها شىء من الخيانة والغدر .. وهذا كله انما هو دليل على ما للمال فى الاسلام من مكانة فى نظام الحياة ، وحفظ قوة المجتمع ، الأمر الذى اذا دخل عليه أى خلل أو فساد ، اختل نظام المجتمع ، وفسدت حياته ، وحسبنا ان نذكر فى هذا المقام ما يدخل على الدول القوية المتمكنة من الحياة حين يهتز نظامها الاقتصادى ، بسبب ما ، انه سرعان ما ينهار بناؤها الشامخ ، ويذهب سلطانها المتمكن .

ثالثاً : الأخــــلاق

تنظم الشرائع السماوية صورا متعددة من الأحكام ، والتعاليم ، هى فى جملتها منهج حكيم متكامل ، للتربية العقلية والخلقية ، وضعته يد الحكيم العليم فى احكام وتقدير ، بحيث يؤدى بالمستقيم عليه ، والعامل به ، والسائر على هداه ، الى غايات الخير ، والى حياة طيبة ، تتوازن فيها مطالب الانسان المــادية ، والمعنوية ، الجسدية والروحية جميعا .

واذا كانت تلك هى رسالة الرسالات السماوية فى الناس ، وغايتها التى تتغياها من وراء بعث الرسل بها ، ودعوة الناس اليها ، والى الأخذ بأحكامها وتعاليمها ، وآدابها ــ اذا كان كذلك ــ فان حساب الدين فى المتدينين لا يقف عند الصور والأشكال والرسوم التى يأخذها بعض المتدينين من الدين ، وانما حساب الدين ، هو فيما يترك فى أصحابه من آثار تتصل بمنــازع تفكيرهم ، واتجاهات سلوكهم فى الحياة ، مع أنفسهم ومع الناس ..

وقد أشار النبى الكريم اشارة بليغة جامعة لحقيقة الدين ، وما يراد بالتعاليم والأحــكام التى يحملها الى الناس ، فيقول ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ : « ان الله لا ينظر الى أجسامكم ، ولا الى صوركم ، ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم » .

والجانب الخلقى فى الشريعة الاسلامية ، هو الجانب الايجابى منها ، وهو غاية أحكامها ، ومرمى تعاليمها ، التى تدور حول تهذيب النفوس ، وتقويمها ، وتوجيه الناس بها الى مقاصد الخير ، ومسالك النفع .

بهــذا كانت دعوة الرســول الكريم ، وكانت أوامر الشريعة ونواهيهــا ، وهذا ما يتحقق به قوله تعالى فى نبيــه الكريم : **« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين »** .. فانه لا شك أن أهم مظاهر الرحمة الالهية ، وأبرز آثارها فى الانسان ، هو أن يحمد خلقه ، وتحسن سيرته ، ويستقيم مع الناس على طريق الحق والعدل

والاحســـان خطوه ، وهذا بعض ما يشـــير اليه قوله تعالى : « **ان رحمة الله قريب من المحسنين** » والمحسنون حقا هم الذين فتح الله قلوبهم للخير ، وسلك بهم مسالك الهدى ، فحسن قولهم ، وصلح عملهم ، وطاب فى الناس ذكرهم .

تلك هى غاية الرسالة الاسلامية ، خلق الانسان الصالح ، فى المجتمع الصالح ، ولن يكون الانسان صالحا الا اذا توازنت قواه المـــادية والمعنوية جميعا ، وتلاقى بعضها مع بعض على دواعى الخير ، وغايات الاحسان ، ولن يكون الانسان انسانا صالحا ، الا اذا كانت له شخصيته ومكنته وآثاره المحمودة فى المجتمع الذى يعيش فيه ، وذلك لا يتحقق الا بخلق كريم ، وسيرة محمودة ، وعمل نافع ، وآثار بارزة فى ماديات الحياة ومعنوياتها جميعا ..

والعادات ، والمعاملات ، والآداب والأخلاق ، التى رســـمتها الشريعة الاسلامية ، انما غايتها تخريج نماذج طيبة للانسانية ، فى صورة المسلم الذى تظهر عليه آثار الاسلام ، فتكسوه رواء يبهر العيون جمالا ، ويملأ القلوب جلالا ، ويثير عواطف الحب والاكبار التى يجدها الانسان فى نفسه حين يلتقى بمثل هذا النموذج الكريم من الناس .. وفى ذلك يقول الرسول الكريم : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ومن تمام مكارم الأخلاق فى الانسان أن يشف ويصفو ، وأن ترتفع انسانيته الى المدى الذى تنتهى اليه الانسانية فى أسمى مدارجها ، وفى أعلى مواطن كمالها .. هناك تجد ذلك الانسان الذى تهفو اليه مشاعر الانسانية ، وتتمثله فى الانسان الكامل ، الذى يطلق عليه عند الأوربيين لفظ « الجنتلمان » !

وليس « الجنتلمان » الا هذا الانسان الذكى القلب ، الوضىء النفس ، المتين الخلق ، النظيف فى هيئته ، المتجمل فى زيه ، الملحوظ بتقدير الناس واحترامهم أين يلتقون به .

والذى لا شك فيه أن هذه الصورة الانسانية قد امتلأ بها العصر الاسلامى الأول ، وعرف التاريخ فى ذلك العصر نماذج كثيرة منها ، لا فى « الجنتلمان » بل فى « السوبر مان » الذى هو حلم الفلاسفة

الذى ينتظرون ميلاده يوما ما ، حين تبلغ الانسانية رشدها ، وتعطى أطيب ثمرة فيها ..

بهذه التربية الحكيمة التى أخذ بها الاسلام المسلمين ، والتى استجابت لها منهم العقول والقلوب ، استطاع المسلمون أن يدخلوا الحياة من أوسع ، وأحكم ، وأكرم أبوابها ، وأن يقيموا دولة ملكت أطراف العالم ، وزخرت بألوان المجد والعظمة ، وأرست قواعدها على أكرم المبادىء ، وأسمى الفضائل .

نعم ، قام المسلمون الأولون على ركب الحيـــاة يوجهونها ، ويدفعون بهـــا الى الغايات النبيلة ، والمثل الفاضلة ، ويقيمون فى الناس موازين الحق والعدل ، بما ملأ به الاسلام قلوبهم من مشاعر الخير ، وعواطف المودة والاخاء ، وهذا شرح عملى ، وشهادة قائمة لقول الرسول الكريم : « ان المرء ليدرك بحسن خلقه ما لا يدركه الصائم القائم » .

وقد يدخل فى وهم واهم ، أن حسن الخلق يجىء بغير تربية وتوجيه .. وكلا ، فان الخلق الكريم نتاج رياضة نفسية ، وتربية روحية ، أساسها العبادات الخالصة لله ، والاتجاه بها الى الله تعالى اتجاها يفتح القلب ، ويجمع أشتات النفس ، ويصل الكيان الانسانى كله بالملأ الأعلى .. وتلك هى العبادة التى تقوم المعوج ، وتصلح الفاسد ، وتستأصل أدواء النفوس ، وتغسل أدران القلوب ، وتنقى الانسان من شوائب الضعف والصغار ، فلا يأتى الدنية ، ولا يشغل باللغو .. « **واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم .. ســـلام عليكم لا نبتغى الجاهلين** » (٥٥ : القصص) « **واذا مروا باللغو مروا كراما** » (٧٢ : الفرقان) .

فليست هذه العبادات التى تعبد الله تعالى بها المؤمنين ، الا

منهجا ربانيا للتربية الأخلاقية العالية التى من شأنها أن تخرج النماذج العالية ، والقمم الشامخة من الناس ، فان هى لم تثمر ثمرتها تلك فى تهذيب النفوس وتقويم الأخلاق وتعديل السلوك ، فهى جهد ضائع ، وعمل بلا ثمر ، وعناء بلا غاية ، وتعالت حكمة الله عن ذلك علوا كبيرا .

ونحن المسلمين قد أصبنا فى القرون الأخيرة بعلل وأوجاع أفسدت حياتنا ، وقلبت الصـــورة الـــكريمة التى كانت لنا ، فكان هـــذا الاستخفاف بنا ، والاتهام لديننا ..

ولسنا ننكر أن يرانا الناس على تلك الصورة الهزيلة ، وفينا من الأدواء مالا يبقى على شىء من انسانية الانسان وكرامته .. فالكذب فى القول ، والخلف فى الوعد ، والنقض للعهد ، والغش فى البيع ، والاستخفاف بالعمل ، والاسراف فى قتل الوقت .. كل هذا من بعض ما يعيش فينا ونعيش فيه من آفات ..

ولسنا أيضا ننكر على الناس أن ينظروا الى ديننا تلك النظرة المستخفة المتهمة ، لأنهم ينظرون اليه من خلالنا ، فلا يرون الا أشباحا شائهة ، وصورا مشوهة ، أشبه بمن ينظر الى الأشياء فى مرآة مهشمة ، أو مقعرة ، أو محدبة ، فلا عليه اذا هو وصف هذه الأشياء كما تقع عليها عينه فى تلك المرايا ..

وانه لن يصحح انسانيتنا ، ولن يسلم وجودنا من تلك الأدواء القاتلة ، الا اذا رجعنا الى ديننا فى هجرة جادة الى كتاب الله ، والى سنة رسول الله ، فنضيف قلوبنا وعقولنا ومشاعرنا اليهما ، ونجعل طعامنا المـــادى والمعنوى ممـــا نقطف من ثمارهما ، ونقبس من أنوارهما ، والا فانه خير لنا ، ولديننا ، أن نعزل أنفسنا عن هذا الدين ، والا نردد آدابه وأحكامه فى كلمات ميتة منافقة على أفواهنا ،

من غير أن تصدر عن وعى ، أو تنبع من قلب ، أو تتلبس بشعور .. أن الذى يمشى فى ضوء النهار مغمضا عينيه ، خير منه هذا الأعمى الذى يعرف انه اعمى ، وأنه لكى يستقيم خطوه على الطريق لابد ان يتحرك بحساب وبحذر ، مستعينا فى ذلك بوسائل أخرى غير عينيه اللذين صفى حسابه معهما ..

ومسيرة المرء فى الحياة بغير دين ، معتمدا على وجوده الذاتى ، مستخدما كل وسيلة متاحة له ، خير ممن يعيش بدين لا يلتفت اليه ، ولا يحفل به ، موهما نفسه انه فى هدى من هذا الدين الذى اطفأ مصابيحه ، وفى انس من مبادئه واحكامه ، التى أخمد أنفاسها وطمس معالمها .. ولله الأمر من قبل ومن بعد ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

الباب الثالث

مفاهيم خاطئة عن الإسلام

« يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون »

(٣٢ : التوبة)

نحاول فى هـذا المبحث من الـكتاب ان نعرض بعض القضايا الاسلامية التى كثر حولها لغط اللاغطين وهذر الهاذرين ، وكيد الكائدين ، فى مجال الاستخفاف بالاسـلام ، والتشويش عليه ، يريدون بهذا أن يضعوا على أعين الناس غشاوة يحجبونهم بها عن ضوء الشمس ، ليقودوهم الى كل مهلكة ، وليدمغوا بهم الى كل هاوية ، فكانوا بهذا أئمة ضلال ، يحملون أوزارهم كاملة ، وأوزار الذين يضلونهم : **« فويل الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون »** (٧٩ : البقرة) **« ليحلموا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون »** (٢٥ : النحل) .

ولأصحاب هذه النظرات الزائغة المنحرفة عن الاسلام ، مقولات كثيرة ، يبررون بها لأنفسهم أو لمن يدعوهم الى تصحيح معتقدهم على ضوء دين الله ، وذلك بالنظر السليم المجانب للهوى ، وبالنية الصادقة ، الطالبة للحق .

وتكاد هذه المقولات المنحرفة جميعها تنحصر فى دعوى واحدة ، وهى أن الاسلام ان يكن دينا ــ فهو دين نبت فى بيئة خاصة ، طابعها البداوة الجافية ، والجدب الممسك بكل شىء فيها .. وهذا يعنى ــ عند أصحاب هذه الدعوى ــ أن اية دعوة اصلاحية تظهر فى مثل هذه البيئة ، لا تجىء الا محسوبة بحساب مكانها وزمانها ، والا انقطع بينها وبين المدعوين اليها كل سبب من شأنه أن يصلهم بها ، أو يجمعهم عليها ..

وعلى هذا الفهم الخاطىء ، بنوا قولهم بأن النجاح الذى صادفته الدعوة الاسلامية فى أول أمرها انما كان لسبب ملاءمتها للحياة التى التقت بها فى الجزيزة العربية ، وتجاوبها معها ، ووقوفها عند حدودها ، ثم كان السيف بعد هذا على رقاب من لايدخلون فى هذا الدين .. هكذا ، وبكلمات محفوظة مرددة يقايس القوم بين تعليم الاســـلام وحيـــاة البادية فى جفافها ، وجفائها ، وجدبها ، وخشونتها . وجهلها ، وبدائيتها التى لاتبعد الانسانية فيها كثيرا عن عالم الحيوان الذى يعيش معها فى تلك البيئة ، حسب تصورهم هذا الفاسد الغبى .. !

فالقرآن ــ عندهم ــ فى أساليبه ، وأخيلته ، وأخباره ، وقصصه ــ هو صورة لحياة البادية ، وما يدور فى أخيلة القوم ، وما يجرى فى تفكيرهم ، وما يداعب أحلامهم ..

والتعاليم ، والأحكام ، والاداب والأخلاق ، التى حملها القرآن الى العرب ، هى مما دعت اليه ضرورات الحياة هناك ، واقتضته ظروفها .. هكذا يتخرص المتخرصون ، ويفترى المفترون !!

وقد كان للمشرقين دور كبير فى اذاعة هذه المقولات ، والترويج لها بين المسلمين وغير المسلمين ، والتسلط بها على عقول كثير من الشبان الذين تلقوا دراساتهم فى الجامعات الأوربية ، وكان هؤلاء المستشرقون يمثلون وجها بارزا من وجوه العلماء الذين اطمأن اليهم هؤلاء الشبان وفتنوا بما رأوا فيهم من رهبانية ظاهرة للعلم ، ومن دأب وجد فى البحث والدرس ، وبما شهدوا من آثار جدهم ودأبهم فى تحقيق المخطوطات العربية ، وفى اطلاعهم على ذخائر لم يطلع عليها المتخصصون فى الشريعة الاسلامية او فى اللغة العربية ــ كل هذا مما جعل الشبان العرب الذى درسوا فى جامعات الغرب ومعاهدها يعطون ولاءهم المطلق لهـــؤلاء المستشرقين ، خاصة وأن الكثير من هؤلاء الشبان لم يكن علىحظ يذكر من علوم الشريعة أو اللغة ..

واذا كنا نحمد لبعض المستشرقين ماقدموا للدراسات العربية من أياد كريمة ، وما بذلوا من جهود مخلصة ، فان بعضا منهم لم يخلص من الهوى ، ولم يستقم على طريق الحق ، فخلط حقا بباطل

واخلاصا بهوى ، فلبس ثوب الاستشراق ظاهرا ، وثوب التبشير باطنـــا ..

فاذا سمعنا كلمة الحق من مستشرق ، كالفيلسوف « جب » . اذ يتحدث عن الاسلام ، فيقول : « الحق أن الاسلام ليس مجــرد نظام من العقائد والعبادات ، انـــه أعظم من ذلك كثيرا .. هو مدينة كاملة ..

« ولو بحثنا عن لفظ مقابل له لقلنا : « العالم المسيحى » ، ولم نقل المسيحية.. ولقلنا «الصين» بدل أن نقول : «ديانة كنفوشيوس(١)» وهذا يعنى ــ كما يقول « جب » أن الاسلام نظام انسانى متكامل ، يجمع بين العقيدة والعمل ، والدين والدنيا .. فليس الاســلام ــ عقيدة وشريعة ــ مجرد كلمات سماوية مقدسة ، يتمثلها الانسان فى خاطره ، ويلم بها كما يلم الوثنى بقطع الأحجار التى يتخذ منها آلهة يعبدها ، ويرجو الخير منها ، وهو يراها رأى العين جاثمة ، تخفق فوقها الرياح ، ويسفى عليها التراب . وتبول عليها الكلاب ! انه يعدها ويزدريها فى وقت معا . الم يعبد الأعرابى الصنم ، وهو يرى ثعلبا يبول عليه .. ثم ينقلب من مجثمه عنـــده ، وقد غلبته حرفة الأدب ، فلم يقـــدر على امساك لســـانه عما جرى فى خاطره ، فيقول :

أرب يبـــــول الثعلبــــــان بوجهـــه
لقـــد ذل من بالت عليـــه الثعـــــالب

هكذا كل المعتقدات التى لا تتجاوب مع الحياة ولا تملك المقدرة على التحرك فيها ، ومعايشة الناس معايشة تفتح لهم مغالق الخير ، وتنيرلهم معالم الطريق اليه .. انها تظل فى واد ، والناس فى واد ، أشبه بمخلفات القرون الغابرة ، تحفظ فى المتاحف ، ولا يلتقى بها الناس الا فى صناديقها وتوابيتها ..

---

(١) وجهة الاسلام ، للفيلسوف « جب » ترجمة أبو ريدة .

وليس كذلك الاسلام .. انه حياة تملأ قلوب المسلمين وعقولهم ، وتقيم معالم وجودهم ، وتنسج خيوط دنياهم ، وتضبط خطوات مسيرتهم فى كل متجه يتجهون اليه .. فما بلغه المسلمون من مجد وعزة ، وما أقاموه من حضارة ومدنية ، هو مما أصابوه من آثار الاسلام فيهم ، وما أستطاعت هممهم أن تصل اليه من ثمراته ..

ـ تقول اذا كان فى المستشرقين من ينتصف للحق ، كالفيلسوف « جب » فان منهم من يتخفف كثيرا من الالتزام بما يفرضه الحق عليه ، ويخون أمانة العلم فى جرأة ، غير متحرج ولا متأثم .. فهذا المستشرق « جولد تسيهر » ، فى حديثه عن القرآن ، وفى معرض التعريض به ، كدستور كامل يحكم المجتمع الذى يدين به ـ يقول : « ومن الخطأ الخطير أن ينسب الى القرآن أكبر القيم فى بيان طابع الاسلام بوجه عام .. كما أننا من باب أولى لا نستطيع أن نؤسس حكمنا على الاسلام مستندين الى هذا الكتاب وحده ، لدى الأمة الاسلامية(١) » .

والذى يريد أن يقوله « جولد تسيهر » هنا ، هو أن القرآن ليس هو الذى حكم المسلمين ، وأقام دولة الاسلام ، وأنه لم يستطع بأحكامه وآدابه أن يواجه الحياة الاسلامية كلها ، وأن يسد الحاجات التى جدت فى المجتمع ، بعد أن خرج العرب من الصحراء ، وأن المسلمين قد اضطروا الى أن يخرجوا عن أحكام القرآن ، أو أن يخرجوا نصوصه على ما يتسع لحياتهم الجديدة .. وهذا ما يقوله « جولد تسيهر » صراحة تعقيبا على مقولته السابقة ، اذ يقول : « وهكذا يظهر غير صحيح ما يقال من أن الاسلام ، فى كل العلاقات جاء الى العالم طريقة كاملة ، بل مع العكس ، فان الاسلام والقرآن لم يتمما كل شىء ، وكان الاكمال نتيجة لعمل الأجيال اللاحقة ! » .

ويزيد هذا القول وضوحا فيقول :

---

(١) العقيدة والشريعة ، لجولدتسيهر ص ٤٤ .

« والقرآن نفسه لم يعط من الأحكام الا القليل ، ولا يمكن أن تكون أحكام شاملة لهذه العلاقات غير المنتظرة كلها ، مما جد بعد الفتوح .. فقد كان القرآن مقصورا على حالات العرب الساذجة ، ومعنيا بها !! بحيث لا يكفى لهذا الموضع الجديد !! » .

ونقول دحضا لهذا الافتراء : ان القرآن حين التقى بالعرب فقد التقى فيهم بالانسانية كلها ، الانسانية السليمة التى حفظت البداوة عليها أكثر ما فى الانسان من خير .. فاذا شرع لهم القرآن حكما ، فانما يشرع للانسانية فى كل عصورها ، وفى أحسن وأعدل أحوالها ..

وخلق واحد من أخلاق العرب فى جزيرتهم ، يمكن أن تعيش به الانسانية فى أرقى المجتمعات ، وتبلغ به كل ما تنشد فى الحياة من عزة وقوة ، ونعنى بهذا الخلق الحرية ، التى هى ملاك أمر العربى كله ، حيث يرى العربى الموت دون أن يقبل ضيما ، أو ينزل على حكم أحد .. واذا كان الاسلام قد خفف من غلواء هذه النزعة ، فانه أبقى على أصولها ، وجعل الناس جميعا على قدم المساواة فى الحقوق والواجبات ، يستوى فى هذا الحاكم والمحكوم ، كما جعل الناس جميعا على اختلاف الوانهم وأجناسهم امة واحدة ، تنسب الى أب واحد ، وأنه لا فضل لأحد على أحد بلون أو جنس ، أو مال ، أو جاه ، أو سلطان ، وانما الفضل بالتقوى والأعمال الصالحة ، التى تعود على الناس بالخير ، والنفع ..

والمجتمع الذى تحرر فيه ارادة الأفراد من كل قيد طبقى ، ومن أى تسلط من طبقة ، هو المجتمع الذى يبنى الأمجاد ، ويقيم أعلى صروح المدنية والحضارة على قواعد ثابتة من الحق والعـدل ، والاحسان ..

وندع هذا ، لنقف وقفه قصيرة مع أمور محددة ، يلهج بها كثيرا أولئك الذين يتربصون بالاسلام ، ويكيدون لأهله ، فيتخذون من هذه الأمور مادة للتغرير بالشبان ، والتشويش عليهم ، واستقبالهم بهذا الضلال ، وهم فى مرحلة لم يعرفوا فيها بعد حقائق دينهم ، ولم

يكن لهم من تجارب الحياة ما يفرقون به بين السليم والسقيم من الآراء ..

واهم ما يشنع به هؤلاء المضللون على الاسلام :

أولا : الحدود التى فرضها الاسلام عقوبة لبعض الجرائم .. كقتل القاتل ، وقطع يد السارق ، ورجم الزانى المحصن ، وجلد غير المحصن .

ثانيا : المراة وموقف الاسلام منها فيما يتعلق بتعدد الزوجـات والطـــلاق .

ونتكلم على هذه الحدود أولا ، ثم نعرض بعد ذلك للمراة وموقف الاسلام منها .

أولا : الحدود فى الاسلام

الاسلام نظام حيـــاة ، قبل أن يـــكون مجموعة من الأحكام ، والوصايا ، والأوامر ، والزواجر ..

فما غاية الاسلام من رسالته فى الناس الا ليقيمهم على طريق الحق والعدل ، والا ليجمعهم على الرحمة والمودة والاخاء ، وأن يصل بهم الى مواطن الأمن والسلامة .

وقد كان من تدبير الاسلام فى هذا أن بدأ بالانسانية فى أفرادها اذ كان الأفراد هم البناء لكل مجتمع ، فربى الفرد هذه التربية التى تجعل منه عضوا سليما صالحا ، فى نفسه ، قابلا للاجتماع مع غيره ، والاندماج بالجماعة ، دون أن يفقد شيئا من وجوده ، بل ان هذا الاجتماع يمنحه قوى تزيد من قوته ، وتضاعف من ثمرات جهده ، وتنتمى من مداركه ومعارفه .. « والضمير » هو الانسان مصغرا ، انه تلخيص أمين للانسان كله ، بخيره وشره ، فاذا صلح الضمير صلح الانسان ، واذا فسد لم يكن للانسان صلاح أبدا .

ولهذا عنى الاسلام العناية كلها بتربته هذا « الضمير » والتمكين له فى كيان الانسان ، واقامته على الصحة والسلامة ، حتى يكون فى يقظة دائمة ، وفى قدرة على حراسة الانسان من أهواء نفسه ، ووساوس شيطانه .

والضمير أشبه بحاسة من حواس الانسان ، كالسمع ، والبصر والذوق ، والشم ، والمس .. ووظيفته الاحساس بما يقع فى محيطه الانسان ، وتمييز الخير والشر منه ، ثم الاطمئنان الى الخير والرضا به ، والاتجاه اليه ، والتوجس من الشر ، والتأذى به ، والنفور منه ، والتجنب له .

ولقد كشف الرسول الكريم — صلوات الله وسلامة عليه — عن هذا الجهاز العجيب فى الانسان ، وعن قدرته على ضبط ميزان كل من الخير والشر ، وذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم : **« البر ما اطمأنت اليه النفس واطمأن اليـه القلب ، والاثم ما حاك فى الصدر وتردد فى النفس .. استفت قلبك ، وان افتاك النـاس وافتوك »** ..

وغاية الاسلام شريعة وعقيدة — هى أن يقوم هذا الضمير بمكانه الصحيح من الانسان وأن يظل على السلامة والقدرة على أداء وظيفته فى كيان الانسان ، والتنبه لكل شر يرد عليه ، والتصدى لاغارته قبل أن ينفذ الى صميم الانسان ويتمكن منه .. ولأن هذا الضمير لا يمكن أن يكون دائما على الصحة والسلامة فى كل الناس ، ولا فى جميع أحوال الانسان .. فكثير من الناس قد أصيبت ضمائرهم بآفة قاتلة ، فلم يعد له مكان فى كيانهم ، أو أثر فى حياتهم ، كما أنه مع وجود هذا الضمير ، ومع صحته وسلامته ، فان أحوالا كثيرة تلم بالانسان ، وتوسوس له بالسوء ، وتدعوه الى الاثم . ثم لا يقوى هذا الضمير على أن يحول بين الانسان وبين اقتراف الاثم ، والوقوع فى الشر ..

ومن هنا كان من تدبير الاسلام — مع تقديره للضمير ، وللسلطان الوازع الذى يقوم فيه على الانسان — أن أقام مع وازع الضمير ، وازعا آخر ، هو وازع السلطان الذى يساند وازع الضمير ، أو يقوم مقامه عند ضعفه ، أو فقدانه ..

فالناس هم الناس ، ان استقام بعضهم بوازع من ضميره . فان كثيرا منهم لا يستقيم به ، وان استقام الانسان فى حال ، فانه قد ينحرف فى حال ، أو فى كثير من الأحوال ..

ولهذا ، كان لابد من قيام وازع عام خارجى ، يمسك بتلابيب من يفلت من رقابة الضمير ، وأخذه بالعقاب المناسب الرادع ، وبهذا تكمل الرقابة على الانسان ، وتقفل الدائرة التى يمكن ان ينفذ منها الى البغى ، والعدوان ، ومقارفة الآثام .. لهذا يقول عثمان بن عفان رضى الله عنه : « ان الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن » ذلك أن سلطان السلطان قائم فى مواجهة الناس ، اذا أمسك بمن يخرج على سلطانه أوقع العقاب الرادع فى الحال .. أما سلطان الضمير ، فهو سلطان غيبى ، لا يراه الا الذين يؤمنون بالله ، وبالحساب والجزاء فى الآخرة ، وعقابه مؤجل لا يخشاه الا من كمل ايمانهم بالله ، وأيقنوا بالجزاء الأخروى حتى يكون غائبا حاضرا بين أيديهم ...

والوازع المادى ، بالحدود التى فرضها الاسلام ، وازع حكيم ، ورحيم معا يقوم سلطانه على هاتفين الدعامتين معا : الحكمة والرحمة .. فبالحكمة ضبط ميزان العقاب ، فجعل لكل جرم القدر الذى يناسبه من العقاب ، بلا مبالغة ، ولا تقصير ، وذلك ليكون للعقوبة أثرها فى ردع المذنب ، وزجر من تحدثه نفسه بالذنب، وفى ذلك حماية للمذنب نفسه من أن يعاود الذنب ، ويصبح داء متمكنا منه ، كما أنه حماية للمجتمع من اشاعة الجرائم وتكاثرها وتوالدها اذا لم تغلق أبوابها بهذا الزجر الرادع ..

وبالحكمة وبالرحمة درأ الاسلام الحدود بالشبهات ، فحيث لاحت لولى الأمر شبهة تدخل على أى ركن من أركان الجريمة ، دفع الحد عن المتهم بها ، وأخذه بالعفو أو التعزير ، حسب ما تدل عليه دلالته الحال من أمر هذا المتهم ..

والاسلام بهذا قد سبق أحدث قوانين العالم الوضعية التى تفسر الشك لصالح المتهم .. يقول النبى صلوات الله وسلامه عليه

« ادرءوا الحدود بالشبهات » .. ويعلق ابن تيمية على الحديث الشريف بقوله « أن اقامة الحدود من رحمة الله بعباده .. فيكون الوالى شديدا فى اقامة الحد ، لا تأخذه رحمة فى دين الله ، فيعطله. ويكون قصده رحمة الخلق ، بكف الناس عن المنكرات ، لاشفاء غيظه ، وارادة العلو على الخلق .. فهو بمنزلة الوالد اذا أدب ولده .. فانه ان كف عن تأديب ولده يفسد الولد ، وانما يؤدبه رحمة به واصلاحا لحاله(١) » .

ومما يجب أن يذكر هنا ، هو أن الاسلام انما نصب هذه الحدود التى نصبها رعاية للشعور العام ، وحفظا لناموس الجماعة من أن ينتك أو يمتهن بالخروج السافر عليه ، وبارتكاب الآثام جهرة فى تحد واستخفاف بشعور المجتمع !

ومن اجل هذا ، فقد جعل الاسلام ، لهذه المنكرات عقوبتين : عقوبة دنيوية ، هى حق الجماعة على من اعتدى عليها ، وهتك مسترها ، واستباح حياءها ، وخرق ناموسها .. وعقوبة دينية يتولاها الله سبحانه وتعالى ، فان شاء عاقب ، وان شاء عفا . يقول النبى صلوات الله وسلامه عليه « اجتنبوا هذه القاذورات التى نهى الله عنها ، فمن الم بها فليستتر بستر الله ، وليتب الى الله ، فان من يبن لنا صفحته ، نقم عليه كتاب الله » .

هذا ، وقداتهم المضللون ، أعداء الاسلام ، بأنه دين بداوة ووحشية ، لا يصلح أن يكون نظاما تعيش عليه الجماعات الانسانية المتحضرة ، ومن حججهم على هذا تلك الحدود التى فرضها الاسلام لجرائم القتل ، والسرقة ، والزنا ، وشرب الخمر ، وهم يشنعون على هذه العقوبات ، من حيث مقدارها ، ونوعها ، واسلوب تنفيذها ..

وها نحن أولاء نعرض ـــ فى ايجاز ـــ هذه الحدود ، واحدا ، واحدا .

---

(١) السياسة الشرعية ، لابن تيمية ص ٤٦ .

١ ــ القتل :

فقتل القاتل عمــدا ، هو عند أعداء الاسلام عمــل فيــه قسوة شنيعة على الانسان ، وانك لتراهم يحيلون الأمر هنا الى عملية حســابية ، فى مجال الانتــاج المادى ، وفى باب الربــح والخسارة ! لا يحوجهم هذا الى أكثر من النظر الى قطعــان الحيوان التى تعيش معهم .. فاذا نطح حيوان حيوانا فقتله ، لم يكن من الحكمة عندهم ، ولا من الخير لهم أن يضــاعفوا الخسارة بقتل الحيوان الذى قتل غيره ، وان أقسى ما يفرض عليه هو أن يعزل عن بقيــة الحيوانات حمــاية لها من بطشه وشراسته .. انهم يسوسون القطيع الحيوانى بهذه السياسة ، فلم لا يساس بها الانسان ؟ انه وما جدوى قتل انسان بانسان ، وقد مات الميت فليحى الحى !

ولكن حساب الاسلام غير هذا الحساب . انه حساب يقوم على الحكمة ، والحق ، والعدل ، والاحسان . وهذا ما يشــير اليه قوله تعالى : ((**ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعــلكم تتقــون**)) (١٧٩ : البقرة) فالقصاص فى الاسلام ، وقتل القاتل حياة للانسانية وابقاء عليها ، وحراسة قائمة على رءوس البغاة والمعتدين ، ومن تحدثهم أنفسهم بالبغى والعدوان !

ان سلطان القانون ، لو تمكن بسلطانه أن يترصد كل قاتل ، وأن يمسك به ، دون أن يدخل عليه شعور بأنه قد يفلت ، وأن ينجو بفعلته فلا يراه أحد ، أو انه اذا أخذ لم ينج من القتــل ــ انه لو أمكن ذلك لمــا أقدم قاتل على القتل ، ولعمل ألف حســاب وحساب قبل أن يفعل فعلته ، ولكن القانون الوضعى مهما يكن من الاحكام والضبط لا يمكن أن يقضى على جريمة القتل ، حيث تنزع بعض النفوس الى البغى والعدوان ، وحيث يوسوس لها الهــوى الغالب أنها تستطيع أن تفلت من رقابة هذا القانون ، وأن تخلص من يده اذا هى أمسكت بصاحبها ، بسبب أو بآخر .

فماذا ينكر المنكرون من أمر هذا الحكم الاسلامى فى قتــل القاتل ؟ أن كثيرا من دول الغرب التى كانت قد حرمت الاعدام ، وقتل القاتل قد عادت اليوم لتأخذ به ، بعد أن تفشت فيها جرائم

القتل ، وأصبح ازهاق الأرواح عملية يمارسها الناس باستخفاف ، ولأوهى الأسباب ! والله سبحانه وتعالى يقول : **« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين »** (٢٥١ : البقرة) .

٢ — السرقة :

وفى السرقة يرى أعداء الاسلام أن قطع يد السارق عقوبة بربرية ، وحشية ، تصم الاسلام ، وتدينه ، وتضعه فى قفص الاتهام أمام محكمة المدنية والحضارة !!

وقدر هؤلاء فيما قدروا أن الحياة ستشهد المجتمع الذى تمضى فيه هذه العقوبة ، وقد تحولت فيه الانسانية الى مخلوقات شائهة، بهذه الأيدى المقطعة ، التى زايلت أماكنها من الناس . كما وقع فى حسابهم أنه لو قطع من تضمهم السجون من السارقين لكانوا أعدادا كثيرة من المشوهين الذين تتأذى بهم العيون ، وتألم لهم الضمائر ، وتقل بهم الأيدى العاملة فى المجتمع !!

ولا شك أن هذا حساب خاطىء ، قائم على نظرة غافلة أو جاهلة ، أو مغرضة .. فلو أنه أقيم حد السرقة على الوجه الذى شرعه الاسلام ، لما كان فى الناس هذا العدد الذى يحترف السرقة ، مستخفا بعقوبة السجن اذا هو ضبط متلبسا بما سرق ، وما أكثر الذين سرقوا وحبسوا ، ثم سرقوا وحبسوا مرات كثيرة ، دون أن يكون فى السجن مزدجر لهم !

ولا نذهب بعيدا ، فنروى عن التاريخ ، وننقل ما سجلت صحف الاسلام الأولى عن أثر هذه العقوبة التى فرضها الاسلام على السارق ، وحسبنا أن نشير الى الجزيرة العربية الآن ، وهى تقيم حد الشريعة عى السارق وتقطع يده ، وكيف قضت هذه العقوبة على جرائم السرقة قضاء تاما ، وأقامت أعراب البادية — وهم أجرأ من العقبان ، وأشرس من النسور — أقامتهم على سواء السبيل ، فلا تمتد يد أحدهم الى ما ليس له ، ولو مات جوعا ، ولو كان ما بين يديه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ملقاة فى العراء ، لا حارس لها ، ولا رقيب عليها !

هذا ، وليس ذلك التغليظ فى عقوبة السرقة قسوة من الاسلام ، ولا استخفافا بالانسان ، أو استرخاصا لوجوده ، بل هو فى حقيقته تكريم للانسان ، للسارق والمسروق معا .. ففى هذه العقوبة الراصدة ، دعوة لمن تحدثه نفسه بالسرقة أن يصرف نفسه عن هذا المورد الذى لا يليق بكرامة الانسان ، ولا ترضاه مروءة الحر الأبى . وأن عليه أن يلتمس أسباب الرزق بالعمل ، وأن يأكل من سعيه وعمل يده ، وأن يكون أسدا يقتنص فريسته ، وألا يكون كلبا ، أو ذبابا يسقط على فضلات الطعام ، ويقع على الجيف ! كما أن فى هذه العقوبة تكريما للعامل ، وحماية لثمرة عمله من أن تكون لقمة سائغة لأيدى الذين لا يعملون ، من ساقطى الهمم ، وخائرى العزائم .. فالسرقة اعتداء خفى على حرمة الانسان ، واستباحة لماله الذى هو بمنزلة النفس عند صاحبه .. وانه اذا كانت المدنية الغربية قد استخفت بهذه الجريمة حتى مارست سرقة الأمم والشعوب — فان الاسلام الذى يحترم الانسان من حيث هو انسان ، ويرعى حرماته فى دمه ، وماله ، وعرضه ، كما يقول بنى الاسلام : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » — فان الاسلام لا يستخف بهذه الجريمة ، بل يضعها بموضعها بين الجرائم الغليظة ، ولا تأخذه رحمة فيمن لا يرحم أخاه الانسان ، فيأخذ ثمرة عمله ويحرمه نتاج كده وجهده .

ثم ان السرقة لا تعتبر فى الاسلام سرقة توجب اقامة الحد وقطع اليد ، الا اذا كان المسروق شيئا ذا قيمة معتبرة فى حياة الناس ، وذا أثر فى موقع النفع عندهم .. وقد كان يقدر ذلك فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بربع دينار ..

وهذا النصاب يقدر فى كل عصر بحسب قوته الشرائية . فربع دينار فى عهد النبوة قد يعدل دينارا ، أو اكثر ، أو أقل فى عصر آخر .. كذلك لا تعتبر السرقة سرقة موجبة للقطع الا اذا كان المسروق مالا محروزا ، كأن يكون فى جيب صاحبه ، أو فى مكان غير مطروق للناس فى بيته ، أو فى محل تجارته أو صناعته . فالثمر الذى يكون فى الشجر ، وفى العراء بلا حائط ، والماشية التى لا راعى لها ، والمال الذى يضعه صاحبه على الطريق من غير حارس يحرسه ، كل هذا ونحوه لا يقام على سارقه حد ، ولكن يعزر ، ويضاعف عليه الغرم .

كذلك ما أخذ بالفم من ثمر على شجر ، وأكل ولم يحمل منه شيء ، فانه لا قطع فيه ولا تعزير ، ومثله السرقة فى أوقات المجاعات ، ليس فيها قطع ، وانما فيها التعزير .

فهل بعد هذا ، يسمح عاقل لعقله أن يهذى ويهتر ، ويلقى التهم على الاسلام جزافا فيما فرض من عقوبة على السرقة ، بعد أن أقامها على هذا الميزان الحكيم ، الذى لا تأتى الأيام أبدا بما هو أعدل منه وأحكم ؟ .

٣ ـ الزنا :

وهذه الجريمة ينكرها الناس جميعا ، وتنكرها كذلك المدنية الغربية جهرا ، وترضى عنها سرا !!

وقد أنكرها الاسلام سرا وجهرا : وجعل سرها عنده كالجهر بها ، فى اعتبارها عدوانا على حدود الله ، واستباحة لحرماته.. ولكنه جعل الحد الذى أوجب اقامته على الزناة عقوبة دنيوية ، وذلك للتشنيع على هذه الفاحشة،ونكالا بالذين يخرجون على المجتمع هذا الخروج السافر بلا حياء،واستحياء حيائه .. أما العقاب لمن يأتى هذه الجريمة سرا ، فهو الى الله تعالى يوم القيامة .. ان شاء عفا رحمة وفضلا ، وان شاء عاقب حقا وعدلا .. ومن جهة أخرى فان اباحة الزنا فى مجتمع أو تفشيه بين أفراده ، دون أن ينكره ضمير المجتمع أو يتأذى به شعوره ـ كان معنى ذلك ضياع الانساب ، وانقطاع صلة الأبناء بآبائهم ، وحل روابط الأسرة التى يقوم بناؤها علىصلة الدم بين أفرادها.وكان من نتائجذلك تصدع المجتمع ، وانهيار بنيانه ، حيث تموت فيه دواعى العمل للحاضر والمستقبل من خلال تلك العاطفة الأبوية ، التى تلح على الكائن الحى أن يعمل من أجل صغاره ، الذين يرى فيهم وجوده .. فكيف بالانسان وما خلق الله تعالى فيه من عقل وارادة ؟

من أجل هذا كان ذلك التشريع الاسلامى ، الذى يحمى به مجتمع المسلمين من الانهيار،والانحدار الى عالم دون عالمالحيوان

حيث أن كثيرا من الحيوانات يقوم اتصال الذكر فيها بالأنثى على حماية أنثاه من أن يتصل بها غيره من جنسه !

وقد فرق الاسلام فى حد الزنا بين المحصن ، وغير المحصن..

فالمحصن ــ اى المتزوج من الرجال والنساء ــ حده الرجم .

أما غير المحصن ، ذكرا كان أو أنثى ، فحده الجلد مائة جلدة.

فاذا توافرت أركان الجريمة ، وثبتت ثبوتا قاطعا بشهادة أربعة شهود على أنهم رأوا من الزانيين ما يكون من الاتصال بين الزوج وزوجه ، أو كان ذلك باقرار الزانى على نفسه ، طائعا مختارا ، يريد أن يطهر بالرجم ، أو الجلد من هذا الاثم ، على أن يراجع فى هذا الاقرار حتى يتكرر منه الاقرار أربع مرات ــ اذا توافرت أركان الجريمة ، وثبتت هذا الثبوت البين القاطع دون شبهة وجب اقامة الحد ، رجما أو جلدا ، كما أنه لا يقام الحد على المقر اذا هو عدل عن اقراره ..

فاذا أقيم الحد رجما أو جلدا ــ وجب أن يكون علنا ، وأن يشهده طائفة من المؤمنين ، حتى تقع العبرة والعظة ، بما تحدث هذه العقوبة ، وهذا الفضح العلنى على رءوس الأشهاد ، من آثار نفسية زاجرة من تحدثه نفسه أن يقارف هذا المنكر ، وأن يعرض نفسه لمثل هذا الموقف ! وفى هذا يقول الله تعالى : « **الزانية والزانى ، فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين** » (٢ : النور) .

وهذه الآية خاصة بغير المحصنين ، أما المحصنون فقد جاء الحكم برجمهم بقول الرسول الكريم ، وبعمله .. اذ أن غير المحصن أكثر تعرضا للوقوع فى هذه الفاحشة ، وأكثر جرأة عليها ، واتيانها على هذا الأسلوب العلنى الذى يراه الناس فيه رأى العين !!.

أما المحصن ، وهو المتزوج ، فانه لا تتحكم فيه الشهوة تحكمها فى غير المحصن، كما أنه يجد من الحياء ما يرده عن المعالنة بهذا المنكر على رءوس الاشهاد ..

وقد اتخذ المفترون على الاسلام ما قررته شريعته من الجلد ، والرجم ، مع الفضح والتشهير ، لمرتكبى هذه الجريمة ــ اتخذوا من ذلك بابا واسعا يدخلون منه للطعن على الاسلام ، وعلى فقدان الجانب الانسانى فيه .. اذ كيف يبلغ به أن يجلد الانسان كما يجلد الحيوان ، ثم لا يكتفى بهذا بل يمثل به هذا التمثيل ، فيدعو الناس الى مشاهدته وهو يتلوى تحت سياط العذاب ؟ أما عملية الرجم ، فهى عملية أشد بشاعة ، وأنكر نكرا من كل الوان العقاب والعذاب .. فهذا رجل ، وتلك امرأة يرمى بهما أحياء فى حفرة ، ثم تأخذهما الأيدى من كل جانب،رجما بالحجارة، حتى الموت !!

هكذا يقول المفترون على الاسلام ، دون أن ينظروا الى ذلك الانسان الذى وقع تحت هذه العقوبة ، والى اى مستوى حيوانى ــ لا انسانى ــ نزل اليه .

حقا ان العقوبة قاسية ، فيها اهدار لآدمية الانسان ، واستخفاف بانسانيته ..

ولكن اى انسان هذا الذى أهدر الاسلام آدميته ، واستخف بانسانيته ؟

انه لم يعد انسانا باقدامه على هذا الفعل على تلك الصورة ، التى يأبى كثير من الحيوان أن يفعلها علنا ، بل كثير من الحيوانات اذا اتصلت بانثاها حرصت على أن تذهب بعيدا بحيث لا تراها عين ، من انسان أو حيوان ! .

أما هذا الحيوان الآدمى . فقد تعرى من كل معانى الانسانية ، فلا حياء ، ولا عفة ، ولا مروءة ، بل فجور ، وتجرد من الحياء ، واستخفاف بالجماعة التى يعيش بينها ، فلا يكتفى بالعدوان على حرمة أحد أفرادها ، فى ستر وخفاء ، بل يأتى جريمته علنا على أعين الناس ، وكأنه فى حجرة مغلقة عليه ، وعلى زوجه !

ان الناس حين يرون كلبا علق بكلبة فى الطريق العام يرجمونهما بكل ما يقع لأيديهم من حجارة ، أو نحوها . هكذا بدون حساب

أو تقدير .. وهكذا ينبغى أن يفعل بالرجل والمرأة اذا رآهما الناس على تلك الحال . وغاية ما هناك هو أن يقادا الى ولى الأمر . وتقام عليهما الشهادة من أربعة شهود عدول ، ثم يقضى ولى الأمر بالحد الذى قضت به الشريعة فيهما ، ولا نحسب أن مجتمعا من المجتمعات يقبل أن يرى هذا الفعل المنكر ، ثم لا ينكره بالعمل ، ويعجل بانفاذ العقوبة فى مرتكبيه قبل أن يسوقهما الى ساحة القضاء !

ثانيا ــ المرأة فى الاسلام

اننا لو أنصفنا الحقيقة ــ فى جانب الاسلام ــ لما جعلنا للمرأة مكانا فى هذا البحث ، الذى ينتظم بعض قضايا الشريعة الاسلامية. اذ لم يجعل الاسلام للمرأة وضعا خاصا تنعزل به عن الكيان الانسانى ، ويكون لها بذلك وضع خاص ، وأحكام خاصة تصلح أن تكون قضية من القضايا .

والحق أن الاسلام لم ينظر الى المرأة نظرة تفرق بينها وبين الرجل الا فى أضيق الحدود ، والا فيما يتصل بها كأنثى ، وبالرجل كرجل ..

فالمرأة فى الاسلام انسان تحمل كل خصائص الانسانية كالرجل سواء بسواء ، وكما يخالفها الرجل فى بعض الصفات التى تجعل منه رجلا ، تخالفه هى أيضا فى بعض الصفات التى تجعل منها أنثى ، تماما كما هو الحال فيما بين الذكر والأنثى فى عالم الأحياء .

ان الرجل والمرأة هما أصل شجرة الانسانية ، وما تفرع منها من فروع ، فهذا المجتمع الانسانى كله ، هو قسمة مشتركة بين الرجل والمرأة معا .. **« يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير »** (١٢ : الحجرات) .

فكيف مع هذا ــ يمايز الاسلام بين هذين الأصلين على حين سوى بين كل ما تفرع منهما من شعوب وأمم ؟

ان حكمة الخالق قد جمعت بين الرجل والمرأة جمعا لازما ، يكاد يكون اضطراريا يعلو فوق ارادة الانسان ، ليكون منهما النسل الذى فيه حفظ النوع الانسانى وبقاؤه ! .

ولهـذا الاجتمـاع الضرورى ، بل والاضطرارى بين الرجـل والمرأة ، كان لابد أن يكون لأحدهما قيادة الجماعة التى يضمها الرجل والمرأة تحت جناحيهما ، من بنين وحفدة .. أنه لابد من قائد يقود تلك الجماعة ، حتى تجرى أمورها على اتجاه سليم ، فلا تتنازعها الآراء ، ولا تتشعب بهـا المسـالك .. واذا كانت الشريعة الاسلامية قد جعلت هذه القيادة للرجل ، فليس ذلك بالذى ينزل من قدر المرأة . وانما لأن الذكر أقدر على احتمال تبعات القيادة من الأنثى ، كما نشهد ذلك فى عالم الحيوان والطير، بصورة تكاد تكون عامة ..

ولا نقف طويلا عند موقف الشريعة الاسلامية من المرأة ووضعها الكريم فيها .. ويكفى أن تسوى الشريعة بينها وبين الرجل فى التكاليف الشرعية ، وفى الحساب والجزاء ، حيث يقول سبحانه: **«من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »** (٩٧ : النحل) .

ونحب أن ننبه هنا الى أن الوضع السيىء الذى صارت اليه المرأة فى المجتمع الاسلامى فى القرون الأخيرة — لم يكن وضعا خاصـا بالمرأة وحـدها ، بل هو الوضع الذى انحـدر اليه المجتمع كله ، وما أصابه من ضعف ، وجهل .. فاذا كانت المرأة قد أخذت نصيبها من هذا البلاء ، فان الرجل قد أخذ نصيبا مضاعفا منه ! .

وانه يوم يعود للمجتمع الاسلامى وضعه الذى ينبغى أن يكون له فى ظل الاسلام ، فان هذه الصورة المعتمة المضطربة التىيراها الناس للمرأة ستتغير كثيرا ، حيث تنزع المرأة المسلمة كل هـذه الأثواب المستعارة ، وتلبس ثوب الاسلام ظاهرا وباطنا ، ويومها يستر باطنها ما انكشف من ظاهرها ..

ونقف هنا من قضية المرأة فى الاسلام ، عنـد أمور ثلاثة : تعدد الزوجات — الطلاق — الحجاب المضروب عليها .

ا ــ تعدد الزوجات :

من أبرز الأمور التى يشنع بها المفترون على الاسلام ، أن شريعته قد أباحت تعدد الزوجات ، بمعنى أن للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة الى أربع ، يمسك بهن فى عصمته عدا ما يملك من اماء ، وان بلغن المئات عدا !! .

وهذه لا شك صورة اذا أخذت على اطلاقها كانت امتهانا للمرأة ، وعدها سلعة من السلع او متاعا من الأمتعة ، يغيره الرجل كما يغير ثوبه ! .

ولكن الذى ينظر فى الشريعة الاسلامية ، متجاوزا عن تلك الانحرافات التى وقعت فى تطبيقها ، يرى ان التعدد لم يكن امرا تعبديا يتعبد به المسلم ، فيوجب على نفسه التزوج بأكثر من واحدة ليحقق بذلك شعيرة من شعائر دينه .. وانما كان هذا التعدد رخصة يلجأ اليها الانسان عند الضرورة ، أشبه برخصة التيمم عند المرض أو فقدان الماء ، وكرخصة الافطار فى رمضان فى المرض أو السفر.

واذن فالتعدد ليس أمرا محبوبا ، ولا مطلوبا لذاته . بل ان الاكتفاء بواحدة ــ لغير ضرورة ــ فيه السلامة والعافية للمرء فى دينه .. وفى هذا يقول الله تعالى : « **وان خفتم الا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى ، وثلاث ، ورباع ، فان خفتم الا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت ايمانكم ذلك أدنى الا تعولوا** » (٣ : النساء) .. ويقول سبحانه : « **ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ، وان تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفورا رحيما ، وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما** » (١٢٩ ــ ١٣٠ : النساء) .

وهذا يعنى أن اباحة التعدد ، لا تكون الا مراعاة لظروف خاصة اقتضتها الظروف الاجتماعية ، أو الاقتصادية للمجتمع ..

فهذه الحروب التى هى سنة من سنن الحياة البشرية كثيرا ما تأتى على كثير من الرجال ، كما أن من سنة الحياة فى الأحياء ان مواليدها

من الاناث أكثر من مواليدها للذكور كما هو مشاهد فى عالم الطير والدواب ، والحشرات وغيرها حتى فى النبات .. وهذا وذاك من شأنهما أن تتعدد الزوجات،فيكون للزوج أكثر من زوجة ، وفىذلك حماية للنساء أن يقعن فى حرج لا مخلص لهن منه الا بأن يقضين العمر عانسات ، أو يقطعن الحياة عابثات لاهيات ..

ان التعدد هنا هو باب من أبواب الرحمة للمرأة قبل أن يكون وسيلة من وسائل المتعة للرجل ..

ثم نسأل :

أهناك فى هذه الاباحة ما يرغم المرأة على أن تتزوج بمتزوج بامرأة أو بأكثر ؟ ان المرأة التى تقبل هذا ، هى فى وضع اجتماعى أو اقتصادى ترى فيه أن زواجها من رجل متزوج بواحدة أو أكثر، خير لها من أن تظل بغير زواج .. !

كذلك المرأة المتزوجة ، ليس هناك ما يرغمها على الحياة مع رجل تزوج عليها بأخرى ، أو بأكثر ، بل ان لها أن تطلب الطلاق اذا تضررت بهـذا الزواج ، عملا بالقاعدة الشرعية فى الاسـلام : « لا ضرر ولا ضرار » .

ثم نسأل مرة أخرى .. كم من الرجال تزوج بأكثر من امرأة مع اباحة التعدد ؟ انها نسبة قليلة جدا لا تكاد تذكر فى المجتمع ، والتى تعد فى حكم الشاذ الخارج على القاعدة العامة السارية فى المجتمع كله ، وهى الزواج بواحدة ..

وننظر فى الأثر النفسى الذى لهذه الاباحة فى كل من الرجـل والمـرأة ..

فلقد تكون المرأة عقيما لا تلد ، أو قد تصاب بمرض لا تصلـح معه للمعاشرة الزوجية ، ثم مع هذا تتحرك فى الرجل دوافـع الايثار ، والرحمة والمودة ، فيمسك بهذه المرأة ، ولا يطلقهـا من يده ، ولا يتزوج عليها ، وهو مع هذا راض سعيد بتلك المشاعر الانسانية التى استعلى بها على غريزته الحيوانية .. ولو أن هذا

الوضع كان أمرا ملزما له ، بحيث لا يجد سبيلا للخلاص من تلك المرأة بالطلاق ، أو بالتزوج عليها ، لوجد أنه لم يعط شيئا من ذات نفسه ، ولم يكن منه ايثار أو تضحية . انه عبد لسلطان هـذا الحكم الملزم له بالحياة مع امرأة واحدة ، لا يملك طلاقها ، ولا التزوج بغيرها .. ولا يقوم أبدا مثل هذا الشعور الخانق للانسان الذى يملك الطلاق ، وهو يمسك بامرأة عاقر أو مريضة، ويؤثرها بحبه ورعايته ، ويبذل لها من نفسه أكثر مما يبذل لها وهى فى حال اعتدالها وصحتها .. انه هنا انسان حر ، يملك التضحية والفداء حتى بروحه على مذبح الواجب والمبدأ ، وهو سعيد النفس ، قرير العين .. وكم ضحى المضحون بأنفسهم فى سبيل الواجب والمبدأ ؟ .

وقد يقول قائل هنا : اذا كان ذلك كذلك ، فما بال نبى الاسلام، وكثير من صحابته قد تزوجوا مثنى وثلاث ، ورباع ، بل ان النبى قد تزوج عشر نسوة ، ومات عن تسع فى بيته ؟

وندع الان ما يقال فى زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذلك له حديث خاص ، بعد هذا .. أما ما يقال فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان ظاهرة تزوج أكثر من واحدة لم يكن أبدا عن نزعة المتعة الجسدية وقضاء الشهوة كما يثرثر بذلك الثرثارون ، وانما كان يقوم على أكثر من عاطفة انسانية ، ودينية معا :

فأولا : كثير من هذه الزوجات ، كان قد استشهد أزواجهن فى سبيل الله ، فكان الزواج بهن نوعا من العزاء الجميل لهن ، وقد شارك فى هذا العزاء زوجات هؤلاء الصحابة ، فلم يضقن بالزواج عليهن من مثل هؤلاء الزوجات ، بل أفسحن لهن مكانا كريما من قلوبهن ، وبيوتهن ، وآثرنهن بالمكان الأول عندهن. والشواهد على هذا كثيرة ، تملأ صحف التاريخ الصادق الموثق ! .

ثانيا : كان أكثر ما وقع من التزويج بأكثر من واحدة توثيقا لروابط المودة والاخاء بين صحابة رسول الله ، حتى يكون بيت كل منهم بيتا لصاحبه ، حيث يجد فيه ابنته ، أو أخته التى أصبحت زوجا لأخيه .. وكما آخى النبى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين ،

ثم بين المهاجرين والأنصار ، كذلك وثق المهاجرون والأنصار هذا الأخاء بالمصاهرات ، التى جعلت منهم جميعا أسرة واحدة ، وجعلت من بيوتهم بيتا واحدا لهم ..

وثالثا : كان من دواعى هذا التعدد أيضا الاستكثار من نسل المسلمين ، وتعويض ما فقدوه فى الحروب وهم بعد أعداد قليلة فى عالم الشرك والكفر . وهذا ما قصد اليه الرسول الكريم فى قوله : « تناكحوا تناسلوا ، فانى مباه بكم الأمم يوم القيامة » .

هذا وليس التعدد شريعة الاسلام وحده ، بل هو شريعة الرسالات السماوية التى سبقت الاسلام وان كثيرا من أنبياء الله — صلوات الله عليهم — قد تزوجوا بأكثر من امرأة .. وهذا ابراهيم أبو الأنبياء قد تزوج بأم اسحق ، وبأم اسماعيل .. وهذا سليمان ، قد كان له — كما تقول التوراة فى الاصحاح الحادى عشر من سفر الملوك — سبعمائة من النساء ، وثلاثمائة من السرارى !!

ب — الطلاق ..

بقيت مسألة الطلاق ، واباحة الشريعة الاسلامية له ..

ونقول ان اباحة الطلاق ، كاباحة التعدد ، كلاهما ليس على اطلاقه ، وانما هو محكوم بحكم الظروف والأحوال ، مقدر بقدر الحاجة ..

فالطلاق فى الشريعة الاسلامية ، هو عملية جراحية حكيمة ، يجريها الاسلام حين تعتل الحياة الزوجية ، وحين لا تكون السلامة للأسرة مرجوة الا بهذه العملية التى تفصل بين الزوجين ، كما يفصل بين المريض بمرض معد وبين الجماعة التى يعيش فيها ، حتى لا تنتقل عداوه الى الجماعة كلها ، ويقضى عليها ..

ان الزواج شركة بين الزوجين ، رأس مالها هو حصيلة مايقدمه كل من الزوجين من عواطف الحب ، والمودة ، والحنان ، والرحمة ، المتبادلة بينهما ، وانه بغير هذا لا تقوم الشركة ، ولا تؤتى الثمر المرجو منها ..

فاذا وقع بين الشريكين خلاف ، ثم استحكم هذا الخلاف — وهذا أمر مفروض وقوعه — ثم نتج عن هذا أن تحولت عواطف الحب والمودة والحنان والرحمة الى كراهية وجفاء ، وعداوة ، من أحد الزوجين أو كليهما — أفيكون من الحكمة مع هذا أن يلزم الزوجان الزاما على الابقاء على هذه الشركة بينهما ؟

ان هذه الحال ، أمر يعرض للحياة الزوجية ، كما يعرض بين الاخوة والأصدقاء ..

والاسلام لا يخرج بالناس عن طبيعتهم ، ولا يحملهم على مالا تعطيه هذه الطبائع ، فالناس — وان كانوا ازواجا — هم بشر ، قد تطيب حياتهم على العشرة ، وترفرف عليها أعلام السعادة ، وهذا هو الغالب الأعم ، وقد تتعرض هذه العشرة لعارض ، يجعل منها نارا يكتوى بها كل من الزوجين ، وهذا وان كان على غير العام المألوف ، فانه أمر واقع ، ينبغى أن يحسب حسابه ، وأن يلتمس الدواء المناسب له .

وليس الطلاق هو الدواء الوحيد الذى تقدمه الشريعة الاسلامية عند أى خلاف يقوم بين الزوجين ، بل ان هناك أدوية كثيرة مسكنة وملطفة ، وكثيرا ما يكون منها الشفاء والقضاء على هذا الخلاف .. فذا استنفد المرء كل هذه الأدوية ، ولم يكن فيها ما يسد هذا الخرق الذى اتسع على الراقع ، ولم يكن من الانفصال مفرر أباح الاسلام استعمال هذه الرخصة ، وتناول هذا الدواء وان كان مرا ..

فأولا : جعل الاسلام الزواج نعمة من النعم الجليلة التى أنعم بها على الانسان ، وجعل فى الزوجة السكن النفسى الذى لا يجده الانسان الا بالحياة معها ، فقال تعلى : « **ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزوجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مــودة ورحمة** » (٢١ : الروم) .

وثانيا : نبه الاسلام الى ما فى الانسان من طبيعة ، لا تجــد وجودها ، وكمالها ، الا مع اجتماع كل من الزوج والزوجة ، فقال تعالى : « **وخلقناكم أزواجا** » .. (٨ : النبأ) .. فكل من الرجل والمرأة ، لا حياة له ، الا اذا زاوج بين حياته وحياة الآخر ..

وثالثا : لفت الاسلام أيضا الى نعمة الولد ، وما يجد كل من الرجل والمرأة من مشاعر الغبطة والرضا ، التى يضفيها الأولاد على حياة كل منهما ، وأن ذلك لا يكون الا اذا التقيا على الحب ، والمودة ، والرحمة والاحسان ، حتى يطيب هذا الثمر بما يتغذى به من المشاعر الطيبة المتبادلة بين الأبوين .. قال تعالى : **« والله جعل لكم من انفسكم ازواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين ،وحفدة، ورزقكم من الطيبات »**(٧٢ : النحل) ..

ورابعا : تنبهت الشريعة الاسلامية الى ما قد يقع بين الزوجين خلاف ، ولم تدع رخصة الطلاق لتحسم هذا الخلاف لأول بادرة تظهر منه بين الزوجين .. فدعا أهل الخير ، والاصلاح من أهـل الزوجين أن يعملا على تسويته ، بعد أن يجاوز هذا الخلاف محيط الزوجين ، وتردد أصداؤه فى محيط أهلهما . .وفى هذا يقول الله تعالى : **« وان خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله عليما خبيرا »** (٢٥ : النساء) ..

وخامسا : وبعد أن تستنفد هذه الوسائل ، وقبل أن يصـير الأمر الى الطلاق والحسم ، يشهر الاسلام فى وجه الرجل هذا التحذير، ويرفع لعينيه هذا النذير من الحظر الذى هو مقدم عليه ، والذى ينبغى أن يتردد طويلا قبل أن يخطو اليه .. وهذا ما يشير اليه الرسول الكريم ــ صلوات الله عليه ــ فى قوله : « أبغض الحلال الى الله الطلاق » ..

وسادسا : واذ كان الاسلام قد أعطى الرجل رخصة الانفصال عن زوجه عندما تفسد الحياة بينه وبينها ــ فانه أعطى المرأة جواز الانفصال عن زوجها اذا ضاقت بها الحياة معه ، ومسها الضرر من معاشرته .. وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : **« وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو أعراضا ، فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير »** (١٢٨ : النسء) .

والمراد بالصلح هنا ، هو ما تقدمه المرأة للرجل من تنازل عن صـداقها الذى أصـدقه اياها ، أو عن نفقة عدتها ، أو حضانة

مولودها .. وذلك حتى يخف على الرجل مصابه فيها ، وفى ماله معـــا .. !

روى أن « جميلة » امرأة الصحابى المجليل « قيس بن ثابت » جاءت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت يارسول الله : لا أجد فى قيس بن ثابت عيبا من خلق أو ايمان ، ولكنى لا أجد فى طوقى مجاراته(١) فسألها النبى صلى الله عليه وسلم : هل تعيدين اليه حائطه(٢) ؟ » فقالت : نعم ، فأمر النبى برد الحائط الى قيس وتطليقهـــا » ..

هكذا الاسلام ، انه ينظر فى شريعته الى الناس نظرة واقعية ، بما فيهم من خير وشر ، وبما تتقلب فيه حياتهم من رضى وسخط ، ومن حب وكره ، ومن صحة ومرض ..

فالطلاق رخصة قد جعلها الاسلام دواء من داء ، أو داء يستشفى به من داء ..

وبعض السـم تـرياق لبعض
وقد يشـفى العضـال من العضـال

وسوء استعمال هذه الرخصة ، لا يحسب على الاسلام ، وانما هى أمانة دينية يحملها الانسان فيما حمل من أمانات دينه . ومطلوب منه — دينا — الوفاء بهذا الأمانات وأدائها على الوجه الأكمل ، فان فرط فى الأمانة ، عد خائنا ، يلقى جزاء الخائنين عند الله .

ثم ماذا يفعل الاسلام غير هذا لعلاج ما قد يقع بين الزوجين من عداوة وبغضاء ، تذهب بها الى حد الكيد ، وتدبير السوء ، للخلاص من هذا العذاب الأليم دخل الحياة الزوجية ؟

---

(١) كان قيس بن ثابت رضى الله عنه يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ولا يكاد يجد وقتا يقضى فيه حاجة أهله معه .

(٢) أى بستانه الذى قدمه صداقا لها ، وسمى حائطا لانه مما يحاط عليه بسور ، فهو من تسمية الشىء باسم الظرف الحاوى له .

ثم انظر هذا فى تدبير الاسلام لعملية الطلاق ذاتها .. انه لم يجعل الطلاق عملية تنتهى بضربة واحدة .. لم يفعل الاسلام هذا لأنه يعلم خبايا النفوس ، وتقلبات القلوب ، فجعل عملية الطلاق تتم على ثلاث مراحل .. فيطلق الرجل امرأته طلقة أولى تظل بعدها زوجا له ، الى أن تنتهى عدتها ، فان كانت حاملا كانت عدتها الى وقت وضع الحمل ، وان كانت من ذوات الحيض كانت عـــدتها ثلاثة قروء ، وان كانت من غير ذوات الحيض كانت عدتها ثلاثة أشهر. وهذه المدة كافية لأن يراجع فيها كل من الزوجين نفسه ، وقد هدأت حدة الأمور التى كانت سبب الخلاف بينهما ، وهنا تسنح فرص كثيرة ، لاعادة الحياة الزوجية الى حالها الأولى من المودة والرضا ، ويرجع كل من الزوجين الى صاحبه ، وكأن شيئا لم يكن ، الا انه قد حسب على الرجل طلقة من طلقات ثلاث . فان جد خلاف بعد هذا ، وانتهى بالطلاق ، أصبحت المرأة بائنة بينونة صغرى ، أى أنه يجوز للرجل أن يعيدها زوجة له ، اذا قبلت هى ذلك ، على على أن يكون هذا بمهر جديد برضاها ، وعقد جديد ، كأنه يتزوجها الأول مرة .. وفى هذا انذار للزوج ، وتحذير له من أن يخطو الخطوة الأخيرة ، التى ستكون أشد وقعا عليه من الخطوة السابقة ، وذلك انه اذا طلق امرأته هذه الطلقة الثالثة ، بانت عنه بينونة كبرى ، بمعنى أنها لم تعد أجنبية عنه وحسب ، بل أجنبية ومحرمة عليه أيضا ، حتى تتزوج زوجا غيره ، ويدخل بها ، ثم يموت عنها ذلك الزوج أو يطلقها ، وعندئذ يجوز له أن يتقدم لخطبتها ، فتقبل أو ترفض ..

وفى هذا يقول الله تعالى : **« الطلاق مرتان ، فامساك بمعروف أو تسريح باحســـان »** (٢٢٩ : البقرة) .. وفى قوله تعـــالى : **« أو تسريح باحسان »** أدب اسلامى رفيع يتجه به الاســـلام الى الرجل ليقيمه على هذا الأدب الكريم ، بعد أن عاش فى تجربة الطلاق مرتين مع امرأته .. فاما أن يمسكها بعد هذا على الاحسان والمودة ، واما أن يتركها تمضى لسبيلها من غير كيد ، أو انتقام .. والله سبحانه وتعالى يقول فى هذا الموقف الذى تضيق فيه النفوس، وتتبلبل الخواطر : **« ولا تنسوا الفضل بينكم ان الله بما تعملون بصير »** (٢٣٧ : البقرة) .. ويقول سبحانه فى هذا المقام الذى فسدت فيه علائق الزوجية ، ولم يعد ثمة سبيل الى اصلاحها :

« يأيها النبى اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله ، فقد ظلم نفسه ، لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ، فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف » (١ ــ ٢ : الطلاق)

ان للحياة الزوجية حرمتها ، وقداستها .. وانها فى الاسلام لشىء عظيم ، ينبغى أن يقوم على أساس متين من المودة والرحمة ، والحب ، والحنان ، فان تصدع هـذا البناء وجب أن يبادر الى اصلاحه ، وتثبيت قواعده ، والتماس كل الوسائل التى تمسك به راسخا ثابتا ، فان ازداد هذا التصدع اتساعا ، وأوشك هذا البناء أن ينهار على من فيه ، كان من الحكمة الخروج منه ، ولو الى العراء والطل .

روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ــ رأى رجلا يهم بطلاق امرأته ، فقال له : « لم تطلقها ؟ » فقال : لا أحبها ! فقال عمر : أو كل البيوت بنيت على الحب ؟ فأين الرعاية والتذمم(١) » .

من أجل هذا ، كان ما دعت اليه الشريعة الاسلامية من الابقاء على روح المودة والاحسان بين الزوجين ، وهما فى موقف الفراق ، حيث يأخذ كل منهما طريقه : « ولا تنسوا الفضل بينكم » .. وفى هذا ما يقضى على ما فى النفوس من موجدة ، أو حقد ، أو انتقام ، مما أنطلق من شرارات الخصام والخلاف الذى دب بين الزوجين وانتهى بهما الا الانفصال ، فتفىء النفوس الى الرضا ، وتجد فى هذا شيئا من العزاء فى هذا المصاب !

ومن هذا ما شرعه الاسلام من فرض نفقة للمطلقة ، وامساكها فى بيت الزوجية التى يعتبر بيتها الى أن تنتهى عقدة الزواج ، فهذا لون من ألوان البر الرحيم ، وضرب من ضروب الصلة الكريمة ، يصل بها الزوج زوجه ، ويطيب بها خاطرها ، وكأنه اعتراف منه بسابق مودتها وحبها .. « ولا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا

---

(١) التذمم ما يوجبه الانسان على نفسه ، من احسان تقضى به المروءة .

أن يأتين بفاحشة مبينة » (١ : الطلاق) .. فانظر كيف جعلت الشريعة الاسلامية العظيمة الحكيمة ، بيت الزوجية الذى توشك المرأة أن تتركه ، ولا تعود اليه — بينها هى دون الزوج ، **فأضافه** اليها ، وهى ضيفة فيه الى أجل محدود : **« لا تخرجوهن من بيوتهن »** فبيت الزوجية فى الشريعة الغراء ، هو أساسا بيت المرأة ، يضاف اليها وهى زوجة ، كما يضاف اليها وفى حال استعدادها للرحيل منــــه ..

ولا تنظر فى هذا الذى يقوم بين الزوجين فى ساحات القضاء من مشاحنات ، ومكايد وتلفيقات فى مجال النفقة .. فذلك كله ليس من الاسلام ، ولا من شريعة الاسلام فى شىء ، وانما هو من آفات الانسانية ومن شرورها الكامنه فيها ..

ان « النفقة » التى شرعها الاسلام للمطلقات تكشف عن انسانية هذا الدين ، وعن شــــفافية روحية مشرقة فى أحكامه .. فهى فى مضمونها تعبير عن أرق المشاعر الانسانية وأصفاها فى هذا الموقف الذى تظلم فيه النفوس ، وتضطرب الخواطر ، وتحقد الصدور .. وانها لو جاءت على الوجه الذى شرعه الاسلام ، لكانت بلســـما شافيا ، ونسمة ندية عليلة فى سموم هذا الجو اللافح المحرق !

جـ — المرأة والحجـــاب :

الحجاب فى اللغة من الحجب ، وهو ستر الشىء وحجبه عن الأنظار ، أو هو الحاجز بين شيئين . بحيث يحول بين اتصـــال أحدهما بالآخر . كما يقول سبحانه فى أصحاب الجنة وأصـــحاب النـــار : **« وبينهما حجاب »** (٤٦ : الأعراف) .

وقد فهم الحجاب الذى شرعه الاسلام للمرأة فهما خاطئـــا فى عصور التخلف والضعف التى مرت بالمسلمين ، حتى لقد كادت المرأة — فى ظل هذا الفهم — تكون من عالم آخر غير عالم الرجل ، لا تجمعهما جامعة الانسانية ، ولا تؤلف بينهما وحدة الطبيعة !!

وهذا فوق أنه ظلم للمرأة ، وعدوان عليها — هو ظلم للرجل ، الذى عطل تلك القوة التى أودعها الله فى المرأة ، لتشارك بهـــا

الرجل فى حمل أعباء الحياة ، وفى اقامة معالم العمران على هذه الأرض ، لتحقق خلافة الانسان عليها ..

والذى ينظر الى الشريعة الاسلامية يجد المرأة فيها قسيمة الرجل فى كل شيء . مما تتقلب فيه الانسانية ، وما يصيبها فى تقلبها من خير أو شر ..

فحين خلق الله آدم وأسكنه جنته ، وجد آدم المرأة تقاسمه الحياة فى تلك الجنة ، وتبدأ معه الخطوات الأولى فى الحياة .. وهذا أول أمر تكليفى من الله تعالى لآدم ، لا يوجه اليه وحده ، بل تشاركه زوجه تلقى هذا التكليف ، وتحمل منه مثل ما حمل .. يقول الله تعالى : **« ويا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين »** (١٩ الاعراف) .

ثم اذ يكيد ابليس لآدم . واذ يوسوس له بعصيان ربه ، والاكل من الشجرة التى نهى عن الاقتراب منها . والاكل من ثمرها ــ فان ابليس ــ لعنه الله ــ لا يرى لكيده أثرا اذا هو اتجه به الى آدم وحده ، فقد يكيد لآدم كيدا فتفسده زوجه ، وتواجه كيد الشيطان بكيد .. ولهذا كان من كيد ابليس أن يكيد لآدم وزوجه معا .. يقول الله تعالى عن ابليس وكيده : **« فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ورى عنهما من سوءاتهما . وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة »** (٢٠ ــ ٢٢ : الأعراف)

ثم اذ يغرر ابليس بآدم وزوجه هذا التغرير ، فيأكلان من الشجرة ، ويقعان فى المعصية فانهما يتلقيان معا من ربهما هذا اللوم المعاتب الزاجر ، الذى يقابلانه بالندم ، والاعتراف بالذنب ، وطلب المغفرة من رب غفور رحيم : « وناداهما ربهما الم أنهكما عن تلك الشجرة ، وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين .. قالا ربنا ظلمنا أنفسنا ، وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » (٢٢ ــ ٢٣ الأعراف) .

ثم اذ يجنى الزوجان ثمرة هذه المعصية ، واذ يخرجهما الله تعالى من تلك الجنة ، التى أسكنهما الله تعالى اياها — يحملان أمر الله سبحانه اليهما الذى يقول فيه لهما جل شأنه : **« قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين ، قال فيها تحيون ، وفيها تموتون ، ومنها تخرجون »** (٢٤ — ٢٥ : الأعراف) .

واذ يخرج آدم وزوجه من جنتهما تلك ، التى كانا فيها فى عافية من حمل الأمانة ، أمانة التكاليف ، وما يتبعها من حساب وجزاء — فانهما يبدءان مسيرة الحياة معا ، ويتقدمان موكب مواليدهما من الانسانية ، من بنين وبنات ، جيلا بعد جيل .. يتزاوجون ، ويتوالدون ، ذكرانا واناثا ، واذا الانسانية كلها آدم ، ممثلا فى الرجال ، وزوجة ممثلة فى النساء .. واذا الرجال والنساء على الأرض ، هما آدم وزوجه فى الجنة ، مع فارق واحد ، هو حمل التكاليف ، ومعاناة الأعباء ، ومقاساة العيش فى هذه الدنيا .. الأمر الذى تصبح فيه المرأة أشد لزوما للرجل ، حيث لا تعمر دنياه ، الا بها ، ولا تسير قافلته الا بيدها التى تدفع مع يده عجلة الحياة !

فكيف يساغ اذن — مع هذا — أن يختفى وجه المرأة من هذه الحياة ، وأن يقوم بينها وبين الرجل هذا الحائط السميك من « الحجاب » الذى يفصل بينهما ، ويجعل منهما عالمين ، يعيش كل منهما فى عالمه ، معزولا عن الآخر ؟

وكلا ، فان حكمة الحكيم العليم ، لا تلتقى مع هذا الوضع ، الذى يدفع المرأة عن هذا المكان الذى تقاسم فيه الرجل خطواته فى الحياة ، خطوة خطوة ، وتقتسم معه أنفاسها نفسا نفسا ..

وان أى تشريع سماوى لا يعترف فيه أتباعه بمكان المرأة مع الرجل ، وبمشاركتها الحياة معه ، مشاركة تحقق فيها انسانيتها ، وتبرز فيها معالم تلك الانسانية من مدركات ، ومشاعر ، وأحاسيس ، مثل الرجل سواء بسواء — ان أى تشريع سماوى لا تقوم فيه المرأة بين أتباعه بهذا المقام ، هو تشريع قد أسىء فهمه ، وانحرف تأويله ، أو حرفت كلماته ، وبدلت تعاليمه وأحكامه !!

وهذا كتاب الشريعة الاسلامية ينطق بآياته البينات المحكمات ، التى تضع المرأة والرجل على كفتى ميزان ، سواء بسواء ، لا يرجح فيه أحدهما الآخر ، فيما هو مناط بهما من أحكام الشريعة وآدابها ..

فالايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر — هذا الايمان هو دعوة الله تعالى الى الرجل والمرأة معا ..

والعبادات ، التى تعبد الله تعالى بها عباده من صلاة ، وصيام ، وزكاء ، وحج ، هى تكاليف شرعية ، للرجال ، وللنساء ، وهى أمانة مطلوب من كل من الرجل والمرأة أداءها ، والوفاء بها على الوجه الذى أمر الله تعالى به ! فمن اداها محسنا أداءها نال رضوان الله فى الدنيا والآخرة ، وكان أهلا لجنته ، وما فيها من نعيم مقيم ، ومن غفل عنها ، أو قصر فيها ، كان حسابه ، وجزاؤه على قدر غفلته أو تقصيره .. يقول الله تعالى فى كتابه الكريم : **« ان المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين، والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما »** (٣٥ : الأحزاب) .. ويقول جل شأنه : **« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »** (٩٧ : النحل) ويقول تبارك اسمه : **« ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ، يرزقون فيها بغير حساب »** (٤٠ : غافر) .. ويقول سبحانه : **«فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض»** (١٩٥ آل عمران) .

ثم ان الشريعة جعلت الرجل والمرأة ذمة واحدة ، فى مقام الولاء والعداوة ، حيث تناظر المرأة الرجل ، وتحاسبه بما يحاسب به ، وتجازى بما يجازى به ..

ففى مقام الولاء يقول الله تعالى : **« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** (٧١ : التوبة)

ويقول سبحانه : « **والذين يؤذون المؤمنون والمؤمنات بغير ما كتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا** » (٥٨ : الأحزاب) ويقول تبارك اسمه : « **هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله ، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ، ليدخل الله فى رحمته من يشاء ، لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما** » (٢٥ : الفتح)

وفى غير مقام الولاء والايمان ، يجرى الأمر على هذا التقدير ، مع الرجل والمرأة على السواء .. فيقول سبحانه : « **المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ، يامرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم** » (٦٧ : التوبة) ويقول جل شأنه : « **وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها** »(٦٨ : التوبة) .. ويقول تبارك اسمه : «**ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات**» (٧٣ : الأحزاب)

وهكذا تناظر المرأة الرجل ، وتزاحمه بمنكبها فى كل موقف يقفه فى مقام الخير والشر على السواء .. ومن هذا يبدو أن الفهم الصحيح للشريعة الاسلامية ، والتطبيق السليم العادل لأحكام هذه الشريعة، يقيم المرأة فى المجتمع الاسلامى مقاما كريما ، تجد فيه وجودها الانسانى كله غير معوق ولا معطل ..

وشهادة التاريخ فى تلك الفترة المشرقة من حياة الاسلام فى عصر النبوة ، وفى فترة الخلفاء الراشدين من بعده ــ هذه الشهادة تنطق بأجلى بيان ، وتحدث بأوضح أسلوب عن الدور العظيم الذى قامت به المرأة فى الخطوات الأولى للاسلام ، التى كان يخطوها أتباعه على أرض مليئة بالأشواك . محفوفة بالمخاطر والأهواء ، لينفذوا بهذا النور السماوى الذى استضاءت به قلوبهم ، ويحاول المشركون فى اصرار وعناد أن يطفئوه ..

كانت المرأة فى هذا الدور من الدعوة من أهل السبق الى الاسلام، بل كان من أول السابقين اليه ، والوقوف الى جانب الرسول ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ من أول يوم تلقى فيه اشارة السماء ، ليكون رسول الله ، ورحمته للعالمين .

ولعله لا يخلو من سر هذا الحدث الذى كان يوم سمع النبى الكريم ، صوت السماء ، يناديه ، فكان مفزعه ــ صلوات الله وسلامه عليه الى المرأة ، وهى زوجه السيدة خديجة رضى الله عنها ، وكانت هذه السيدة أول انسان صدق بمحمد ، واستجاب له ، وآمن به ، ودخل فى دين الله معه !

وهكذا يقوم بناء المجتمع الاسلامى الأول على أساس قوامه رجل وامرأة .. نبى ، وامرأة نبى ! ومن يدرى .. فلعل هذا الذى يبدو من قيام الدعامة الأولى للاسلام على النبى وزوجه ، على الرجل والمرأة ــ لعل هذا يبدو أنه حدث عرضى ، أو اتفاقى ، هو أمر من أمر الاسلام ، وخصيصة من خصائصه ، وسر من أسراره ، اذ كان ــ وهو الدين القائم على الفطرة ــ حريا به بأن يولد هذا الميلاد الطبيعى من رجل وامرأة ، كما يولد أتباعه من رجل وامرأة ، من زوج وزوجة !!

ثم تمضى المرأة بعد هذا فى سيرها موكب الدعوة الاسلامية .. خطوة خطوة ، تزاحم الرجل بمكنبها فى البذل والجهاد ، والتضحية، والبلاء ، فى سبيل العقيدة ، وفى الدفاع عن مقامها حيث استقرت فى القلب المؤمن بها ..

ففى هذا الابتلاء الذى ابتلى به السابقون الأولون الى الأسلام ــ كانت المرأة الى جانب الرجل ، تتلقى فى شجاعة ، وايمان ، وصبر كل ما كان يصب عليها من عذاب ، وما تتعرض له من فتنة ، ومن استحياء لحيائها كأنثى . دون أن تتحول عن موقفها ، أو حتى نعطى كلمة الكفر بلسانها .. وقد سجل تاريخ الاسلام قبل الهجرة مواقف بطولة للمرأة عز على كثير من الرجال أن يقفوها فى هذا المقام. وأن يثبتوا عليها هذا الثبات الراسخ .. ونذكر هنا أم عمار بن ياسر التى ظلت تحت وطأة التعذيب الجسدى والنفسى ، الذى تجد مسه فى كيانها ، وتشهده فيها وفى ابنها وزوجها ، حتى ماتت تحت وطأة هذا العذاب ، ولفظت حياتها نفسا نفسا ، حتى لقد ضاق معذبها من هذا التحدى العنيد الذى امتد زمنه ، فأنهى حياتها بطعنة من حريته فى موضع العفة منها .. ولسنا نشك فى أن هذا الموقف من « سمية » امرأة ياسر ، وأم عمار بن ياسر ــ لا نشك فى أن موقفها

هذا البطولى الفريد ، قد أعطى زوجها وابنها ثباتا وعزما استطاعا به أن يحتملا العذاب ، وأن يقفا فى وجه سادة قريش ، وأن يذلا كبرياءهم ، وينزلا بهم تلك الهزيمة الفاضحة !!

ثم اذا كانت الهجرة التى أذن فيها الرسول للمؤمنين أن يفروا الى الله بدينهم ، وأن يخرجوا من دائرة هذا الاعصار العنيف الذى يفهم فى مكة — اذا كانت تلك الهجرة للمؤمنين ، أخذت المرأة مكانها فيها مع المهاجرين ، وكانت مثلا فذا فى التاريخ فى التضحية والفداء . فخرجت مهاجرة ، تاركة الأهل والزوج ، والولد ، لم تغلبها عواطف الأمومة ، أو الزوجية ، أو الأبوة ، أو الأضواء — على عقيدتها ، بل مضت الى هجرتها ، ثابتة الخطا ، قوية الارادة ، مشدودة العزم ، والقت بنفسها فى هذا الطريق الوعر الطويل ، غير مبالية بما تلقى على هذا الطريق ، ولا بما تنتهى اليه غايتها فى هذا الوجه المجهول !

ولقد وجد الرجال الذين أزمعوا الهجرة من استجابة زوجاتهم لهم وصحبتهم فى هذه الغربة ، ما خففت عنهم فراق الأهل والموطن ، فلم يترددوا ، ولم يتلبثوا !

ويحصى تاريخ الاسلام فى هذا الموقف أعدادا من النساء المهاجرات ، يتماثل أو يتعادل مع أعداد الرجال ..

وفى الهجرة الى الحبشة ، وهى أول هجرة للمسلمين ، وابعدها شقة ، واقساها امتحانا — فى هذه الهجرة كان عدد المهاجرين من الرجال ثلاثة وثمانين رجلا ، بما فيهم الذين لم يتزوجوا بعد ، أو الذين ماتت زوجاتهم ، وكان عدد المهاجرات من النساء فى صحبة أزواجهن تسع عشرة امرأة ، على رأسهن رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زوجها عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، كما كان من بين المهاجرات ثلاث تزوج بهن رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، فيما بعد ، مواساة لهن ، وعزاء فى مصابهن فى أزواجهن ، وهؤلاء هن أم سلمة بنت أمية بن المغيرة ، وأم حبيبة بنت أبى سفيان وسودة بنت زمعة ، رضى الله عنهن .

وفى الهجرة الى المدينة ، كان المهاجرات المؤمنات يسابقن الرجال ، وكثير منهن فارقت زوجها وولدها وأهلها مهاجرة فى سبيل الله ..

وفى غزوات الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كانت نساء المؤمنين من المهاجرات والأنصاريات قوة من قوى الحق ، فى ميدان القتال ، يشددن ظهر الرجال ، ويبعثن فى قلوبهم العزم والمضاء ، ويضمدن جراح الجرحى ، ويحملن الماء يطفن به صفوف المقاتلين ، ثم اذا أصيبت المرأة فى ابنها أو زوجها أو أخيها لم تجزع ، ولم تيأس لما أصابها ، بل تصبر الصبر الجميل ، مستبشرة بما وعد الله الشهداء من حياة طيبة فى دار الخلود .. وكان ذلك مما يقوى من عزائم الرجال ، ويثبت أقدامهم فى ميدان القتال ..

ثم اذا خرج الاسلام من هذا الامتحان ظافرا منتصرا ، وجاء نصر الله والفتح ، دخل الناس فى دين الله أفواجا ـ لم تكن المرأة قعيدة بيتها ، ولم تجعل هذا الدور أول وآخر صفحة فى حياتها ، بل ظل وجهها فى المجتمع الاسلامى بارزا مشرقا ، فكانت المرأة تعمر بيت الله ، وتستمع الى رسول الله ، وتتفقه فى دين الله ، وتفتى وتستفتى ، وتلقى الرجال غادية ورائحة ، وتعرفهم ويعرفونها ، وتستخبرهم ويستخبرونها .. هكذا شأن المرأة فى عصر النبوة ، وعصر الخلافه الراشدة من بعده ، ثم امتد ذلك الى العصر الأموى كله !

فلم يضرب الاسلام الحجاب على المرأة ، ولم يجعلها حبيسة بيتها وقعيدة دارها ، بل فتح لها أبواب الحياة كلها ، تدخلها بابا بابا ، شأنها فى هذا شأن الرجل على سواء .. لا تستصحب معها الا دعوة الاسلام لها ، وللرجل ، بالتعفف ، والتصون ، والتوقى لحرمات الله ..

والحجاب الذى ضربه الاسلام على المرأة كان خاصا بنساء النبى وحدهن ، دون نساء المسلمين ، وذلك أدب سماوى أختصهن الله تعالى به ، لمقامهن الذى كان لهن بزواجهن من رسول الله ، وقد جعل الله تعالى لهن فى مقابل ذلك أجرا مضاعفا ليس لغيرهن من النساء ، وكأنه فى مقابل هذا التكليف الخاص بهن ..

وفى هذا يقول الله تعالى مخاطبا نساء النبى : **« ومن يقنت منكن لله ورسوله ، وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما .. يا نساء النبى لستن كأحد من النســـاء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا ، وقرن فى بيوتكن ، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، انما يريد الله ليذهب عنـــكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »** (٣١ ـــ ٣٣ : الأحزاب) .

ويؤدب الله تعالى المؤمنين بهذا الأدب الخاص مع نساء النبى ، فيقول ســـبحانه : **« النبى أولى بالمؤمنين من أنفســـهم وأزواجه أمهاتهم »** (٦ : الأحزاب) .. وتقوم هذه الأمومة المعنوية الروحية مقام الأمومة الحقيقية الولادية ، فيحرم على المسلمين أن يتزوجوا نساء النبى من بعده ، فيقول سبحانه : **« وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده ابدا .. ان ذلكم كان عند الله عظيما »** (٥٣ : الأحزاب) ..

ومع قيام هذه الأمومة الروحيةفى نفس المؤمنين ، فانها لا تسمح لهم بما تسمح به أمومة الولادة ،مما يكون بين الأبناء والأمهات من اختلاط ، بل يظل الحجاب قائمابين المؤمنين ، وأمهات المؤمنين ، أزواج النبى .. وفى هذا يقـــول الله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا ان يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه ، ولـــكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مســـتأنسين لحديث ، ان ذلـــكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق ، واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجـــاب ، ذلـــكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن » (٥٣ : الأحزاب) ..

فهذا هو ادب السماء الى نساء النبى خاصة ، وما ينبغى لهن فى أنفسهن ، وفى نفوس المؤمنين جميعا من رعاية هذا المقام العظيم لبيت النبوة ، وما ينبغى أن يكون عليه من طهر وقداسة ، وما يجب أن يقوم عليه من حمـــاية ووقاية تباعد بينه وبين مظنات التهم وقالات السوء من المنافقين ، وممن فى قلوبهم مرض .. والله سبحانه وتعالى قد أراد لهذا البيت الكريم أن يبرأ من كل دنس ،

وأن يسلم من كل رجس : « **انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** » (٣٣ : الأحزاب) ..

وليس لهذا الحكم الجزئى المحدود بهذه الحدود الضيقة — زمانا ، ومكانا ، وأشخاصا — والذى لا يجاوز بيت النبوة ، ونساء النبى — ليس فى هذا ما يؤثر فى حياة المرأة ، أو يعطل اية قوة من قواها ..

والاسلام اذ يدعو المرأة الى التعفف والتصون ، حفظا لدينها ، وحماية لشرفها ، واعتزازا بكرامة انسانيتها — فانه لا يقصر هذه الدعوة على المرأة وحدها ، بل يبدأ بالرجل أولا ، فيدعوه الى التعفف والتصون ، حفظا لدينه ، ومروءته ، وشرفه ، وكرامة انسانيته .. فالمرأة ليست الا طرفا فيما يقع فى المجتمع الانسانى من فاحشة .. حيث لا تتم الفاحشة الا بالتقاء الرجل والمرأة معا على اقترافها .. وفقدان طرف من هذين الطرفين — الرجل والمرأة — يحول دون وقوع هذا المنكر ..

ومن الواضح ان الرجل هو الذى يطلب المرأة . ويدعوها اليه ، ويطرق الأبواب المختلفة للوصول اليها ..

ومن الواضح أيضا أن المرأة اذا تبدت للرجل فى صورة غير مجملة بالوقار والحشمة ، وظهرت له فى ثوب من الخلاعة والتهتك — كان ذلك دعوة — من طرف خفى له — اليها ، والى الطمع فيها .. وهذا ما يشير اليه قوله تعالى فيما أدب به نساء النبى : « **يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ، ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول ، فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا** (٣٢ : الأحزاب) .. فالكلام اللين من المرأة ، وأن صدر من قلب سليم ، فانه يطمع من الرجال من كان فى قلبه مرض ..

ولهذا كانت دعوة القرآن الى الرجال أولا ، بغض البصر ، وحفظ الفرج .. ثم كانت دعوته الى النساء ثانيا ..

فاذا أمر الله تعالى المؤمنين بقوله سبحانه : « **قل للمؤمنين**

يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم أن الله خبير بما يصنعون » (٣٠ : النور) ..

— اذا أمر الله تعالى المؤمنين بهذا ، جـــاء أمره الى النساء المؤمنات بقوله جل شأنه : « **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن .. » ..**

ثم يجيء وراء هذا الأمر ، أمر آخر ، خاص بالنساء .. ذ يقول ســبحانه : « **ولا يبــدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن ، أو آباء بعولتهن .. »** الآية (٣١ : النور) .

والمراد بالزينة التى تحجبها المرأة عن أعين غير محارمها ، هو ما يفتن الرجال منها ، ويغريهم بملأ العين من مفاتنها ، الأمر الذى تهب منه ريح الخطر ، التى قد تلف كلا من الرجل والمرأة فى ضباب الفاحشة ..

ومن هنا كان ما فرضه الاسلام على المرأة من ستر كل ما يغرى الرجل بها ، سواء أكان ذلك من جسدها ، أو من مشيتها ، أو من لين كلامها ، أو من ملامح وجهها ، أو اشارة عينها .. الى غير ذلك مما يطمع الذين فى قلوبهم مرض فيها ..

والذى ينظر فى الزى الاسلامى الذى ينبغى للمرأة أن تتزيا به ، بحيث يستر جسدها ، ويغطى رأسها ، فلا ينكشف منها الا وجهها وكفاها ، وقدماها — الذى ينظر فى هذا الزى يرى أنه دعوة من دعوة الفطرة ، قبل أن يكون أمرا من أوامر الدين ..

فالطبيعة تدعو الأنثى أن تتمنع على الذكر ، وأن تقيم بينـــه وبينها أكثر من حجاب ساتر ، حتى تظل دائما مطلوبة له ، بحيث عنها ، ويعانى فى سبيل الوصول اليها .. فاذا وصل اليها بعـــد شوق ومعاناة ، كانت عزيزة عليه ، كريمة عنده ، وليس كذلك الأمر اذا وجدها بين يديه ، سهلة المنال ، قريبة المأخذ ..

هكذا الشأن كل ثمرة يقطفها الانسان .. أنه اذا نالها بعد جهد وعناء ، امتلأت نفسه ،عزازا لها وحرصا عليها ، ورغبـــة فيها .. وان نالها بغير جهد ، زهد فيها ، وزوى وجهه عنها !

ذلك ما وهبته الطبيعة للأنثى ، من التأبى على الذكر ، والتمنع عنه ، والتخفى له ، ليكون لها من ذلك قوة تقابل بها قوة الذكر ، فلا تستسلم له الا بعد أن تتقطع أنفاسه قبل أن يصل اليها .. نرى ذلك فى عالم الحيــوان ، من وحش وطير .. كمـــا نراه فى المجتمعات البدائية التى تساكن الحيوان فى الغابات والأدغال !

فاذا خرج الانسان من هذا التطور ، الى طور المدنية والحضارة، لم يكن له أن يخرج عن فطرته ، التى هى ملاك وجوده .. وبالتالى لم يكن للمرأة كأنثى أن تخرج عن فطرتها التى تدعوها الى أن تقف من الرجل موقف التمنع والتستر والتخفى !

فما جاء به الاسلام اذن من دعوة المرأة التزيى بهذا الزى الذى تستر به مفاتنها عن الرجال ـــ لم يكن الا ليحفـــظ به على المرأة فطرتها ، ويبقى على أنوثتها ، ومكانتها فى قلب الرجل .

وبين أيدينا شواهد كثيرة لهذا ..

ففى الهند ، والصين ، واليابان ، واندونيسيا ، وغيرها من بلاد الشرق ، التى لم تفسد المدنية الغربية فطرة الناس فيها ، نرى المرأة فى هذه المواطن تتزيا بزى الفطرة ، الذى يكاد يكون صورة مطابقة للزى الذى يدعو اليه الاسلام ، النساء المسلمات !

وكان من اثر هذا أن ظلت الأسرة فى هذه المواطن قوية الدعائم ، مجتمعة العواطف ، موحدة المنازع والمشارب .. دون أن يكون للدين السماوى دخل فى هذا ، لأن أكثر القوم فى هـــذه المواطن لا يدين بدين سماوى . وما ذلك الا لأن للفطرة مكانها فى كيان الانسان هنـــاك .

وعلى عكس هذا ، ما تشهده الحياة اليوم فى أوربا وأمريكا ، حيث اختنقت الطبيعة الانسانية بدخان المصانع والمعامل ، وحيث غرقت الفطرة فى طوفان المخترعات والمصنوعات ، فتحول الناس هناك الى دمى مسلوبة العواطف والأحاسيس ، لا يبتعد الانسان هناك كثيرا عن هذا الانسان الآلى ، ولا يعدو العالم هناك فى أى

ضرب من ضروب العلم أن يكون واحدا من تلك العقول «الالكترونية»، التى تأتى بالمذهلات من العجائب والغرائب !

فاذا نظرنا فى الأسرة ، أو ما يفترض أن يكون أسرة هناك ، لم نجد دفء الأنس والسكن الذى من شأنه أن يظلل كل مكان يجتمع فيه الزوج وزوجته ..

ان الحياة الزوجية هناك لا تعدو أن تكون عملية تجارية بين شخصين ، عملتها السائدة هى الدولار ، يحتسب كل شخص منهما مدى ما يناله من ربح ، أو يقع عليه من خسارة ..

هذا هو الواقع فعلا ، فى الشرق الأقصى . والغرب الأقصى .. أما مابين هذين الطرفين وهو ما يضم البلاد العربية ، ومعظم البلاد الاسلامية ، فهو من هذا وذاك ، خليط من فطرة الشرق ، وبدعيات الغرب ، وذلك موقف أشبه بموقف النفاق بين الايمان والكفر ، وان النفاق لشر من الكفر ، حيث يرجى للكافر أن يتحول يوما الى الايمان .. أما المنافق ، فلن يتحول عن موقفه أبدا ..

***

ونعود الى موضوع الحجاب الذى صار فى المجتمع الاسلامى من سمات التخلف ، الذى يرمينا به الغرب ، ويتابعهم عليه كثيرون منا ، ممن رضعوا منحضارة الغرب،وتربوا فىحجرها ، أو الذين شاهدوا آثارها فيما يرون على شاشة « السينما » مما يعرض فيهـــا من مظاهر الحياة هناك ..

والحق أن المرأة المسلمة قد رد اليها الاسلام اعتبارها ، وخلصها من كثير من الظلام المادى ، والعقلى الذى كان مضروبا عليها فى الجاهلية ، وملأ عقلها ، وقلبها بنور الايمان ، وبصرها بمواقع الحق والخير ، وخلع عليها خلع الانسانية الكريمة ، فكان لها هذا الدور العظيم فى بناء المجتمع الاسلامى ، وفى احتمال ما احتمل المؤمنون الأولون من ضر وأذى فى سبيل الدعوة الى الله .

والحق أيضا ، أن المرأة المسلمة لم تعرف هذا الحجاب الكثيف

فى مطلع الحياة الاسلامية ، ولم تدخل فى أسر تلك العزلة القاتلة ، التى عزلتها عن الحياة ، وخربت كثيرا من قواها المدركة ، ومن مشاعرها الانسانية السليمة .. بل لقد كانت تملأ وجوه الأرض علما وعملا ..

ولا يمكن أن يكون موقف الاسلام من المرأة الا هذا الموقف الكريم الرحيم ، الذى يتيح لها أن تأخذ حظها كاملا من الخير والرحمة اللذين حملهما الاسلام الى الانسانية كلها ..

وكيف يعقل أن يجىء دين يخاطب فيه رسوله من الله تعالى بقوله سبحانه : ((**وما ارسلناك الا رحمة للعالمين**)) ثم يكون من أحكامه وتعاليمه ما يتحول بالمرأة من انسان له وجوده ، وله عقله ، وله مشاعره ومنازعه — الى كائن مسلوب الارادة ، مشلول الحركة. مضروب بينه وبين وجوه الحياة بأبواب وأسوار من حديد .

لم اذن كان خلق المرأة على هذه الهيئة الانسانية ؟ ولم اذن كانت مدعوة من الله الى دين الله ؟

أذلك ليكون الدين لعنة وشؤما عليها ؟ أيدخل هذا فى حكمة الحكيم العليم ، ويضاف الى دينه الذى جعله رحمة للعالمين ؟ الا تدخل المرأة فى مفهوم هذه العالمية ؟ الا يكون له حظها من هذه الرحمة العامة ؟

أيكون هذا من منطق شريعة سماوية ، تحمل الى الناس — كل الناس . الخير والرحمة ؟ ثم أيستقيم لهذه الشريعة — منطقا وعدلا — أن تخاطب المرأة مخاطبة الانسان العاقل الرشيد ، وأن تطالبها بحمل التكاليف الشرعية التى يطالب بها الرجل ، ثم تقيدها بهذه القيود الثقال ، وتصفدها بتلك الأغلال ؟ الا يكون ذلك من الاعنات والحرج فى شريعة رفع الله تعالى عن أتباعها الاعنات والحرج ؟

ان الرحمة فى الشريعة الاسلامية تشمل الوجود كله .. فكيف يعقل أن تحرم منها المرأة دون مخلوقات الله جميعا ؟

ان ظروفا سياسية ، وجتماعية ، ومذهبية قد أحاطت بالمجتمع الاسلامى كله ، فقلبت أوضاعه ، وغيرت معالمه ، وشـــوهت حقائقه ، فرأى الحياة من خلال الضباب المتكاثف حوله ، فلم ير منها الا ظلالا باهتة ، والاشباحا مائجة ، وكان ذلك بلاء واقعا على المرأة والرجل على السواء !

لقد وقع المجتمع الاسلامى منذ أواسط الدولة العباسذية ، تحت وطأة غزو اجتماعى ، وسياسى وأخلاقى من تلك الأمم غير العربية التى دخلت فى الاسلام . .وكان فيما يتصل بالمرأة أن كثرت مجالس القيان ، وماجت الحياة بمجالس الشراب التى احتشدت فيهـــا الجوارى والغمان ، وكان من هذا أن بدت المرأة فى هذه الآفاق رخيصة مسترخصة ، تنالها كل عين ، وتعبث بها كل يد .. وكان من هذا أيضا أن سرت فى الناس موجات التحلل والفساد ، بل والاباحية المطلقة ، فكان ذلك داعية الى قيام رد فعل مضـــاد لهذه الحركة ، فظهر الزهد ، والتعفف والتزمت ، وقام الفقهـــاء ورجال الدين بدورهم فى هذا الموقف ، فحملوا على المرأة حمـــلة شعواء ظالمة ، اذ كانت فى نظرهم صاحبة الدور الأول فى هذا الشر الذى ملأ وجه الأرض !

واذ لم يكن فى الامكان الوقوف فى وجه هذه الحياة التى تحياها الجوارى والقيان — فقد اتجهت القوى كلها الى حماية الحرائر داخل دورهن وقصورهن ، وفرض على المرأة أن تلزم بيتها ، وأن تقيم فى الحريم بعيدا عن كل عين ، وراء الســـتر ، والحراس والحجـــاب !

ثم أنه ضاعف من هذا البلاء الواقع على المرأة ، تلك الحروب المتصلة ، والفتن التى شملت العالم الاسلامى ، خـــلال الغزو المغولى والتترى ، ثم الغزو الصليبى ، ثم الاستعمار الأوربى ، الذى جثم على صدر الأمم الاسلامية قرونا لم ير فيها المســـلمون من حضارة الغرب الا بريقها الزائف فيما يفسد الأخلاق ، ويدمر العقول ..

فلما انجلت سماء الاسلام مما غشيها من سحب الاستعمار ، لم ير الناس فى أيديهم الا تلك المخلفات الزائفة من مدنية الغرب التى

انخدع بها الناس ، وعدوها بضعة الحياة المدنية التى لا يفوت المتمدن أن يقيم حياته عليها .. فكان هذا الخروج السافر على الطبيعة الانسانية ، وكان هذا التحلل الصريح من كل خلق ودين .. وكان للمرأة نصيبها من كل هذا ، فخرجت من حيائها ، وتحللت من وقارها ، واسترخصت انسانيتها ، وتمشت فى الأسواق والطرقات ، بضاعة رخيصة يسومها كل مفلس !!

فاذا أريد للمرأة المسلمة اليوم أن تعود الى فطرتها ، وأن تسترد أنوثتها ، وأن تتحصن بدينها وخلقها ، وأن تنتشل نفسها من هذه الأمواج المتلاطمة حولها — لم تجد الجرأة على مواجهة هذا التيار الغالب ، ولا القوة على الافلات منه ..

ان كثيراً من نسائنا وفتياتنا المؤمنات ، تتحرك فى كيانهن مشاعر طيبة ، تضيق بهذا الزى الفاضح ، وتريد الخلاص منه ، لتتزيا بالزى الذى تسترد به وقارها ، وتحفظ حياءها ، وترضى به ربها — ولكن قوى كثيرة تردها عن هذا الاتجاه ، وتحاول أن تفسد عليها تلك المشاعر الطيبة ، وتلقى اليها بتهمة التخلف ، والرجوع الى عصر « الحريم » !

والفرصة هنا مهيأة للمجتمع الاسلامى ، باعادة بنائه ، وبتصحيح مكانه المرأة فيه .. والآباء ، والأزواج ، والأمهات ، هم معقد الأمل ، ومحط الرجاء ، فى هذا الموقف ، الذى لا يحتاج الى أكثر من دعوة هادئة عاقلة ، مستبصرة ، ثم الى شىء من الجرأة للخروج على هذا الزى الفاضح ، الذى صار سمة مألوفة ، وعادة جارية !!

انها هجرة الى الله ، وجهاد فى سبيل الله ، من أجل كرامة المرأة ، وتحريرها من تلك البدع التى كادت تذهب بكل معالمها .. وان الذين يأخذون أول الطريق الى تلك الهجرة ، ويتقدمون موكبها، هم أشبه بالسابقتين الأولين الى الاسلام ، الذين حملوا مشاعل الدعوة حتى طلعت شمسها ، وملأت الآفاق بنورها ..

واذا كان كثير من المسلمين السابقين قد قدموا أنفسهم وأموالهم لاعزاز دين الله ، واعلاء كلمته ، فان الذين يكونون فى السابقين

الأولين الى تحرير المرأة من هذا الضلال الذى استبد بها ، لا يطلب اليهم أن يبذلوا شيئا من أنفسهم أو أموالهم ، وانما كل ما يطلب منهم هو النصح لأنفسهم ، والغيرة على حرماتهم ، واعادة بناء الأسرة الصالحة ، التى يجد فيها أعضاؤها روح المودة والرحمة ، وانس العشيرة والصحبة ، وبذلك تطيب الحياة ، ويهنأ العيش فيها ..

الباب الرابع

الرسالة الخالدة

((أليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا)) .

(٣ : المائدة)

ان من حقنا بعد هذا العرض لحقائق الشريعة الاسلامية أن نقرر أنها رسالة خالدة على الزمن البشرى ، حاملة مشاعل الهدى للانسانية كلها ، من التقى بها ، واستضاء بنورها ، أمن الزيغ والضلال ، وهدى الى الحق والى صراط مستقيم ، ذلك أن من أبرز معالم الرسالة الاسلامية التى انفردت بها دون غيرها من الرسالات السماوية ، هو رربط العقل بها ، وشده اليها ، وجعل أحكامها ، وتشريعاتها فى متناول كل عقل سليم ، بحيث لا تقصر عن تناولها عقول العامة ، ولا تتسامى عليها الخاصة ، بل أن العقل كلما اتسعت مداركه وكثرت معارفه ، عرف أين مكانه من هذا الجلال المهيب ، وهذا العلم المتدفق من بحر لا حدود له ، حين يقف بين يدى القرآن الكريم ، مرتلا سورة من سوره ، متدبرا آية من آياته .. كالشمس تراها كل عين ، وينتفع بضوئها كل حى .. وان اختلفت حظوظ العقول منها ، وتعددت مفاهيم الناس لها ..

من أجل هذا كانت رسالة الاسلام قائمة على طريق الخلود ، تلتقى بالانسان حيث كان فى كل زمان ومكان .. لأنها دعوة موجهة الى كل انسان ، توجيها مباشرا من الله تعالى اليه ، ليس بينه وبين الله أحد الا الرسول الذى تلقى الرسالة من ربه ، ثم تركها ميراثا مشاعا بين الناس جميعا ، من كل جنس ، ومن كل أمة ..

وشرط واحد اشترطه الاسلام لمن يتلقون عنه ، ويدينون به ، وهو أن يتلقوه ، وأن يأخذوا أحكامه وتعاليمه عن درس ، وبحث ،

وتمحيص واقتناع،فمن لميجد ـ بعد البحثوتقليب النظر ـ مايرضيه من هذا الدين ، فهو وما أراد ، فانه : ((**لا اكراه فى الدين .. قد تبين الرشد من الغى**)) (٢٥٦ : البقرة) .. فان الذى يقف ازاء الحق ، موقف الطالب له ، المخلص فى البحث عنه ، لابد أن يلتقى به يوما ، ان لم يكن اليوم ، ففى غد ، ما دام جادا فى الطلب ، مزودا بالرغبة الصادقة والنية الخالصة ..

والخلود الذى نعنيه هنا ، حين نصف الرسالة الاسلامية به . هو الوجود الحى الدائم ، القائم على الصحة والسلامة ، والخلو من الآفات والعلل ، التى تتسلط على الكائنات الحية وغير الحية فتفسد طبيعتها ، وتغير معالمها ، بحكم مرور الزمن وكرور الأيام والليالى عليها ، حيث تنال آفات الزمن ولحظاته ، من كل ما يلد من مواليـــد ..

فالخلود الذى توصف به بعض الآثار والأعمال التى تعمر طويلا ، هو معنى مجازى بالنسبة الى غيرها من الآثار والأعمال ، التى لا تعمر مثل عمرها .. أما الخلود الحق فهو الذى يخرج من سلطان الزمن خروجا تاما ، وهذا هو خلود الرسالة الاسلامية بخلود كتابها الذى هو كلمات الله رب العالمين ..

فالاسلام ـ فى اعتقادنا ـ وكما هو الواقع ـ هو الدين الذى يستأهل هذا الوصف كاملا على الحقيقة ، لا المجاز ، لأنه الدين الذى تمت به كلمة الله ، كما يقول سبحانه : ((**وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم**)) (١١٥ : الأنعام) .. وبهذا لا يمكن أن تنال منه يد الأحداث والأزمان ، ولا أن تلحق به عوارض الشيخوخة والهرم ، بل هو دائما فى شباب متألق متجدد، وفى سناء مشرق لا يغيب ..

وفى الاسلام حقيقة بارزة انفرد بها أيضا من بين اديان السماوية وغير السماوية جميعا ، وهى أنه الدين الوحيد الذى حمى نفسه حماية ذاتية مطلقة ، من أن يدخل على الحقائق التى ضمت عليها آياته وكلماته ما يبدل من أوضاعها أو يغير من صورها وأشكالها ، وذلك أنه جعل لنصوصه وحدها حق الحديث عنه ، والترجمة عن

مقاصده ووسائله ، دون أن يجعل لأحد دعوى يدعيها فيه ، بحجة انه موكل من قبل صاحب الشرع بكشف أسراره ، وفض خواتم مغالقه ، فليس لأحد — والأمر كذلك — أن يدعى هذه الدعوى فى مواجهة الشريعة الاسلامية ، اذ أن نصوصها — ونصوصها وحدها — هى الترجمان الناطق عنها ، حسب مواضعات اللغة التى نزل بها كتاب الشريعة ، وحسب مدلولاتها الصحيحة ، كما يتعامل بها أهلها بلسانهم ، نثرا وشعرا ، بحيث لايقبل لأحد قول فى هذه الشريعة ، اذا هو خرج عن مدلول الألفاظ والعبارات كما عهدها العرب ، وتعاملوا بها .. « **نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين** » (١٩٣ — ١٩٤ : الشعراء) فهذا هو لسان الشريعة ، لسان عربى مبين ، أى بين المعنى واضح الدلالة ، لكل من يحسن العربية ويفهم عنها ..

والقرآن الكريم الذى هو كتاب الدين الاسلامى ، ودستوره ، وان يكن كلام الله سبحانه وتعالى ، فانه لم يخرج بهذه الصفة عن متعارف الناس فى اللغة التى نزل بها .. وانه بغير هذا ما كان يمكن أن يكون معجزة الرسول القائمة أبد الدهر ، ولم تكن لتصح لهذه المعجزة دعوى التحدى الذى شهدت الدنيا كلها عجز كل ناطق بالعربية الى اليوم عن أن يدعى — ولو زورا وبهتانا — أنه قادر على أن يأتى بسورة من مثل هذا القرآن .. اذ لا متعلق لهذا التحدى الا اذا كان مما تنزع اليه نوازع القوم ، وتتطلع اليه هممهم ، وذلك لا يكون الا اذا كان المتحدى به مما يقع موقع الفهم ، والادراك لمواطن الروعة والجلال منه ..

فأصحاب اللسان العربى يرون المعجزة السماوية ماثلة لأعينهم واقعة فىعقولهم وقلوبهم،كلما نظر الناظر منهم فىآية من آيات الكتاب الكريم ، أو استمع الى تلاوة ما يتلى منه .. وهكذا يشهد الناس — كل الناس — فى كل زمان ومكان رسولا من عند الله قائما بينهم يدعوهم الى الله تعالى ، تظاهره فى دعوته معجزات خارقة يرونها فى كل آية من آياته .. يقول ابن خلدون «واعلم أن أعظم المعجزاتوأشرفها، وأوضحها دلالة ، القرآن الكريم ، المنزل على نبينا « محمد » صلى الله عليه وسلم .. فان الخوارق فى الغالب ، تقع مغايرة للوحى الذى يتلقاه النبى ، ثم يأتى بالمعجزة شاهدة على صدقه .. أما

القرآن ، فهو نفسه الوحى المدعى ، وهو الخارق المعجز ، فشاهده فى عينه ، ولا يفتقر الى دليل مغاير له ، كسائر معجزات الأنبياء مع الوحى ، فهو واضح الدلالة ، لاتحاد الدليل والمدلول فيه ! » (مقدمه ابن خلدون : ص ٩٢) .

وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : « **افمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه** » (١٧ : هود) .

وليس هذا شأن الرسالات السماوية التى حملها الأنبياء — عليهم السلام — الى أقوامهم ، فانها — وان تكن قد جاءت بلسان اقوامهم الذين أرسلوا اليهم — لم تحمل فى كيانها ، وفى محتوى كلماتها معجزة تشهد لها عند الناس بأنهامن عند الله ، ولهذا كان مع كل رسول الى جانب دعوته التى يدعو بها ، معجزة مادية ، يراها القوم رأى العين ، فيرون منها أمرا خارقا للعادة ، خارجا عن قدرة البشر ، فيقع عندهم أن رسولهم هذا متصل بقوة عليا ، هى التى يقول عنها الاله الذى يدعوهم الى الايمان به ، فيؤمن منهم من يؤمن من أهل البصيرة والحكمة ، وهم قليل ، ويعرض مكابرا من كان من أهل الضلالة والجهالة ، وهم كثير .. فكان مع نوح « السفينة » ومع ابراهيم « النار » ومع صالح « الناقة » ومع موسى « العصا » ومع عيسى « كلمته » !!

ونستخلص من هذا أمرين :

اولهما : أن مادة الرسالات السماوية — الا الاسلام — كانت عند أصحابها المخاطبين بها ، بالمنزلة التى دون منزلة المعجزة أو المعجزات المادية التى قدمها لهم رسولهم بين يدى رسالته فى مقام التصديق .. ومعنى هذا أن المعجزة المادية كانت هى المستأثرة بتفكيرهم ، المستولية على عقولهم ..

وثانيا : أن هذه المعجزات المادية ، كانت بنت ساعتها ، لا تكاد تظهر فى الأفق ، ولا يكاد يراها الذين يحضرون مولدها ، حتى تغيب الى الابد .. الأمر الذى لا يجعل منها حجة الا على الذين شهدوها بأنفسهم ، وفى حال قد دارت فيها رءوسهم ، بما غشيهم من ذهول ، ووجوم ، لما راعهم وبهرهم من جلال المعجزة التى يرونها رأى العين .

وثالثا : ان تلك المعجزات المــادية القاهرة التى كانت تقوم بين يدى الرسالات السماوية ، هى دليل على أن الانسانية التى كانت تخاطب بتلك الرسالات ، كانت فى دور لم تبلغ فيه الرشد بعد ، فلم تخاطب من الله تعالى خطابا يتجه الى عقولها اتجاها مباشرا ، بل كان هذا الخطاب مصحوبا بتلك الخوارق المادية التى تشبه وسائل الايضاح التى تستخدم فى تعليم الصغار القراءة والكتابة !

ورابعا : لا شــك أن هــذا التدبير فى مخاطبــة الناس برسالات السماء — قبل الرسالة المحمدية — عن طريق الحس أكثر من خطابهم عن طريق العقل — لا شك أن هذا التدبير مع قيامه على الحق ، والحكمة ، والمصلحة للناس ، لم يحل بين أصحاب هذه الرسالات وبين أن تقوم فيهم جماعات وطوائف تدعى لنفسها تأويل ما فى هذه الرسالات ، وفى كشف ما خفى عن الناس منها .. ثم شيئا فشيئا أصبحت هذه الدعوى حقا مقدسا ، تلقاه الناس منهم بالقبول والتسليم ، دون أن يعطو أنفسهم حق المراجعة أو الاعتراض ، ولو جاءت تلك التأويلات فى اتجاه مضاد لما تقضى به النصوص فى قطع وجزم .. وانه ليس أيسر من القول لتبرير هذا التعارض والتضاد ، بأن للنص ظاهرا غير مراد ، يخفى وراءه باطنــا هو المــراد ..

أما الرسالة الاسلامية ، فقد جعلت كلماتها فى أفواه أتباعها وفى عقولهم ، يتلونها ، ويقيمون فهمهم لها على ما تقضى به دلالة اللغة التى يتعاملون بها ، وهى حظ مشاع لهم جميعا ..

فكلمات القرآن الكريم التى تلتقى بالمسلمين وغير المسلمين ممن يفهمون اللغة العربية ، ويدركون دلالات ألفاظها ، ومعطيات تراكيبها — هذه الكلمات ، هى رسول قائم فيهم يبلغ رسالة الله اليهم بلسان عربى مبين ، يفهم عنه الناس ما يفهمون من منثور كلامهم ومنظومه ، وبهذا كانت رسالة الاسلام رسالة خالدة ، تلتقى بأجيال الناس جيلا بعد جيل ، دون أن يعوزها مترجم عنها ، ودون أن يحتاج الناظر فيها الى معجزة تشهد له أن هذا الكلام هو كلام الله ، ففى هذا الكلام ذاته ما يشهد بأنه كلام الله ، فان شك أحد ، فها هو ذا ميدان التجربة والاختبار فسيح بين يديه .. فان وجد فى اللغة العربية

منذ كان اللسان العربى الى يوم الناس هذا ، شيئا من منثور الكلا أو منظومه ، يستطيع أن يضعه ازاء أى آية أو آيات من كتاب الله ، ثم يثبت فى مكانه لحظة دون أن يفر استخذاء ، واستحياء — فليقل بعد هذا فى القرآن الكريم ما يشاء ..

وانظر لترى عجبا ..

لقد قامت فى محيط الاسلام دعوات غريبة ملتوية ، تريد أن تدعى على القرآن مثل هذه الدعوى ، التى يدعيها الرؤساء الدينيون فى الكتب السماوية الأخرى — فتجىء الى القرآن بأهوائها ، ومذاهبها، ومعتقداتها ، ثم تحملها عليه ، وتضيفها اليه ، بدعوى أن للقرآن ظاهرا وباطنا ، وأن ذلك الباطن محجوب الا عن جماعة أخذت هذا العلم وراثة عن النبى ، أو الهاما من الله — نقول ، قامت فى الاسلام مثل هذه الدعوات المنكرة ، كما عرف ذلك عن بعض غلاة الشيعة ، وعن جماعة اخوان الصفاء ، وعن بعض المتصوفة ، ولكن لم يكد صوتهم يرتفع بهذا الزور ، حتى تنكر لهم وجه الاسلام وانكرهم المسلمون ، ونبذوهم نبذ المارقين الملحدين ، وسرعان ما أنكرتهم الأرض ، فلم تجعل لهم مكانا مطمئنا فيها ، بل هم حيث كان لهم وجود ، فهو وجود صامت صمت أصحاب القبور !

وبهذا ظل الاسلام نقيا ، مبرأ من كل دخل ، محتفظا بكل سماته التى جاء عليها ، لم يتغير على الزمن وجهه ، ولم يتلون بلون الأحداث والأشخاص اناؤه ، ولقد اختلف المسلمون فرقا ، وتمزقوا شيعا ، ومع هذا فلم يختلفوا على حرف من كتاب الله ، ولم تقل فرقة أو شيعة أن هذه الآية كانت كذا ، أو دخل عليها كذا ، أو زاد عليها كذا ، على حين كثر الكذب والافتراء على رسول الله ، لأنه كلام بشر ! والقرآن كلام رب العالمين !

أما الرسالات الأخرى ، فشأنها غير هذا الشأن .. وذلك :

أولا : انها كانت موقوتة بزمانها ، ومكانها ، وحجة على من شهد معجزاتها المادية من القوم .. لأن المعجزة هى الحجة على المدعوين الى تلك الرسالة، ولا حجة اذا زايلت تلك المعجزة مكانها ، فلم يرها من جاء

بعدهم من الأجيال اللاحقة .. ولهذا كان يخلف على القوم نبى بعد نبى .. وكل نبى يؤدى دوره فى الجيل الذى ظهر فيه ..

وثانيا : الشريعة التى جاء بها موسى عليه السلام ، والتى كانت آخر شريعة فى بنى اسرائيل ، كانت دائما فى حاجة الى نبى يقوم الى جوارها ، ويأتى بالمعجزات المادية التى تمسك عليها حياتها جيلا بعد جيل .. ونذكر من هؤلاء الانبياء الذين جاءوا بعد موسى. داود ، وسليمان ، وأيوب ، والياس ، ويونس ، وزكريا ، ويحيى، وعيسى ، عليهم السلام .. كل منهم جاء الى القــوم بالمعجزة أو المعجزات المادية المتحدية .. فداود قد ألان الله له الحديد ، وسليمان، سخر الله له الجن : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات » وعلمه الله لغة الحيوان ، والطير، وجعل له الريح بساطا تحمله حيث يشاء .. وأيوب قد ابتلاه الله هذا الابتلاء العظيم فى جسده ، وأهله ، وماله ، ثم أعاد اليه العافية، والأهل والمال أضعافا مضاعفة .. ثم جاء عيسى عليه السلام ، فكانت معجزته خاتمة المعجزات المادية وأعظمها .. فيبرىء الأكمه والأبرص ، ويحيى الموتى ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا باذن الله — وحين ولد تكلم فى المهد ، ومن قبل أن يولد كان حمل أمه به عن غير اتصال برجل .. وهكذا تظاهرت المعجزات على شريعة موسى ، وانتصاب الأدلة المادية ، والشواهد المحسوسة بين يديها ومن خلفها ، بتلك المعجزات من الأنبياء الذين جاءوا من بعد موسى ، وكل نبى من هؤلاء الأنبياء وغيرهم ممن لم يذكرهم القرآن ، قد كانوا يدعون الى شريعة موسى ، ويدينون بها .. وتختتم هذه الشريعة بنبوة عيسى عليه السلام ، التى ولد فى حجرها وعمد وختن بأحكامها ، كما تذكر ذلك الأناجيل .. وكما تذكر أيضا قوله لبنى اسرائيل : « ما جئت لأنقص القاموس والأنبياء ، ولكن جئت لأكمل » .

وبقى بعد هذا أن نسأل :

لقد رفض بنو اسرائيل المسيح ، واتهموه بالكذب والافتراء على الله ، وقدموه للمحاكمة ، وحكموا عليه بالصلب ليموت تلك الميتة التى لا يدخل بها صاحبها ملكوت الله ، كما تقول التوارة : « ملعون من علق على خشبة » — أى خشبة الصلب !

ولقد آمن بالمسيح ملايين الناس ، وكلهم من غير بنى اسرائيل ، ولكنهم اتخذوا شريعة بنى اسرائيل — التى هى شريعة موسى — شريعة لهم ، لأنها شريعة المسيح الذى آمنوا به ..

وهنا نسأل :

هذه الشريعة التى يدين بها الاسرائيليون ، وقد كانت دائما فى حاجة الى نبى يجدد دعواتها ، ويبين مقاصدها ، ويصل عقول القوم وقلوبهم بها جيلا بعد جيل — هذه الشريعة ، وقد كان آخر عهد أنبيائهم بها عيسى عليه السلام ، الذى رفضوه ، كما رفضوا وقتلوا كثيراً من أنبيائهم قبله — أما كانت تحتاج الى نبى بعد سلسلة هؤلاء الأنبياء الذين تواردوا عليها ؟ ثم اذا كان لابد ان تنتهى تلك السلسلة الى غاية بنبى لا نبى بعده ، أفما كان من مقتضى الحكمة أن تكون معجزة هذا النبى معجزة خاتمة لا معجزة بعدها ، تغنى عن كل معجزة ، وتقوم فى مقام الاعجاز والتحدى بين يدى كل طالب لها على مدى الأزمان ؟ ذلك ما يقضى به العقل ، وتقتضيه الحكمة ، ثم كيف لا يكون هذا من حكمة الحكيم العليم رب العالمين ؟

ولقد كان من حكمة الحكيم العليم أن جاءت شريعة الاسلام ، شريعة خاتمة لشرع الله ، وجاءت معها معجزاتها محمولة بين يدى كلماتها ، مصاحبة لها حيث كانت ، فى أى مكان وزمان .. كما يقول تعالى : ((**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى .. أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**)) (١٣ : الشورى) .

أفليس ذلك دعوة الى من يدينون بشريعة موسى — من اسرائيلين وغير اسرائيلين — أن يدينوا بالاسلام ، وفيه شريعة موسى ووصايا ابراهيم وموسى وعيسى على تمامها وكمالها ؟

ونعم انها دعوة قائمة عليهم ، وحجة على من لا يستجيب لها من أهل الكتاب بعد أن دعاهم الله تعالى الى ذلك فى كتابه الكريم ، وأعلنهم بها رسول الله اعلانا مبينا الى يوم الدين ، فى قوله تعالى : ((**يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا**

من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير » (١٩ : المائدة) « يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، هيدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » (١٥ — ١٦ : المائدة) . . **«قل يأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما انزل اليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين »** (٦٨ : المائدة) **« يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ، يأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون »** (٧٠—٧١ : آل عمران) . . هذه دعوة الاسلام ، دعوةعامةللناس جميعا ، جامعة ما تفرق فى رسالات السماء فى كلمات معجزة ، يقوم منها شـــاهد بأنها كلمات الله . . وهذا هو دين رسول الله محمد صلوات الله وسلامه عليه ، ودين كل مؤمن : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون . . كلآمن بالله وملائكته ، وكتبهورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير » (٢٨٥ : البقـــرة) . .

فماذا ينكر المؤمنون يكتب الله ، ويرسل الله من أهل الكتاب ، من هذه الدعوة ؟ **« قل يأهل الكتاب هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون »** (٥٩ : المـــائدة) .

انها دعوة قائمة على طريق الحق ، والعدل ، يزكيها العقل ، ويدعو اليهـــا . .

« وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، قولوا آمنا بالله ، وما أنزل الينا ، وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون . . فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم فى شقاق » (١٣٥ — ١٣٧ : البقرة) . . صدق الله العظيم . .

الباب الخامس

الرسالة الخاتمة.. ومايقال عنها

الاسلام والمسلمون :

يعرف المسلمون من دينهم أنه الدين الذى كمل به دين الله ، وأن شريعته هى الشريعة التى ارتضاها الله سبحانه للناس جميعا ، على اختلاف أجناسهم ، وألوانهم ، وعلى امتداد أزمانهم ، وتعدد أوطانهم .. بهذا جاءت كلمات الله فى كتابه الكريم وفى آخر منازل من آياته ، خاصا بأحكام الشريعة وآدابها ، وذلك فى قوله تعالى : **« اليــوم أكملت لكم دينــكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لــكم الاسلام دينا »** (٣ : المائدة) .

ومن قبل هذا عرف المسلمون بدلالات موحية من آيات الله ، انهم بين يدى شريعة جامعة للناس جميعا عليها ، وأن رسولهم الذى ارسل اليهم ، ومن بينهم ، وبلسانهم ، ليس لهم وحدهم ، وأنه رسول الله الى عباد الله كلهم ، أسودهم ، وأبيضهم وأحمرهم ، وأنه ليس محدودا بحدود زمانه أو مكانه ، كما كان ذلك شأن الرسل الذين جاءوا من قبله .. فكلهم ــ صلوات الله عليهم ــ لم يخرجوا بدعوتهم عن حدود أوطانهم وأقوامهم ، وأن كل رسول كان خطابه الى قومه خاصة .. ابتداء من نوح ، الى عيسى ، عليهما السلام ، لا يخرج بخطابه أبدا عن حدود هذا النداء : « ياقوم » .

الرسل وحدود رسالاتهم :

فنوح ــ عليه السلام ــ يقول عنه الله تعالى : **« انا ارسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل ان ياتيهم عذاب اليم »** (١ : سورة نوح) .. وكان خطابه الى من أرسل اليهم مفتتحا بهذا النداء الموجه اليهم : **« قال يا قوم انى لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله واتقــوه وأطيعون ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم الى أجل مسمى ، أن أجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون »** (٢ ــ ٣ : نوح) وقد

لبث نوح فى قومه ألف سنة الا خمسين عاما ، يدعوهم الى الله ، كما يقول تعالى : **« ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما ، فأخذهم الطوفان ، وهم ظالمون »** (١٤ : العنكبوت) وحين استيأس نوح من قومه ، ضرع الى ربه — وقد اعذر اليهم ، وأقام الحجة عليهم — أن يأخذهم الله بالعذاب الذى انذروا به ، فيقول تعالى على لسانه : **« قال رب .. انى دعوت قومى ليلا ونهارا ، فلم يزدهم دعائى الا فرارا ، وانى كلما دعوتهم اتغفر لهم جعلوا اصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكبارا ، ثم انى دعوتهم جهارا ، ثم انى اعلنت لهم واسررت لهم اسرارا ، فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ، ويجعل لكم انهارا .. »** (٥ — ١٢ : نوح) ثم يمضى نوح فى تعداد ما كان منه الى قومه ، الى أن يقول : **« وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا »** (٢٦ — ٢٧ : نوح) .

ثم يرسل الله تعالى رسوله « هودا » عليه السلام الى قومه « عاد » يدعوهم الى الله ، فيقول سبحانه : **« والى عاد أخاهم هودا ، قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، ان أنتم الا مفترون »** (٥٠ : هود)

وبعد « هود » يجىء « صالح » الى قومه « ثمود » .. فيقول سبحانه : **« والى ثمود اخاهم صالحا ، قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ، ثم توبوا اليه ، ان ربى قريب مجيب »** (٦١ : هود)

ويجىء ابراهيم ابو الأنبياء — الى قومه ، رسولا من ربه اليهم : **« ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ، اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى انتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين »** (٥١ — ٥٤ : الأنبياء)

ثم يجىء « شعيب » الى قومه أهل مدين ، : **« والى مدين أخاهم شعيبا ، قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من الهغيره ، ولاتنقصوا المكيال والميزان ، انى أراكم بخير ، وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط »** (٨٤ : هود) .

والى بنى اسرائيل ا يرسل الله تعالى موسى يدعوهم الى الله ، ويخرجهم من ظلمات العبودية الى نور الحق والايمان ، فيقول تعالى : **« وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى اسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا »** (٢ : الاسراء) ويقول سبحانه : **« واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم »** (٦٠ : البقرة) .. ويقول جل شأنه : **« واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ، اتخذوه وكانوا ظالمين ، ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ، ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا ، قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه ، قال ابن أم ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ، ولا تجعلنى مع القوم الظالمين »** (١٥٠ : الأعراف) .

وقد أقام بنو اسرائيل من بعد موسى حول شريعتهم سورا ، حتى لا يدخل معهم أحد فيها ، ولا يدين بها الا من كان اسرائيليا .. فلما جاء الاسلام وجدهم على تلك الحال ، وكانت خطابات القرآن الى أتباع موسى توجه اليهم بهذا النداء : « يا بنى اسرائيل » .. كما يقول تعالى : **« يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم واياى فارهبون »** (٤٠ : البقرة) .. ولا يزال بنو اسرائيل الى يوم الناس هذا يتخذون من شريعة موسى نسبا جامعا لهم ، لا يرضون لغير الاسرائيلى أن يدين بتلك الشريعة .. وهكذا يظل بنو اسرائيل معزولين عن المجتمع الانسانى ، قومية نسب ، وشريعة دين ..

ومن بعد موسى ، جاء رسل كثيرون الى بنى اسرائيل ، ليقيموهم على شريعة موسى ، وكان المسيح ــ عليه السلام ــ آخر رسول

من رسل الله اليهم .. لم يدعهم الى شريعة جديدة ، وانما دعاهم الى مكارم الأخلاق التى هى روح تلك الشريعة ، وروح كل شريعة سماوية .. اذ كانوا قد تأولوا الشريعة على غير وجهها ، وأقاموها على غير صراتها المستقيم .. يقول الله تعالى على لسان المسيح : **« واذقال عيسى بنمريم ، يابنىاسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين »** (٦ : الصف) .. ويقول سبحانه عن المسيح : **« ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، ورسولا الى بنى اسرائيل »**(٤٨ — ٤٩ : آل عمران)

وفى الانجيل ، يقول المسيح : **« لا تظنـــوا أنى جئت لأنقض الناموس ، أو الأنبياء .. ماجئت لأنقض ، بل لأكمل ، فانى الحق أقول لكم : الى أن تزول السماء والأرض ، لا يزول حرف واحد او نقطة واحدة من الناموس ، حتى يكونالكل** (انجيــل متى : الاصحاح الخامس) ..

فالمسيح — كما نطق القرآن ، وكما تحدثت عنه الأناجيل ، هو رسول الى بنى اسرائيل .. يقول « متى » فى انجيله : « ثم خرج يسوع من هناك ، وانصرف الى نواحى صور وصيدا ، واذ امرأة كنعانية ، خارجة من تلك التخوم صرخت اليــه قائلة : ارحمنى يا سيد يا ابن داود .. ابنتى مجنونة جدا .. فلم يجبها بكلمة ، فتقدم تلاميذه وطلبوا اليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا ، فأجاب وقال : لم أرسل الا لخراف بيت اسرائيل الضالة .. فأتت وسجدت له قائلة : يا سيد أعنى ، فأجاب وقال : ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ، ويطرح للكلاب .. فقالت : نعم ياسيد ، والكلاب أيضا تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها .. حينئذ أجاب يسوع وقال لها : يا امرأة ، عظيم أيمانك ، ليكن لك كما تريدين ، فشفيت ابنتها من تلك الساعة » .. (انجيل متى : الاصحاح الخامس عشر) .. وفى انجيل متى ، يوصى المسيح تلاميذه الاثنى عشر قائلا : « الى طريق أمم لا تمضوا ، والى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى الى خراف بيت اسرائيل الضالة » (انجيل متى : الاصحاح العاشر) .

هكذا كانت دعوات الأنبياء والرسل ــ قبل الرسالة الاسلامية ــ محدودة فى زمانها ، محصورة فى مكانها ، لم تتعد اقوامهم ، ولم تتجاوز حدود أوطانهم ..

والديانتان السماويتان اللتان شهدتا عصر الاسلام ، والتقيتا به ، هما الموسوية والعيسوية .. وقد عرفنا أن دعوة النبيين الكريمين ــ موسى وعيسى عليهما السلام ــ كانت الى بنى اسرائيل خاصة ، كمانطق بذلك القرآن ، وكما بين ذلك الانجيل فيما استشهدنا به من بعض النصوص الواردة فى انجيل متى .. أما التوراة ، فان الحديث فيها عن بنى اسرائيل ، وعن خصوصيتهم بها ، أوضح واصرح .. ومما جاء فى التوراة :

« وكلم الرب موسى قائلا : كلم بنى اسرائيل ، وقل لهم ، أنا الرب الهكم .. مثل عمل أرض مصر التى سكنتم فيها ، ومثل عمل أرض كنعان التى أنا آت بكم اليها ، لا تعملوا ، وحسب فرائضهم لا تسلكوا » (سفر اللاوين : الاصحاح الثامن عشر) .

وفى الاصحاح الخامس والعشرين من سفر الخروج : « وكلم الرب موسى ، قائلا : كلم بنى اسرائيل أن يأخذوا من كل من يحثه قلبه تأخذون تقدمتى ، وهذه التقدمة التى تأخذونها منهم ، ذهب وفضة ونحاس » .

وهكذا كان ، كل ما فى التوراة من تشريع ، هو موجه الى بنى اسرائيل ، لايراد به غيرهم من الناس .. أنه تشريع مفصل على طبيعة هذه الجماعة ، لا يصلح الا لها .. ان هذه الشريعة هى دواء لأمراض وعلل سكنت فى كيان تلك الجماعة ، وأفسدت معالم الانسانية فيها .. وهيهات أن يصلح هذا الدواء لغير هذا الداء .

الرسالة الاسلامية وعمومها :

وعلى غير هذا الحصر المحدود فى جماعة بعينها ، أو الوقوف به على جنس من أجناس الناس ، أو قبيل من قبائلهم ــ جاءت دعوة الاسلام للناس جميعا ، يؤذن فيها رسول الله بأمر ربه فى

العالمين .. ومن هنا كانت أكثر خطابات القرآن للناس كلهم ، حيث يجمعهم مكان أو يظلهم زمان .. « **يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا** » (٣٣ : الفرقان) .. « **يايها الناس اتقوا ربكم .. ان زلزلة الساعة شىء عظيم** » (١ — الحج .. «**يايها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء ، وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله اندادا ، وانتم تعلمون ، وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين** » (٢١ — ٢٣ : البقرة) بهذا الخطاب العام للناس جميعا ، تجىء دعوة الرسالة الاسلامية متجهة الى الناس ، كل الناس .. كما يجىء رسولها مناديا فى الناس أنه رسول الله اليهم كلهم : « **قل يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا ، الذى له ملك السموات والأرض ، لا اله الا هو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الامى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون** » (١٥٨ : الاعراف) .. كذلك يجىء خطاب القرآن الى الانسان ، من حيث هو انسان ، يضم فى كيانه عناصر الانسانية كلها .. « **يايها الانسان ما غرك بربك الكريم ، الذى خلقك فسواك فعدلك فى اى صورة ما شاء ركبك** » (٦ — ٨ : الانفطار) « **يايها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه** » (٦ : الانشقاق) .

وهكذا تتكرر دعوة الاسلام فى القرآن على تلك الصورة العامة للناس جميعا ، لايتلبس بها شىء من خصوصية بامة دون امة ، أو بشعب دون شعب ، أو بجيل دون جيل ، فهى خير مطلق للناس جميعا ، ورحمة مرسلة من الله لعباد الله ، ينتفع بها كل من يتعرض لها ، ويمد يده اليها .. من قريب أو من بعيد ، حتى انها لتحتجب أضواؤها عن بصيرة من هو أقرب الأقرباء الى رسول الله ، عمه أبى طالب الذى وقف فى وجه قريش محاميا عن ابن أخيه عصبية لاديانة ، على حين يشرق بها قلب عبد أسود رقيق ، مثل عمار بن ياسر ، وأمه ، وأبيه .. وحتى ليستقبلها لأول يومها عبد مملوك لبعض سادة قريش ، هو بلال : وحتى ليروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وقد . سئل عن أول من بايعه على الاسلام — فقال :

« حر وعبد » والحر هو أبو بكر ، والعبد هو بلال ، وحتى ليكون لأحد الأرقاء الذين دخلوا فى هذا الدين وهو سلمان الفارسى ــ من الشرف والمكانة فى الاسلام ما لم يكن لغيره من الأحرار الذين سبقوا الى الاسلام ، اذ يضيفه الرسول ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ الى آل البيت النبوى ، فيقول عنه : « سلمان منا آل البيت » !

الرحمة العامة :

والرحمة لا تكون عامة الا اذا وسعت الناس جميعا ، وفتحت أبوابها فى يسر لكل من يشاء أن يأخذ حظه منها .. هكذا رحمة الله فى عمومها وشمولها ، انها أشبه بالهواء يجده كل من يتنفسه ، ويجد فى رئته مكانا له ، أو كضوء الشمس تستضىء به كل عين لم يصبها عمى ..

وقبل أن نلتمس الأدلة والشواهد المادية على عموم هذه الرحمة ، التى تحملها الرسالة الاسلامية ، نجد القرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة ، ويعلنها فى الناس ، فيقول تعالى عن الرسول الكريم : **« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين »** (١٠٧ : الأنبياء) .

ودعوى الاسلام بأنه رحمة عامة ، لا تستقيم الا اذا قبلها الناس عن رضى ، وجاءوا اليها عن طواعية واختيار .. فان صاحبها القهر والقسر ، لم تكن رحمة تتفتح لها القلوب ، وتستجيب لها النفوس ، وتتفاعل معها المشاعر ، وتتأثر بها الوجدانات .. ومن هنا كانت دعوة الاسلام قائمة على هذا المبدأ العام **« لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها »** (٢٥٥ : البقرة) . وبهذا يخاطب الله تعالى نبيه الكريم بقوله : **« وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر »** (٢٩ : الكهف) .. وبقوله : **« أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »** (٩٩ : يونس) .. وبقوله **« فذكر انما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر »** (٢١ــ٢٢ : الغاشية) .

فاذا نظرنا فى أحكام الشريعة التى حملها الاسلام ، نجدها قائمة على أسس تتسع للناس كلهم ، فلا تقصر عنها أيدى العامة ،

ولا تجاوزها أيدى الخاصة .. كما أنها تقيم الناس جميعا على ميزان واحد فى الحقوق والواجبات ، وفى الثواب والعقاب ، فمن سمات هذه الشريعة :

أولا : يسرها ، فلا شيء فيها من العنت أو الحرج.. والله سبحانه وتعالى يقول : **« هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل ، وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتـكونوا شهداء على الناس »** (٧٨ : الحج) ويقول سبحانه : **« وكذلك جعلناكم أمـة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليـكم شهيدا »** (١٤٣ : البقـرة) .

والوسط من كل شيء هو مركز الاعتدال فيه ، ومكان القلب منـه ..

والشريعة الوسط بين الشرائع ، هى التى لا غلو فيها ، يعنت الناس ، ويرهقهم ، وهذا لا يكون من الله تعالى الا عقابا وبلاء ، كما كان ذلك فى شريعة بنى اسرائيل ، التى أخذ الله تعالى فيها بنى اسرائيل بالبأساء والضراء ، كما يقول تعالى **« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل ، واعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما »** (١٦٠ — ١٦١ : النساء) وكما يقول سبحانه : **« وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ، ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون »** (١٤٦ : الأنعام) ولهذا كان من دعاء المؤمنين الذى علمهم الله تعالى أن يدعوه به فى القرآن الكريم ، هو الا ينزل بهم ما نزل بالأمم السابقة من أحكام تأديبية زاجرة : **« ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به »** (٢٨٦ : البقرة) .

وثانيا : الانتصاف للمظلوم من الظالم ، وجعل ذلك حقا مشاعا للناس جميعا ، لا فرق فى ذلك بين عامة وخاصة ، ولا بين ملك

وسوقة .. يقول الله تعالى : **« كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شيء ، فاتباع بالمعروف ، واداء اليه باحسان »** (١٨٧ : البقرة) . فقد أبطل الاسلام بهذا التشريع ما كان جاريا بين العرب من تفاضل بينهم فى الدماء ، فلا يسوى دم أبناء قبيلة تعتز بقوتها بدم أبناء قبيلة لا تعدلها فى القوة .. فاذا قتل عبد من قبيلة قوية بيد قبيلة ضعيفة ، قتل به حر من أبنائها ، واذا قتلت امرأة . قتل بها رجل، بل وأكثر من هذا ، فكانوا يقتلون بسيد القبيلة عشرات ، أو مئات من القبيلة القاتلة ، كما حدث ذلك بين قبيلتى بكر وتغلب ، حين قتلت بكر ، كليب بن وائل التغلبى فأبى أخوه مهلهل الا أن يمعن فى بكر قتلا ، حتى كادت تفنى القبيلتان فى حرب امتدت نحو أربعين عاما ، كما يقول الرواة ..

وكذلك الشأن فى الحدود كلها ، انها متى ثبتت الجريمة ، وجب اقامة الحد على مرتكبها ، أيا كان مكانه فى المجتمع .. وحديث المرأة المخزومية التى ثبتت عليها جريمة السرقة فى عهد النبى أشهر من أن يدل عليه .. فلما أراد النبى قطع يدها ، فزع قومها ، وكانوا من سادة قريش وأشرافها ، فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأكثر من شافع يشفع لها ، فغضب رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ وأنكر فى شدة على كل من جاء مستشفعا ، بقوله : « أتشفع فى حد من حدود الله ؟ » ثم دعا الرسول الناس ، وخطبهم قائلا : « أيها الناس ، انما أهلك من كان قبلكم ، أنهم كانوا اذا سرق الشريف فيهم تركوه ، واذا سرق الضعيف فيهم أقاموا الحد عليه ، والذى نفسى بيده ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

هذه لمحات من شريعة الاسلام ، تكشف لكل منصف ، طالب للحق ، عن حكمة الحكيم العليم فى أن جعل سبحانه تلك الشريعة هى الخاتمة للشرائع السماوية والجامعة لفضائلها ، والمكملة لها .. .. ونذكر هنا كلمة السيد المسيح ، التى أشرنا اليها من قبل نقلا من انجيل متى ، والتى يقول فيها : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس والأنبياء ، ما جئت لأنقض ، بل لأكمل .. فانى الحق أقول لكم ، الى أن تزول السماء والأرض ، لا يزول حرف واحد ،

أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل ! » — نذكر هذا ، فنذكر معه قول الله تعالى فى كتابه الكريم : « **وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم** » (١١٥ : الأنعام) .. فقوله تعالى : « **وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا** » هو الذى أشار اليه السيد المسيح فى قوله : « لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس ، حتى يكون الكل » .. فالكل هو الذى تمت به شريعة الله ، والذى أشار اليه قوله تعالى فى آخر ما نزل من القرآن الكريم : « **اليـــوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا** » (٣ : المائدة) .. وهكذا تجىء آيات الكتاب الكريم مصدقة لمـــا سبق من كتب الله تعالى ، كما يقول سبحانه : « **وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق** » (٤٨ : المائدة) .

ولهذا كان من ايمان المؤمنين بالرسالة الاسلامية ، أن يؤمنوا بما بعث الله تعالى من رسل ، وبما أنزل من كتب ، ذلك الايمان الذى يقتضيه ختم الأنبياء بنبيهم ، وختم الرسالات برسالتهم ، اذ كان نبى الاسلام جامعة الأنبياء ، واذ كانت رســـالة الاسلام جامعة الرسالات .. وفى هذا يقول الله تعالى : « **قولوا آمنا بالله وماأنزل الينا ، ومـــا أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ، ويعقـــوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهـــم لانفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون ، فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما هم فى شقاق** » (١٣٦ — ١٣٧ : البقرة) .. فهذا ميثاق الله تعالى مع أنبيائه ورسله جميعا ، يؤمن لاحقهم بسابقهم ، كما يؤمن سابقهم بلاحقهم ايمان غيب ، قائم على أن كل رسول مرسل من عند الله ، انما يحمل من الحق مثل ما حمل صاحبه ، فهم جميعا قائمون على دعوة واحدة ، وعلى طريق واحد ، يبدأ كما يبدأ البنيان ، يرتفع شيئا فشيئا ، حتى يبلغ غايته ، وتكتمل صورته .. يقول النبى الكريم : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله الا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ، ويتعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » (رواه البخارى ومسلم) .

ونخلص من هذا الى القول بأن الرسالة الاسلامية قد حملت فى مضامينها من تشريعات واحكام ، ما يسع الانسانية كلها فى أمكنتها وأزمانها ، وفى أدنى مستوياتها وأعلاها ، بحيث ترتفع بالأولى ولا تهبط بالأعلى ، وبحيث تمسك على الانسان انسانيته ، وتنمى جوانب الخير فيه .

ففى الانسان ــ كل انسان ــ فطرة نازعة الى الحق والخير ، متطلعة الى آفاق مشرقة نيرة ، أشبه بالبذرة السليمة ، المضمر فى كيانها شجرة باسقة ، أو زهرة ناضرة ، اذا صادفت مفرشا ملائما لها ، عملت جاهدة على أن تخترق ظــلام التراب المشتمل عليها ، لتطل الى عالم النور ، وتتحرك فى محيط الهواء الطلق ، حتى تحقق وجودها ، وتخرج خبأها .

والفطرة المركوزة فى الانسان ، كثيرا ما تعترضها أمور تفسدها ، أو تغير طبيعتها ، أو تجمد حركتها .. فتحتاج حينئذ ــ لكى تعود الى الصحة والسلامة ــ الى دواء سماوى يعيد اليها وجودها ، ويكشف عنها ما ألم بها من علل .

ومن هنا كانت الشريعة الاسلامية شريعة عامة للانسانية ، اذ كانت شريعة قائمة على الفطرة ، متجاوبة معها ، كما يشير الى ذلك قوله تعالى : « **فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون** » (٣٠ : الروم) .. فأى أمر من هذه الشريعة لا يجرى مع الفطرة الانسانية السليمة ؟ وأى حكم من أحكامها ، لا تقبله تلك الفطرة ؟

فليعرض أى انسان ، ســوى الخلق ، أى حكم من أحكام الاسلام ، وأية دعوة من دعواته على عقله ، وليمتحنه بكل ما يملك من وسائل الامتحان ، وليدخل فى تجربة مع أى حكم أو أية دعوة مما جاء به الاسلام ودعا اليه ، وأنه لواجد أنه انما يعيش مع نفسه فى أحسن أحوالها ، وفى أصفى مواردها ، وأضوأ لحظاتها .

ومن هنا كانت دعوة الاسلام قائمة على الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .. هكذا على الاطلاق لكل معروف ، ولكل منكر ، من غير قيود أو حدود ، الا ما تقيمه النفس الانسانية السليمة من قيود أو حدود .. اذ المعروف ، دعوة كل فطرة ، والمنكر ، منكر فى كل فطرة .. وانه لهيهات أن يكون فى الناس من لايعرف المعروف وتهش له نفسه ، وينكر المنكر وينقبض له صدره ، وان كان قد غلبه هواه فركب المنكر ، وجانب المعروف ! وفى عالم المجرمين والمنحرفين قلوب تهفو الى الفضيلة ، ونفوس تتشهى الاستقامة .. وما أكثر تلك القلوب وهذه النفوس ، وما أكثر ما يطرقها من آلام ، ويطوف بها من هموم ، ولكنها أضعف من أن تخرج مما هى فيه ، وأعجز من أن تنال ما تشتهى وتبلغ ما تريد !!

وليست دعوة الاسلام ، الا عرضا كاشفا ، وبيانا مبينا لما تدعو اليه الفطرة الانسانية ، والا تصريحا لما تكنه سريرتها ، ويضمره ضميرها .. فاذا التقت دعوة الاسلام مع الانسان ، فانما تلتقى به فى أعمق أعماقه ، وفى الصميم من فطرته .. ومن هنا كانت أمة الاسلام خير أمة أخرجت للناس ، لأنها بايمانها كشفت عن الانسانية ، وأخرجت ما استكن فى فطرتها ، وما أودع فى ضميرها .. وفى هذا يقول الله تعالى : **« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله »** (١١٠ : آل عمران) .. وهنا نلحظ أن الايمان بالله ، قد جاء نتيجة لما فى كيان الانسان من قبول للمعروف ، واعراض عن المنكر ، الأمر الذى قاده الى الايمان بالله ، والتعرف على خالقه .. وذلك هو البر ، الذى أشار اليه الرسول الكريم فى قوله : « البر ما اطمأنت اليه النفس واطمأن اليه القلب ، والاثم ما حاك فى النفس ، وتردد فى الصدر ، وان أفتاك الناس وأفتوك » ..

فأى تكريم للانسان بعد هذا التكريم ، وأى منزلة للانسان أرفع من هذه المنزلة ، وأى دعوة له أعدل من هذه الدعوة التى تجعل الى ضميره الفصل فيما يرضى أو يسخط من أمور ، وفيما يأخذ أو يدع من خير أو شر ؟

ولكنها عين السخط !!

نعم ، ولكنها عين العداوة للاسلام ، ولأهل الاسلام ، لا ترى فى دخان حقدها المتصاعد من الصدور الا وجها شائها لشريعة هذا الدين السمحة ، والا صورة مقلوبة لحقائقه النيرة ،، والا بلاء ونقمة للبشرية ، من آثار رحمته المبسوطة للناس جميعا .

وبحسبنا أن نشير هنا الى فريتين من تلك المفتريات الكثيرة ، التى يعلقها أعداء هذا الدين فى عنق الاسلام ، ويدينونه بها ، ويحكمون عليه بما شاءت لهم أهواؤهم فيه ، ونقمتهم عليه ، وكراهيتهم له ..

وهاتان الفريتان هما : وضع الرقيق فى الاسلام ، والسيف الذى وضعه الاسلام على رقاب مخالفيه !!

أولا : الرقيق فى الاسلام

تتخذ الجبهة المعادية للاسلام ، من مستعمرين وملحدين من الرق سلاحا تشهره دائما فى وجه الاسلام ، وبخاصة كلما رأت هذه الجبهة شعاعة من شعاعات هذا الدين ، تنفذ منه الى مواطن جديدة ، وتدخل بالهدى ودين الحق ، فى قلوب الوثنيين واللادينيين. عندئذ يجن جنون هذه الطوائف المجتمعة على حرب الاسلام ، المتحالفة على الوقوف فى سبيله ، الباذلة فى سبيل ذلك الأموال بغير حساب ، والجهود بلا حدود .

وقد كثر فى السنوات الأخيرة الحديث عن الرقيق الذى انتهى أمره ، وطويت صفحته فى صورته القديمة المعروفة ، التى كانت تتملك فيها رقاب الأفراد من جوار وعبيد ، ينادى عليهم فى الأسواق، ويباعون بيع الدواب ، وينتقلون من يد الى يد كما تنقل السلع .. هذا هو الرقيق الذى طويت صفحته ، وان كان قد استبدل به نوع آخر من الرق ، اشنع شناعة ، واشأم ما عانته الانسانية فى تاريخها ، وهو استرقاق الشعوب واستغلالها ، وامتهان انسانيتها ، فى الاستعمار الأبيض للشعوب السوداء أو السمراء ، فى افريقية وآسيا !! ولا زالت شواهده قائمة فى جنوب أفريقيا ، وفى تنزانيا .

والحديث عن الرق الذى كان يسود العالم عند ظهور الاسلام ، انما يراد باثارته فى هذه الأيام ، توجيه حملة مسمومة من التضليل، والخداع ، فى محيط تلك الشعوب التى شعر المستعمرون والملحدون أن الاسلام قد أخذ طريقه اليها ، وأن أبناء هذه الشعوب قد جعلوا يخلعون ثياب الوثنية ، ليدخلوا فى دين الله .

فمنذ تحررت أوطان الافريقيين فى السنوات الأخيرة من الاستعمار ، أخذت الحواجز التى كانت تحجز الناس هناك عن الاسلام ، والتى كان يشد بناءها المستعمرون والملحدون — أخذت تلك الحواجز تتداعى وتنهار ، ولم تجد اليد التى كانت تقيمها وتسندها من جيوش الاستعمار ، وسياسة المستعمرين .. وكان لابد أن تلتمس تلك الجبهات المعادية للاسلام حواجز أخرى ، تعزل بها الافريقيين عن الاسلام ، عوضا عن تلك الحواجز التى تداعت وتهدمت .. ولم يكن من الممكن أن يعاد — علنا — فتح هذه القارة واستعمارها من جديد .. واذن فلابد من اقامة حواجز نفسية وروحية ، يمكن أن تتدسس الى نفوس الافريقيين ، وتقيم بينهم وبين الاسـلام عداوات تثيرها أحداث مختلقة مزيفة من التاريخ ، يغذيها كذب لئيم ، وافتراء خسيس على الشريعة الاسـلامية ، وموقفها من الرقيق ، وخاصة فى افريقية التى كانت مزرعة خصبة له ، ومنجما للثراء ، يتهالك عليه المغامرون وطلاب المال من كل أفق ..

ونختصر الحديث ، فلا نذهب به بعيدا ، ولا نتتبع أحاديث القوم ومفترياتهم على الاسلام منذ بـدأ يدخل أفريقية ، ونكتفى بآخر كتاب ظهر حديثا تحت عنوان : « الاسلام فى أثيوبيا » !!

يقول هذا الكتاب فى احدى فقراته :

« وتجارة الرقيق ، وماتدره من أرباح تفوق حد التصور ، تغرى كثيرين على احترافها ، ولهذا اشتغل بها عـدد كثير من العرب (كذا) .. فيمكننا اذن أن نتصور العدد الكثير من العرب الذى اشتغل بهذه التجارة ، وكون المراكز التجارية الكبيرة والصغيرة ، واستقر فى هذه المراكز المنتشرة بين قرى شرق افريقية ، صغيرها ، وكبيرها !! » ..

هكذا يحصر مؤلف هذا الكتاب تجارة الرقيق فى العالم كله فى افريقية ، ثم يحصرها فى العرب .. كأن الرقيق لم يكن يسود العالم كله ، فى أوربا ، وآسيا ، وأمريكا .. وكأن العرب وحدهم هم أصل البلاء ، ومصدر هذه المحنة التى ابتلى هؤلاء الأفريقيون ، وشقى بها آباؤهم وأوطانهم أجيالا بعد أجيال !!

ولو وقف الأمر عند هذا الحـــد ، لكان فى باب العذر متسع للمؤلف ، ولقلنا انها زلة جاءت عن حسن النية ، ومن وراء القصد. ولكن المؤلف يأبى الا أن يطرد حسن النية ، ويقطع جميع احتمالاتها فى هذا الموقف ، فيجىء سافرا بما يريد أن يرمى به الاسلام ، ويكيد له ، فى هذا المقام .. فيقول :

« ولكن الاسلام وحد بين العرب ، وحد من خصوماتهم ، وأوقف غزواتهم التى كانوا يشنونها على بعضهم ، كما حرم أن يسترق مسلم مسلما ..

« وبذلك نقص مورد من موارد الرقيق الذى كان يعتمد عليه العرب فى حراسة قوافلهم ، وزراعة أرضهم وخدمتهم ..

« فلابد اذن من تعويض هذا المورد الذى قطعه عنهم اسلامهم ! »

والى هنا ، والكلام يبدو ، وكأنه لا يهدف الى غاية سوى نقل وقائع من صحف التاريخ ، لمن يهمه أن يقرأ شيئا من تلك الصحف .

ولكن المؤلف يفضح نفسه ، ويكشف عن الغاية المنكرة التى يتغياها من هذا العرض الخبيث ، فيقول : « وليس هناك من مكان يستطيع أن يسد هذا النقص سوى الساحل الافريقى للبحر الأحمر، وما يسكنه من مورد لا ينقطع من شعوب سوداء ! » .

هذا هو بيت القصـــيد ـــ كما يقولون ـــ وهـــو ما قصد اليه المؤلف من تسويد هذه الصفحات ، ودمغها بالكذب والدس للوقيعة بين المسلمين ، وبين الافريقيين ، الذين يريدون اعتناق الاسلام ، من غير دعوة من أهله ، وانما تدعوهم اليه سماحته ، وعالميته واخوته الجامعة للانسانية كلها فى رحابه !

الاسلام ، بما كان منه من توحيد العرب ، ورفع أيدى بعضهم عن بعض ، وبرفع يد المسلم عن استرقاق المسلم — قد سد بهذا منافذ الرزق كلها على العرب ، وفتح لهم منفذا واحدا على ساحل البحر الأحمر ، وما يسكنه من موارد لا تنقطع من شعوب السودان! فافريقية اذن هى السماء التي تمطر ذهبا وفضه ، من عبيد واماء للعرب ، يسترقون أهلها ، ويلغون فى دمائهم وأعراضهم !!

واذن فليحذر الافريقيون العرب ، وما مع العرب من دين . اذ ليس هذا الدين الا مصيدة للافريقيين ، اذا وقعوا فى شباكها وقعوا فى الرق والاستعباد ، وأصبحوا لقمة سائغة للعرب ، كما فعلوا بآبائهم وأجدادهم من قبل !!

ثم مالنا نستنتج ونتأول ، وكلام المؤلف فى هذا صريح ، لا يحتاج الى بيان ؟

يقول المؤلف ، معقبا على كلامه السابق :

« فلابد اذن من أن تنشط تجارة الرقيق بعد الاسلام ، عما كانت قبله ، وأن يشتغل بها عدد كبير ، وأن يحتاج الى عدد ضخم من الأعوان والمعاونين !! » .

واذن فدعوة الاسلام هى دعوة الى استرقاق الأحرار ، ورسالته رسالة تحمل العبودية والاذلال للعباد .. واذن فليعلم الافريقيون هذا ، وقد جاءهم الناصح الأمين منبها ومحذرا من هذا الخطر الداهم ، وقد أعذر من أنذر !!

هذه نفثة من نفثات المغيظين الموتورين من الاسلام ، يلقون بها فى موارد الاسلام الطيبة السائغة ، حتى يتحاشاها الناس ، ويزورون عنها ، ويزوون وجوههم عن جهتها ..

وندع هذا الزور من القول ، وهذا السقط من الكلام ، وتلك السفاهة المتطاولة على الشمس ، ترجمها بالحصا ، لتغرب من مشرقها !!

وننظر فى القضية من أصلها ، ونستدعى لها التاريخ شاهدا !

الاسلام والرق :

ونسأل : هل كان العرب هم المجتمع الوحيد فى هذا العالم الذى استرق الانسان ، أو أوجد نظام الرقيق ، فى الجاهلية أو الاسلام؟

ثم هل كانت شريعة الاسلام شريعة تزكى الرق ، وتعمل على انتشاره وذيوعه ؟

وقد أشرنا من قبل الى دعوة الاسلام ، وكيف أن كان أول الداخلين فيها والمستظلين بظلها هم الأرقاء . وأن من هؤلاء الأرقاء من بلغ بهم الاسلام منازل العزة والسيادة ، فكانوا حكاما وأمراء فى دولة الاسلام ، بل وكان منهم من نال شرف الانتماء الى آل بيت رسول الله ، مما لم ينله أحد من سادة قريش والسابقين الى الاسلام ، كأبى بكر ، وعمر وعثمان ، الذين قاموا على الخلافة بعد وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، الأمر الذى كان « لسلمان » الذى قال فيه الرسول الكريم : « سلمان منا آل البيت !! » .

واذا كان الرق صورة من صور البغى والتسلط من الانسان على الانسان ، والعدوان من القوى على الضعيف — فلا نعدو الحق اذا قلنا انه صحب الانسانية منذ كان لآدم ولد على ظهر هذه الأرض .. وفيما حدث بين أول أخوين فى الدنيا — قابيل وهابيل من عدوان أحدهما على الآخر ، ومحاولة انتزاع ما فى يده ، ظلما وحسدا — فى هذا الحدث الذى انتهى بسفك أول دم بشرى على هذه الأرض ، شىء أكثر من الرق ، الذى يؤثره بعض الناس على الموت !!

ثم تمضى الحياة بأبناء آدم ، وفى كفتى ميزانها الأقوياء والضعفاء ، والأشرار والأخيار ، والذئاب والحملان .. واذا أفراد ، وجماعات ، وشعوب ، وأمم ، تستعبد وتسترق .. ويكفى شاهدا ماثلا لهذا هذه الرقعة الواسعة من العالم التى وقعت فريسة فى فم الاستعمار ، والتى استبيحت فيها الدماء والأموال ، والأعراض ، بلا حساب .. بل ويكفى فى هذا ما يقع تحت سمع العالم المتحضر وبصره اليوم ، من استرقاق واستعباد لزنرج امريكا ، التى تزعم لنفسها قيادة موكب الحضارة والمدنية فى هذا العصر !!

فاذا نحن تركنا هذا الحاضر الماثل ، وقلبنا صحف التاريخ ، رأينا نظام الطبقات ، ذلك النظام الذى فرض على كل طبقة فى المجتمع الواحد وضعا لا تخرج عنه ، ولا تتجاوز حدوده ، يتوارثه الآباء عن الأبناء ، جيلا بعد جيل ، ذلك النظام الذى يعد الرق بالنسبة له رحمة ، اذ لا يعدم الرقيق أملا يراوده فى أن يكون حرا فى يوم من الأيام ، فان ضاق به هذا الأمل فى حياته ، لم يضق على الأجيال المتعاقبة من نسله !!

ونستدعى لهذا شاهدا من أوربا ، ومن أقدم وأعرق حضارة فيها ، من أثينا وروما .. قبل الميلاد ، وقبل الاسلام بقرون !

ولاشك أن « أرسطو » هو صاحب الدور الأول فى بناء العقل الأوربى ، قديما وحديثا ، وعليه تتلمذ الفلاسفة والمصلحون الذين أقاموا دعامة الحضارة الأوربية فى قديمها وحديثها ..

وعلى هذا ، فاننا سنكتفى بعرض رأى « أرسطو » فى بناء المجتمع الانسانى ، وتمايز أفراده تمايزا ، يجعل من بعض الناس سادة بالطبيعة ، وبأصل الخلقة ، كما يجعل بعضهم عبيدا بالطبيعة وبأصل الخلقة أيضا !!

يقول « أرسطو » :

« ينبغى الآن أن ينظر ، أيوجد أناس جعلهم الطبع كذلك — أى عبيدا — أم لا يوجد البتة ؟ وفى حق من — أيا كان — يصير عدلا ونافعا أن يكون عبدا ، أم أن كل استرقاق هو مضاد للطبع ؟

ويجيب أرسطو على هذه التساؤل بقوله :

« العقل والواقعيات ، يمكن أن تحل مع اليسر ، هذه المسائل !

« فالأمر والطاعة ، ليسا شيئين ضروريين وحسب ، بل هما أيضا نافعان كل النفع !!

« بعض الكائنات منذ الولادة ، مخصوص بعضها للطاعة ، والآخر للامرة ، رلو على درجات وفروق شديدة التخالف بين هؤلاء وهؤلاء !!

ثم يمضى « أرسطو » قائلا :

« هذان العنصران — الطاعة والامرة ، توجدان فى كل مجموع مكون من عدة أشياء ، بالغة نتيجة عامة ، منفصلة تلك الأشياء ، كانت أو متصلة ..

« هذا وضع فرضه الطبع على كل الكائنات الحية ، بل ربما أمكن أن يكشف بعض آثار لهذا المبدأ ، حتى فى الأشـــياء التى بلا حياة !!

ويمضى « أرسطو » فى شرح هذه القضية ، وفى تقديم الأدلة المنطقية بين يديها .. فيقول :

« بديهيا .. الموجود الحى ، هو مركب من روح ومن جسد .. كان أحدهما ليأمر ، والآخر ليطيع .. !!

« تلك هى — على الأقل — ارادة الطبع ، التى يهم أن تدرس فى الكائنات العليا ، على حسب قوانينه المرتبة ، لا فى الكائنات الدنيـــا ..

« وان سلطان النفس هذا بين فى الانسان الكامل ، سليم العقل والبدن ، وهو وحده الذى ينبغى أن نختبر ذلك فيه ..

« أما فى الفاسدين من الناس ، أو المستعدين للفساد ، فان الجسم أحيانا يتسلط على النفس ، ذلك أن نموهم غير المرتب ، هو ضد الطبع تماما !

« أكرر ، أنه ينبغى اذن أن يعرف — بادىء الأمر — أن فى الكائن الحى وجودا ذا سلطة تشبه سلطة سيد حاكم معا : النفس تتسلط على البدن ، كسيد على عبده ، والعقل مع الغريزة ، كحاكم ، كملك !!

« واذن فبديهى انه لا يستطاع انكار ان يكون من الطبيعى ، ومن الخير للجسم ، أن يطيع النفس ، وللجزء الحساس من ذاتنا أن

يطيع العقل والجزء العاقل ، وان المساواة ، أو انقلاب السلطة بين هذه العناصر المختلفة يكون شراً للجميع !!

« والحال كذلك بين الانسان ، وسائر الحيوانات .. المستأنسة احسن من المتوحشة ، وأن تكون خاضعة للانسان ، فتلك مزية كبرى لها (كذا) من حيث أمنها نفسه .. ومنجهة أخرى ، فان الرابطة بين الجنسين على هذا النحو .. فان أحدهما أرقى من الآخر .. ذلك كان ليحكم ، والآخر كان ليطيع !! » .

واذا يبلغ الفيلسوف من منطقة الى هذا الحـــد ، يجىء الى صميم القضية التى يعالجها ، فيقول :

« ذلك هو أيضا القانون العام ، الذى يجب ضرورة أن يسود بين الناس ، فمتى كان المرء احط من أمثاله فى الطبع واصل الخلقة، كما يكون الجسم بالقياس الى النفس ، والبهيمة الى الانسان — كان هو الرقيق ، بالطبع !

« على ان منفعة العبيد ، ومنفعة الحيوانات المستأنسة ، كلها شىء واحد ، فان هؤلاء وهؤلاء يساعدوننا بقواهم المادية فى قضاء حاجات المعيشة .

« ومهما يكن من شىء ، فبين أن البعض هم بالطبع أحرار ، والآخرين هم بالطبع عبيد ، وأن الرق فى حق هـــؤلاء ، نافع ، بمقدار ما هو عادل !!

« يكون المرء سيدا ، ليس — البتة — لأنه يعرف أن يحكم ، بل لأن له طبعا ما ، ويكون الانسان عبدا ، أو رجلا بميزات متشابهة كذلك !

وينهى الفيلسوف القضية بهذا الحكم القاطع ، فيقول :

« يمكن بالبديهة اذن أن نسمو بهذه المناقشة ، ونقرر : أنه يوجد بفعل الطبع عبيد ، واناس أحرار .. وأن العبد ، هو جزء السيد ، وانه كجزء حى من جسمه ، وان يكن منفصلا عنه..كذلك الوضع

بين السيد والعبد ، ما دامت الطبيعة هى التى صنعتهما كليهما !! »
(انظر فى هذا : كتاب السياسة ، لأرسطو ، ترجمة ، أحمد لطفى السيد ، الباب الثانى) .

ولا نريد أن نناقش رأى « أرسطو » هذا ، وما فيه من عدوان صارخ على الفطرة الانسانية ، وانما يكفينا أن نأخذ منه الشاهد على الحياة الانسانية ، وتقلب أحوال الناس فيها ، وقيام صور واضحة صريحة من الفوارق بين الناس والناس ، بحيث أمكن أن تتشكل من هذه الظاهرة قضية ، يعالجها العقل ، بل وتبنى عليها الحياة العقلية ، عند أكبر فلاسفة شهدتهم الحياة ! .

وعلى هذا ، فانه اذا كان فى وسع الضمير الانسانى ان ينكر الرق ، وأن يعده جريمة شنعاء فى حق الانسانية — فانه ليس فى وسع العقل أن ينكر واقعا كان — ولا يزال — يعيش فيه الناس ، وان اختلفت صوره ، وتباينت اشكاله ، وتعددت مظاهره ..

ان حالة الحرب ، تعطى المتحاربين فى هذا العصر حق الأسر .. هذا الحق الذى يجعل الأسرى فى يد آسريهم فى حال أسوأ من الرقيق .. فقد يجد الرقيق فى ملك مسترقه رعاية وعناية أكثر مما يجده أحسن الأسرى حالا ، وأطيبهم مقاما .. اذ كان الرقيق — فى أسوأ أحواله — مالا ، يحرص صاحبه على سلامته .. أما الأسير ، فهو عبء على آسريه ، ربما كان من المصلحة التخلص منه بصورة أو بأخرى !

الديانات السماوية والرق :

واذا كان سلطان القوة قائما فى الحياة ، واذا كان الأقوياء موجودين فى كل زمان ومكان ، حيث يجدون من الناس من يخضع لقوتهم ، ويذل لسلطانهم — فان الأديان السماوية لم يكن من التدبير الحكيم لرسالاتها أن تحمل الى الناس دعوة تخرجهم من هذه الطبيعة المتمكنة فيهم ، وغاية ما دعت اليه رسالات السماء فى هذا المقام هو أخذ الناس بالحكمة ، ودعوتهم الى مابينهم من أخوة ، والى ماينبغى لهذه الأخوة من رعاية ، ومن عدل ، واحسان ، حتى مقام الشقاق والخلاف ، وما ينجم عن ذلك من حرب وقتال ..

تقول التوراة :

« وابتدأ نوح يكون فلاحا ، وغرس كرما ، وشرب الخمر فسكر، وتعرى داخل خبائه ، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه ، وأخبر به أخويه خارجا .. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ، ومشيا الى الوراء ، وسترا عورة أبيهما ، ووجهاهما الى الوراء ، فلم يبصرا عورة أبيهما .. فلما استيقظ نوح من خمره ، علم مافعل ابنه الصغير (حام) فقال : ملعون كنعان (ابن حام) .. عبدا يكون لاخوته .. وقال : يبارك الرب آل سام ، وليكن كنعان عبدا لهم .. ليفتح الله ليافث فيسكن فى مساكن سام ، وليكن كنعان عبدا لهم » (سفر التكوين ٩ : ٢٠ — ٢٧) .

واذا كان حام هو الذى فعل تلك الفعلة التى آذت أباه نوحا ، فان اللعنة — لم تقع عليه وحده ، بل رمى بها نوح كنعان بن حام أيضا .. وأنها على أية حال لعنة قد أصابت ثلث هذا العالم ، فجعلت هذا الثلث عبيدا للثلثين الآخرين !

وفى أسفار التوراة ، أحاديث كثيرة ، لاتكاد تحصر ، عن العبيد والرقيق الذين كانوا فى خدمة الرسل والأنبياء ، وملك يمينهم !

وفى الأناجيل التى تروى أحاديث السيد المسيح ، وعظاته ، نرى السيد المسيح يضرب كثيراً من الأمثال للعبيد ، الذين يعملون فى ملكة أسيادهم ..

يقول السيد المسيح مثلا : « فمن هو العبد الأمين الحكيم الذى أقامه سيده على خدمه ليعطيهم الطعام فى حينه ؟ طوبى لذلك العبد الذى اذا جاء سيده يجده يفعل هكذا » (انجيل متى : اصحاح : ٢٥) .

ويقول السيد المسيح ايضا : « من منكم له عبد يحرث أو يرعى، يقول له اذا دخل من الحقل : تقدم سريعا واتكىء ؟ بل الا يقول له : أعدد ما أتعشى به ، وتمنطق واخدمنى ، حتى آكل وأشرب .. وبعد ذلك تأكل وتشرب .. فهل لذلك العبد فضل لأنه فعل ما أمر به ؟ لا أظن » (انجيل لوقا : اصحاح : ١٦) .

وما كان المسيح ـ عليه السلام ـ لينسج أمثاله من باطل ، أو يقيمها من خيال ، وانما يأخذ مادتها من واقع الحياة التى يتقلب فيها الناس ، ويشهدها سامعوه !

لا نقول هذا ، لنتهم الديانتين السماويتين ـ الموسوية والعيسوية ـ بالاغراء باسترقاق الناس ، واستعباد طائفة منهم لطائفة أخرى .. ومعاذ الله أن نقول بهذا ، فما جاءت الديانات السماوية الا لتحرير الانسان بكيانه كله : جسدا وروحا وعقلا .. ولكنا نقول ذلك لنقرر أمرا واقعا ، شهدته الديانات السماوية ، وعملت فى أناة وحكمة على استشفاء الناس منه !

ونقول هذا أيضا فى مواجهة تلك الدعاوى الباطلة التى يدعيها أعداء الاسلام على الاسلام ، بأنه زكى الرق ، أو على الأقل لم يرتفع بالانسانية الى المستوى الذى يقضى على هذه الآفة !

وقد قلنا من قبل : ان الاسلام ـ كشريعة سماوية عامة ، عاملة فى الحياة ، لا يستطيع بقوة كلمته أن ينتزع من الحياة طبيعة متأصلة فى الناس ، متمكنة فى نفوسهم .. وقد بنى الاسلام على السماحة واليسر ، والدعوة الى مكارم الأخلاق بالحكمة والموعظة الحسنة ، فعالج داء الرق علاجا حكيما ، ظهرت آثاره واضحة من أول بزوغ شمس هذا الدين .. انه لم يدع هذا الداء يستشرى ، بل طب له ، وقدم من الدواء ما هو كفيل بأن يحسم الداء . وان كان ذلك على زمن متطاول ، فذلك خير من عملية بتر ، قد تذهب بالجسد الاجتماعى كله ، أو تحل عقد نظامه !

الاسلام وعلاج الرق :

والحقيقة التى تقع موقع البدهيات ، والتى يكون طلب الدليل لها ، أو اقامة البرهان عليها ، استخفافا بالعقل ، وعبثا به ـ هى أن الاسلام ، قد التقى بالحياة ، والرقيق فيها يملأ وجه الأرض ، والأرقاء يأخذون وضعا يكاد يكون مستقرا الى جانب الحيوان وأدوات الانتاج ، لا يكادون يتحولون عنه أو يطمعون فى التحول عنه .. ولاشك أن آراء « أرسطو » التى أشرنا اليها من قبل ،

والتى تجعل الرق خلقة وجبلة يولد بها بعض الناس ، كما يولدون بجلودهم من سوداء ، أو بيضاء ، أو سمراء ، أو حمراء — لاشك ان هذه الآراء كانت نتيجة لازمة لما انطبع فى تفكير هذا الفيلسوف من مشاهد الحياة السائدة فى عصره ، ووضع العبيد فيها ، على تلك الصورة التى بنى عليها منطقه الفلسفى ..

لقد بلغ حساب الرقيق فى دنيا الناس الى درجة سوى فيها بحساب البهائم والدواب ، سواء بسواء ، فأقيمت للعبيد حظائر بعيدا عن منازل السادة ، تماما كما يفعل بقطعان الغنم أو البقر .. ثم حين كثرت هذه الحظائر واتسعت دائرتها ، تحولت الى أحياء معزولة عن المدن .. ولا يزال زنوج أمريكا ، وجنوب افريقيا ، وتنزانيا ، يعيشون الى اليوم فى معازل بعيدة عن منازل البيض ، كما يحرم عليهم الاختلاط بالبيض فى المراكب ، أو المدارس ، أو دور اللهو ، وغير ذلك مما يجمع الناس والناس .. وتشهد ثورة العبيد فى روما ، بقيادة « باراكوس » العبد ، والتى هزمت جيوش الامبراطورية الرومانية ، وكادت تذهب بها — تشهد بأن العبيد كانوا يعيشون فى مقاطعات مخصصة لهم ، وانهم كانوا أمة من العبيد ، فى مجتمع أمة من الأحرار .

هكذا كان الرقيق على هذه الأرض ، يوم التقى الاسلام بالناس ! !

فماذا كان من الاسلام فى أمر الرقيق ؟ وماذا حمل من دواء لهذا الداء ؟

اولا : **الدعوة العامة الى الاخاء ..**

لقد ولد الاسلام الناس ولادة جديدة ، من رحم أم واحدة هى الأرض .. وفى هذا يقول الله تعالى : « **والله انبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ، ويخرجكم اخراجا** » (١٧ — ١٨ : نوح) .. ويقول سبحانه : « **ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين** » (١٢ — ١٣ : المؤمنون) ويقول جل شأنه: « **يايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا .. ان اكرمكم عند الله اتقاكم** » (١٧ : الحجرات) .

ويقول النبى الكريم : « أيها الناس .. ان الهكم واحد ، وان أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب » .. فالى هذا النسب يرجع الناس جميعا .. !

واذن ، فلا دعوى لانسان على انسان أنه خير منه بمولد ، أو بموطن ، أو جنس ، أو لون .. وانما يتمايز الناس ويفضل بعضهم بعضا ، بما لهم من جهد ذاتى فى مجال الأعمال الصالحة ، وفى مقام السمو العقلى والروحى ..

ولا شك أن هذه الدعوة كان لها أثرها البعيد والعميق ، حين صافحت الآذان ، وسلكت مسالكها الى القلوب والعقول .. وخرج كثير من الناس ممن كانوا يعيشون فى اهاب مدموغ بصبغة الحسب والنسب ، خرج كثير من هؤلاء عن هذا الجلد المستعار ، ولبس جلد الانسانية ، أيا كان لونه .. أبيض ، أو أحمر ، أو أسود .. وباستصحاب هذا الشعور أمكن أن يعيش السيد والعبد اخوة ليس بينهما ما كان قائما بين السادة والعبيد من حدود وسدود !

ولاشك أن هذا الشعور الذى دخل على المسلمين ، من دعوة الاسلام هذه ، قد حرر كثيرا من العبيد ، وفك رقابهم من قيود الرق ، احتراما لآدمية الانسان ، التى يراها السيد فى نفسه ، أن تنزل الى هذا الدرك السحيق من الامتهان ، الذى يراه فى أخيه الانسان ، الذى لبس ثوب الرق !

وثانيا : **الدعوة الصريحة الى تحرير الأرقاء :**

واذا كان الرقيق مالا له وزنه وحسابه ، عند من هم فى حاجة الى المال ، أو الى الحرص عليه والاستزاده منه — فان مثل هؤلاء لا يرضون طائعين أن يتركوا هذا المال بدون عوض ، يرونه مجزيا ، غير مفوت عليهم شيئا ، سواء أكان هذا العوض ماديا أو أدبيا ، معجلا او مؤجلا .. المهم هو أن يكون هناك عوض ما .

وقد عرض الاسلام فى سوق المعاوضات ، ما يسع كل من فى يدهم رقيق ، ليحرره ، وليأخذوا العوض المجـزى لهم ، اذا هم نزلوا به فى تلك السوق !

ومن صور تلك المعاوضات :

١ ـ العوض المالى :

وذلك بأن يشترى العبد نفسه من سيده ومالك رقبته نظير مال يتفقان عليه .. فان اتفقا على الثمن المطلوب ، أعطى السيد عبده كتابا بهذا ، يحدد فيه المال الذى كاتب عبده عليه ، ويسمى الرقيق فى تلك الحال مكاتبا ،، لا يتحرر من الرق حتى يؤدى المال الذى كوتب عليه ..

وقد دعا الاسلام الى هذه المكاتبة ، وجعلها أمرا ملزما لمالك الرقيق ، اذا طلب الرقيق ذلك منه فقال تعالى : « **والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا** » (٣٣ : النور) وقوله تعالى : « **ان علمتم فيهم خيرا** » هو دعـوة الى مالك الرقيق أن ينظر فى حاله ، وأن يتحرى قدرته على الحياة اذا هو تحرر من أسر الرق .. فان بعض الأرقاء ، قد أفسد الرق وجودهم الانسانى ، وفى خروجهم من يد مالكيهم ضياع لهم .. تماما ، كما يترك الحيوان الأليف ، ليعيش بين بنى جنسه الذى لم يؤلف .. انه لا محالة هالك ، اذا هو خرج الى الحياة الطبيعية التى يحياها بنو جنسة ، بعيدا عن الناس ..

ولما كان الرقيق المكاتب لا يملك مالا ، فقد جاء أمر الاسلام الى المسلمين أن يخفوا لمساعدته ، وتخليصه من قيد الرق ، بتقديم المال المطلوب منه .. فقال تعالى : « **وآتوهم من مال الله الذى آتاكم** » (٣٣ : النور) وقال سبحانه : « **ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والسائلين وفى الرقاب** » (١٧٧ : البقرة) وقال جل شأنه : « **فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو اطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة** » (١١ ـ ١٦ : البلد) .

ولم يكتف الاسلام فى شأن الرقيق المكاتب بهــذا بل جعل فى فريضة الزكاة المفروضة فى مال أصحاب المال من المسلمين ـــ جعل فى تلك الفريضة نصيبا مفروضا لهؤلاء المكاتبين ، فقال تعالى : **« انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله »** (٨٩ : التوبة) .

٢ ـــ العوض بما يقابل المال أو الجهد :

فهناك أعمال يرتكبها المسلم ، مخالفا فيها شريعة دينه ، فاذا أراد أن يكفر عنها ، كان كفارة ذلك مالا ينفقه فى سبيل **الله** ، أو عبدا يعتقه ،، أو أياما معدودات يصومها .. فمن ذلك :

(أ) **الحنث باليمين** : وكفارته هو ما يقول القــرآن الكريم : **« اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة أيمانكم اذا حلفتم »** (٨٩ : المائدة) .

(ب) **القتل الخطأ** : وكفارته كما نص القرآن الكريم : « **ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة الى أهله ، الا أن يصدقوا ، فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله، وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين »** (٩٢ : النساء) .

(ج) **الظهار** : وهو أن يقول الرجل لزوجه : « انت على كظهر أمى » يريد تطليقها وتحريمها بهذا البدع من القول .. وفى هذا يقول الله تعــالى : **(والذين يظــاهرون من نســائهم ثم يعــودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا »** (٣ ـــ ٤ : المجــادلة) .

فهذه ثلاثة وجوه ملزمة للمسلمين ، فتحها الاسلام لتحرير العبيد من أسر العبودية .. وقد كان لهذه الوجوه أثر ظاهر فى تحرير أعداد لا حصر لها من الرقيق ، بحيث كان مطلع كل يوم يأتى بمحصول وفير من هذا الخير العظيم ، الذى أفاءه الاسلام على الأرقـــاء ..

فهل وقف الاسلام عند هذا الحد لتحرير الأرقاء ؟

وانظر كيف كان من تدبير الاسلام بعد هذا فى محاربة هذه الآفة ، وفى تخليص الانسانية من هذه الوصمة التى لطخت بها جبينها ..

فلقد جعل الاسلام من أبوابه الموصلة الى رضـــا الله تعالى ، والتعرض لثوابه العظيم ، فك الرقاب ، وتحريرها ..

ومن هذا الباب الفسيح دخل كثير منالأرقاء الى عالم الانسانية ، حيث تسابق فيه كل من آمن بالله ، وابتغى مرضاته ، والاستزادة من فضله ورحمته .. وما أكثر المؤمنين يومئذ الذين دعوا فأجابوا فى سماحة ورضى ، بلا حدود ..

يقول النبى الكريم : « أيما أمرؤ مسلم أعتق أمرأ مسلما ، استنقذ الله بكل عضو منه ، عضوا من النار » (البخارى ومسلم) .

ويقول ــ صلوات الله وسلامه عليه : « من أعان مجاهدا فى سبيل الله ، أو غارما فى عسرته ، أو مكاتبا فى رقبته ، أظله الله يوم لا ظل الا ظله » (مسند أحمد) .

وقد استجاب المسلمون لهذه الدعوة الكريمة ، حتى لقد كان الواحد منهم ينخلع بكلمة واحدة من جميع ما فى يده من رقيق ، فيقول : عبيدى كلهم أحرار ، لوجه الله .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الاسوة الحسنة للمؤمنين فى هذا ، فما ملك رقيقا من فىء أو غنيمة الا فك رقبته .

روى البخارى ، عن عمرو بن الحارث قال : « ما ترك النبى صلى الله عليه وسلم عند موته درهما ، ولا دينارا ، ولا عبدا ولا أمة ، ولا شيئا الا بغلته البيضاء ، وسلاحه ، وأرضا جعلها صـــدقة » ..

ومع ما حرر الاسلام من عبيد ، فانه ما زال فى المجتمع الاسلامى، وما زال كثير من المسلمين يملكون اعدادا منهم ..

فماذا كان من صنيع الاسلام لهؤلاء الأرقاء ؟

لقد قدم الاسلام لهم الوانا من البر والرحمة بهم ، حتى يضمن لهم حياة انسانية كريمة ، وهم فى أيدى مالكيهم ، الى أن يتوفاهم الله ، أو يجعل لهم سبيلا .

يقول النبى الكريم لأصحابه ، وهو يكشف لهم عن شرار الناس ، ودركاتهم فى هذا المرتع الوبيل : « الا أخبركم بشر من ذلكم ؟ » قالوا بلى ، قال : « من أكل وحده ، وضرب عبده ، ومنع رفده » ويقول — صلوات الله وسلامه عليه : « اخوانـــكم خولكم .. استعينوا بهم على ما غلبكم ، واعينوهم على ما غلبهم » .

وأكثر من هذا ، فان الاسلام قد حاول بحكمته ، أن يقتل فى مشاعر الناس الاحساس بالعبودية لمن يملكون من عبيد ، وان يحمى مشاعر العبيد من هذا الأذى الذى يقع فى نفوسهم من ندائهم بكلمة : عبد أو أمة !

يقول النبى الكريم فى هذا الأدب الانسانى العظيم ، الذى يؤدب به المسلمين : « لا يقولن أحدكم عبدى أو أمتى .. كلكم عبيد الله ، وكل نسائكم اماء الله .. ولكن ليقل : غلامى وجاريتى ، وفتاى وفتاتى » (صحيح مسلم) ..

انظر كيف يؤدب الاسلام المجتمع الانسانى ، وكيف يمسك بأدق الخيوط التى تتسرب فى النفوس ، والتى قل أن يلتفت اليهـــا أحد ، أو يعمل لها حسابا ، فى حين أنها تلد مواليد ضـــخمة خطيرة فى الحياة ، وتترك آثارا سيئة عميقة فى كثير من جوانبها !!

الحق أبلج ، والصبح بين لذى عينين !

شيء عظيم رائع وكثير هذا الذى صنعه الاسلام لتحرير الرقيق ، تحريرا منبعثا من أعماق الانسانية ، ونابعا من وجدانها ، وصادرا من ايمان يسكن الضمائر ، ويعمر القلوب .

وانه ليزيد فى روعة هذا الصنيع وعظمته ، انه جاء فى وقت كانت فيه الانسانية كلها ملفقة فى ظلمات الجاهلية ، متخبطة فى أمواج متلاطمة من البغى والظلم والعدوان ، بحيث لاعاصم لانسان من انسان يومئذ الا قوة مخالبه ، وحدة أنيابه ، وآلا فهو لقمة سائغة لمن هو أحد منه نابا ، وأقوى مخلبا ..

صفحة مشرقة فى تاريخ الانسانية كتبها الاسلام ، وشمس مشرقة طلع بها عليها فى ظلام ليلها البهيم ، استضاءت بها النفوس ، وتحررت بها الرقاب ، واستدفأ بها المقرورون ، الملقون بالعراء ، من الآدميين المستضعفين !!

الا فلتخرس هذه الأفواه التى تنبح الاسلام ، وآلا فلتنجحر تلك الحيات التى تنفث سمومها فى عباب هذا البحر العظيم ، وآلا فلتشل تلك الأيدى التى تحاول أن تطول الشمس ، وتخفى ضوءها : **« يريدون أن يطفئوا نـــور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون ، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون »** (٣١—٣٢ : التوبة) .. **« والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون »**.

* * *

ثانيا : **الاسلام .. والسيف !!**

ومما يشنع به المشركون ومن فى قلوبهم مرض ، على الاسلام ، انه دين قام على السيف ، وأن انتصاراته المعروفة فى التاريخ ، وفتوحاته الواسعة ، لم تكن الا بقوة السيف الذى تسلط به النبى وأصحابه على رقاب الناس ، وأنه لولا هذا السيف لما كان لهذا الدين مكان خارج الصحراء العربية !

وأصحاب هذه المقولات الآثمة التى كثيرا ما تجرى على صحف علمائهم ، ومستشرقيهم ، لا يتورعون من أن يجاوزوا هذه المقولات الى القول بأن حركة الاسلام ، لا تعدو أن تكون غارة من تلك الغارات البربرية التى تهجم على الناس ، فتزعجهم عن أوطانهم ، وتدمر حياتهم ، وتحملهم على أن يعيشوا بغير ارادة ولا رأى ، فيما يأخذون أو يدعون من شئون الحياة المادية والعقلية والروحية جميعـــا ..

فماذا نقول لهؤلاء ؟ وبأى منطق نتحدث اليهم ؟

انهم ليسوا طلاب حق ، ولا باحثين عن حقيقة .. ولو كان هذا شأنهم لكان للحديث معهم شأن ، وللمنطق حساب ، ولشواهد التاريخ موقع ، وللحاضر المشهود موقف .. ولكن القوم يستملون مقولاتهم من أحقاد دفينة ، ويستمدون دعاواهم من عداوة متربصة بالاسلام وأهله .

فاذا تحدثنا هنا لفضح هذه الفرية العظيمة على الاسلام ، فانا لا نتحدث الى هؤلاء المحترفين للتحريف ، وللدس والكيد للاسلام ، وتخريب مواطنه ، باجلاء الاسلام عنه ، والتمكين للمستعمرين فيه .. نحن لا نتحدث الى هؤلاء ، وانما نتحدث الى أهل الاسلام أنفسهم ، الذين كثيرا ما يجد هذا الضـــلال مسارب الى عقول وقلوب كثير منهم ، وخاصة الشبان الذين لم يتصلوا بدينهم اتصالا وثيقا ، ولم يردوا شرعته ، ولم ينقعوا الصدى من مشرعه العذب الزلال ..

الاسلام والسلام :

والا فليعلم من لم يكن يعلم ممن يدينون بالاســـلام ، أن كلمة « الاسلام » هى عنوان دينهم ، والراية التى تجتمع عليها أمتهم ، كما يقول سبحانه مخاطبا هذه الأمة : ((**اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا**)) (٣ : المائدة)

والاسلام ، والسلم ، والسلام ، والسلامه ، كلها ذات دلالات متقاربة .. فالاسلام ، سلام ، وسلم ، وسلامة .. وانه لو لم يكن الاسلام عنوانا للشريعة الاسلامية لجاز أن يـــكون السلام عنوانا لهـــا ..

وحسبك ــ أيها المسلم ــ بدين هذا عنوانه ، الأمر الذى يقضى بأن تكون تعاليمه وأحكامه ، شارحة لهذا العنوان ، داعية اليه ، محققة له ..

وهذا ما كان فعلا ، قولا ، وعملا .

فدعوة الاسلامكلها خالصة لخير البشرية ، وأمنها ، وسلامتها ، وحفظها من آفات الشر ، والبغى ، والعدوان .. وانه لن يقوم الأمن والسلام الا فى مجتمع يسوده الحب والاخاء .. ولا نحسب دينا أو شريعة ، أو مذهبا ، حقق لمجتمع ما حققه الاســـلام فى مجتمعه ، وفى المجتمعات التى اتصلت به ، وتعاملت معه ، من عدل فى القضاء ، ومن مساواة مطلقة فى الحقوق والواجبات .

وانه لكى يمكن الاسلام لمعنى السلام فى قلوب أهله وعقولهم ، فقد جعل كلمة السلام بعضا من عبادتهم المفروضة عليهم لله رب العالمـــين ..

ففى مقام الصلاة بين يدى الله ، يردد المســـلم فى اخبات ، وخشوع ، وولاء ، هذه العبارة الجليلة : « السلام عليك أيها النبى ، ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا ، وعلى عبـــاد الله الصالحين » ..

انها دعوة يدعو بها المسلم ربه ، طالبا السلام للنبى والرحمة والبركة ، كما يطلب بها السلام لنفسه ، ولكل عباد الله الصالحين. يفعل ذلك المسلم فى الصلوات الخمس المفروضة كل يوم ، وفى صلوات السنن والنوافل .. وما أكثرها ..

كذلك جعل الاسلام تحايا أتباعه التى يتبادلونها فيما بينهم ، ويحيى بها بعضهم بعضا ، كلمة «السلام عليكم» لتكون راية أمن

وسلام ، يلقى بها المسلم كل من عرف ولم يعرف .. فاذا هى رسول سلام ومودة وألفة ، تزول بها الوحشة ، ويطرد بها كل ما توهم من عدوان ، وتصبح عهدا وميثاقا بين المتلاقين ..

وبهذه الكلمة ، يدخل الناطق بها فى حمى الجماعة الاسلامية ، بمجرد أن ينطق بها ، حتى ولو كان قلبه على غير عقيدة الاسلام ، يقول الله تعالى : **((ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا ، تبتغون عرض الحياة الدنيا))** (٩٤ : النساء) ..

ومن حكمة الاسلام فى هذا الأمر ، أنه اذ جعل المبادأة بالسلام سنة ، جعل الرد على من ألقى السلام واجبا .. انها يد ممدودة للمصافحة بالسلام ، ودعوة الى المسالمة والموادعة ، من أى يد ، ومن أى قلب ، فلا ينبغى لمؤمن ردها بأى حال .. يقول الله تعالى : **((واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها))** (٨٦ : النساء) .

فأى شىء أفعل فى النفوس ، من هذا اللقاء الكريم بين الانسان والانسان ، وهذا الود المبذول ، الذى يتبادله الناس مشاعر طيبة ، وعواطف كريمة ؟

السلام اذن هو دعوة الاسلام ، وملاك أحكامه ، وغاية شريعته . وكيف لا يكون الاسلام سلاما وأمنا للناس ، وهذه دعوة الله تعالى فيه للناس جميعا ، يتجه بها الى المؤمنين ليكونوا رسل رحمة وسلام ، بين الناس .. **((يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان .. انه لكم عدو مبين))** (٢٠٨ : البقرة) ؟ ثم كيف لا يكون الاسلام سلاما وأمنا ، وهذا خطاب الله تعالى لرسوله الكريم : **((وما أرسلناك الا رحمة للعالمين))** (١٠٧ : الأنبياء) ؟ وهل السلام الا الثمرة المباركة من ثمار الرحمة ؟

التأويل الفاسد لآيات الله :

ومن سفاهة المتطاولين على الاسلام ، والشانئين له ، أنهم يتخذون من آيات القرآن الكريم حجة لهم على أن الاسلام يهيج

البغى والعدوان فى نفوس اتباعه ، ويغريهم باراقة دماء غير المسلمين ، وازهاق أرواحهم ، ويعد الذين يقتلون منهم فى غاراتهم العدوانية على أعدائهم ، خلودا فى جنات النعيم !! ويقدم هؤلاء السفهاء المدلسون من آيات الله ، قوله تعالى : **« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »** (٢٩ : التوبة) وقوله سبحانه : **« فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فأما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها »** (٥ : محمد) .. وقوله جل شأنه : **« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم »** (٦٠ : الأنفال) .. الى غير ذلك من الآيات التى تحرض المؤمنين على القتال ، والاستشهاد فى سبيل الله ، واصطناع أدوات الحرب وعددها ، واعداد ذلك للحرب !

والذى يقرأ ، أو يسمع مثل هذه الآيات ، منقطعة عما بين يديها وما خلفها من آيات الله ، يمكن أن يحملها على تلك المحامل المضللة التى ينخدع لها من لا يعرفون كتاب الله ، ولا ما تعطيه آياته من ثمرات طيبة مباركة .. كمن يقرأ قوله تعالى : **« يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة »** ولا يصلها بقوله تعالى : **« وأنتم سكارى ، حتى تعلموا ما تقولون »** (٤٣ : النساء) .. فيتسع له القول هنا بأن يقول : ان الاسلام ينهى المؤمنين عن الصلاة ، وأنه لا صلاة فى الاسلام ! وقد لا يجد بعض المسلمين ، ممن يجهلون حقائق دينهم ، الا الحيرة ، والقلق ، والاضطراب !

وقد نبه القرآن الكريم الى هؤلاء المخادعين المدلسين ، الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، والذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، فقال تعالى : **« أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون »** (٨٥ : البقرة) .

آيات الله ، وما تنطق به :

والذى له أن يستشهد بآية أو آيات من كتاب الله ، ينبغى أن يكون مؤمنا بهذا الكتاب ، وبأنه منزل من عند الله ، وأن الذى يدعو بهذا الكتاب هو رسول من عند الله ..

فهل يؤمن هؤلاء السفهاء والمدلسون بشىء من هذا ؟ انهم لو كانوا يؤمنون به . لراوا الحق ، واهتدوا به الى سواء السبيل ، ولما ضلوا .. وعموا !

انهم لو كانوا يطلبون حقا ، ويبحثون عن حقيقة لكان لهم فى قوله تعالى : « **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولايحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** » فهما غير هذا الفهم السقيم الذى فهموه من الآية ، وخرجوها عليه ، ولعلموا أن هذه الدعوة الى المؤمنين بقتال الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، انما هى دعوة تشد عزائم المسلمين ، وتربط على قلوبهم ، والحرب دائرة بينهم وبين هؤلاء الذين يقاتلونهم ، والذين يبدءونهم بالحرب والعدوان ، ولعلموا أنه ليس من شريعة الاسلام البدء بحرب أو عدوان للمسالمين ، ولوجدوا من آيات الله أكثر من شاهد لهذا .. فالله سبحانه وتعالى يقول : « **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين** » (١٩٠ : البقرة) .. ويقول تبارك اسمه : « **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** » (١٩٤ : البقرة) .. ويقول جل شأنه : « **الا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول ، وهم بدءوكم أول مرة** » (١٣ : التوبة) ..

فاذا دخل المسلمون هذه الحرب مع من اعتدى عليهم ، ونقض عهود السلم التى عقدوها معه ـ أيكونون دعاة حرب ، وأعداء سلم؟ وماذا يطلب من المسلمين فى تلك الحال ؟ أيتركون المعتدى يحصدهم ويأتى عليهم ، وهم راضون مستسلمون ؟ أهذا حق ؟ وهذا مما تحتمله الحياة ، والله سبحانه وتعالى يقول: « **ولولا دفع الله الناس**

بعضهم ببعض لفسدت الأرض .. ولكن الله ذو فضل على العالمين» (٢٥١ : البقرة) وفضل الله هنا انما هو فى اعطاء الحق كاملا لمن اعتدى عليه أن يرد هذا العدوان ، وأن يقطع تلك الأيدى التى تعتدى عليه ، وتريد الفتك به ! والله سبحانه وتعالى يقول : **« ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق »** (٤١ — ٤٢ : الشورى) .

ولو أن هؤلاء المتطاولين على الاسلام ، المحرفين الكلم عن مواضعه ، كانوا يطلبون الحق ، وينشدون الحقيقة ، لرأوا فى قوله تعالى : **« فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها »** — لرأوا فى هذا التوجيه الالهى آية من آيات رحمته تعالى فى جحيم هذه الحرب المستعرة بين المسلمين وأعدائهم .

فالمسلمون هنا فى حرب دفاعية ، فى حرب لم يهيجوها ، ولم يعملوا لها ، ولم يبدءوا بايقاد نارها ، وانما هم يردون عدوانا ويدفعون بغيا .. فتلك هى الحرب المأذون من الله سبحانه للمسلمين أن يكونوا طرفا فيها ..

فاذا وقعت هذه الحروب ، فماذا يكون من المسلمين فيها بحكم هذا التوجيه الالهى الكريم ؟

أولا : أن يعملوا جاهدين على أن يكسروا شوكة أعدائهم ، وأن تكون لهم الغلبة عليهم ، لأكثر من سبب ، فهم معتدى عليهم ، وهم فى وجه عدو يريد القضاء عليهم ، فان لم يغلبوه غلبهم ، وأنزل الهلاك بهم ، وهم مؤمنون بالله ، واليوم الآخر ، يحاربون معتدين ، لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر .. ومن هنا كان عليهم أن يضربوا حيث ينالون من العدو مقاتله ، ويطفئون هذه النار المسلطة عليهم قبل أن تحرقهم ، وتجعلهم وقودا لها .. **« فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب»** .

وثانيا : انه اذا كسر المسلمون شوكة عدوهم ، والقى العدو يده مستسلما لهم ، فلا يقتلونه ، لأنه لم يعد مقاتلا ، أو صالحا للقتال

فى تلك الحرب .. ولهذا جاء الأمر الالهى : **« فشدوا الوثاق »** .. والمراد من شد الوثائق ، هو أسر الذين استسلموا من العدو ، أو سقطوا جرحى فى ميدان القتال ، وذلك حتى لا يخرج هؤلاء المستسلمون من أيديهم ، ويعودوا من جديد لحربهم ..

وثالثا : هؤلاء الأسرى الذين وقعوا لأيدى المسلمين .. ماذا يفعل المسلمون بهم ؟ .. أنهم مخيرون بحكم الله تعالى فيهم ، وهو اما ان يمنوا عليهم ويطلقوا سراحهم ، واما أن يقبلوا الفدية منهم ، سواء أكانت هذه الفدية مالا ، أو فك أسرى من المسلمين وقعوا ليد العدو .. وذلك ما جاء فى قوله تعالى : **« فاما منا بعد واما فداء »** .

هذا وجه من وجوه الاسلام المشرقة ، فيه ما فيه من معانى الانسانية الرفيعة السامية ، التى تراود أحلام الأخلاقيين والفلاسفة المثاليين ، والتى لا يجدون لها فى عالم الواقع مكانا الا فى حمى الاسلام ، وفى حرب المسلمين !

فالاسلام فى حربه مع الكافرين — وهم حرب على كل حق وخير — لا يريد قتلهم ، ولا يشتهى اراقة دمائهم ، ولو كان من همه هذا لما رد سيفه عمن كانوا لساعتهم حربا عدوانية على المسلمين ، يقتلونهم ، ويسفكون دماءهم ، ثم سقطت سيوفهم ، وتكسرت رماحهم ، وأصبحوا فى متناول سيوف المسلمين ورماحهم ، لا يحجزهم عن القتل الا ما أمر الله تعالى المسلمين به من كف أيديهم عنهم ، والاكتفاء بالأسر ، دون القتل !

هذا هو الاسلام فى حربه فى المعتدين عليه .. انها حرب لطلب السلامة والسلام ، وليست حربا للتسلط والبغى والقهر ..

فأى ميزان أعدل واقوم من هذا الميزان فيما بين الناس والناس ؟

وأى أمن واى سلام ، كهذا الامن وذلك السلام الذى كان يمكن ان يجده المجتمع الانسانى فى ظل هذا المبدأ الذى فرضه الاسلام على أتباعه فى وجه العداوة المسلطة عليه ، وفى رد العدوان المساق اليه ، لو أن غيرهم جرى على هذا المبدأ القديم ؟

يقول الرسول الكريم فى وصاته لأصحابه : « لا تقتلوا شيخا فانيا ، ولا طفلا صغيرا ، ولا امرأة » .

ويقول : صلوات الله وسلامه عليه فى وصاته لهم : « اخرجوا باسم الله ، تقاتلون فى سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الولدان ، ولا أصحاب الصوامع » .

ويقول خليفة رسول الله أبو بكر ، رضى الله عنه فى وصاته لأحد قواده فى حرب الروم : « انى موصيك بعشر خلال : لا تقتل امرأة ولا صبيا ، ولا كبيرا هرما ، ولا تقطع شجرا مثمرا ، ولاتخرب عامرا ، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا الا لماكلة ، ولا تعقرن نخلا ، ولا تحرقه ، ولا تغلل ولا تخن » .

انها حرب الاسلام ، غايتها الاصلاح ، ودفع الخطر ، وبتر الأعضاء الفاسدة الباغية ، المهددة لأمن الناس وسلامتهم .. ولو كان من هم الاسلام فى الحرب ، الغلب ، والقهر ، والتسلط ، وشفاء الأحقاد والأضغان — لما كان منه الا التدمير لكل عامر ، والقتل لكل نفس !

ولقد تلقى المسلمون من شريعة دينهم ، هذا الأدب الربانى العالى فى حرب عدوهم ، فكانوا دائما فى صحبة ملازمة لكل معانى الانسانية النبيلة الكريمة .. فلم تسكرهم حميا النصر ، ولم تجر على مروءتهم وشرفهم شهوة الانتقام والتشفى .. بل كانوا على هذا الأدب الربانى ، فى السلم وفى الحرب ، وفى حال الهزيمة أو النصر .. لم يتخلوا أبدا عن انسانيتهم ولم يتحولوا الى وحوش كاسرة ، يلغون فى دم الناس ، لا يفرقون بين محارب ومسالم ، ولا بين صبى ومقاتل ، ولا بين امرأة ورجل ، كما عرفت الحياة من حروب ، وكما تشهد الحياة اليوم منها ، مما لم يعرف حتى فى عالم الحيوانات ذات المخالب والأنياب !!

ثم أنه لابد من وقفة بين يدى الآية الكريمة التى يقيم منها أعداء الاسلام شاهدا على أنه يعد اتباعه لأن يكونوا امة شغلها اصطناع أدوات الحرب ، والافتنان فى اعداد أدوات الدمار والخراب ..

ويقولـــون : أليس كتاب المسلمين يقول لهم : **« واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عــدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم »** (٦٠ : الأنفال) فلمن هذا الاعداد ؟ أليس للحروب ، ولازهاق الأرواح وسفك الدماء ؟

الا ما أضل ضلالهم ، وما أعمى قلوبهم ، وما أجراهم على الكذب المفضوح !! الم ينظروا الى ما بعد هذه الآية الكريمة مباشرة ، وهو قوله تعالى : **« وان جنحوا للسلم فأجنحلها وتوكل على الله »**. انهم لم يمدوا أبصارهم الى أبعد مما يشتهون الوقوع عليه من آيات الله ، تلهففا الى الاتهام واصدار الحكم بالادانة !!

أهناك دعوة الى السلم والسلام أبر وأكرم من هذه الدعوة ؟ **« وان جنحوا للسلم فاجنح لهــا وتوكل على الله »** .. وهل فى اعداد المسلمين انفسهم للحرب ، وتسلحهم بكل ما عرفت الحياة من أسلحتها **جريمة ؟**

واذا كان الاعداد للحرب ، واستصناع كل أدوات القتال وأسلحته جريمة ، فانه فى حق المسلمين فضيلة ومكرمة ، واحسان ..

ان هذا الاعداد من المسلمين للحرب وأدواتها محجوز بحجاز العدل ، والاحسان الذى ملأ الله تعالى بهما قلوب المسلمين ، حيث لا تنزع بهم قوتهم أبدا الى بغى أو عدوان ، وانما هذا الاعداد لمجرد ارهاب العــدو المتربص بهم ، حتى لا يغــريه الطمع فيهم بالعدوان عليهم ، فاذا رأى ما بين ايديهم من أسلحة ، وما فى قلوبهم من استعداد للتضحية والاستشهاد ، كف يده ، وماتت دواعى العدوان عليهم فى نفسه ، وبهذا لا تقع حرب كان العدو لا يحجم عنها لولا هذه القوة الراصدة له ، الرادعة لعدوانه .. **« واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم »** .. انها قوة للارهاب ، وللتحذير ، ولقطع نوازع العدوان على المسلمين ! اليس ذلك هو منطوق الآية الكريمة ومفهومها ؟ بلى .. ولكن هل يقف الشانىء المبغض ، عند منطوق أو مفهوم ؟

السلم والاستسلام :

كانت دعوة المسيح — عليه السلام — دعوة كلها سلام خالص ، بل هى استسلام مطلق لكل ظلم وبغى وعدوان .. هكذا كانت دعوة المسيح ، وهكذا كانت سيرته وسيرة حوارييه وأتباعه ، تحكمهم جميعا دعوة المسيح المشهورة ، التى تكاد تكون عنوان الرسالة المسيحية والتى يقول فيها : « سمعتم أنه قيل عين بعين ، وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ بثوبك فاترك له الرداء أيضا » (٥ : انجيل متى) .

فماذا كان نتاج هذه الدعوة ؟ هل سلم أتباعها من الأشرار ؟ وهل كان موقفهم السلبى من المعتدين الآثمين شفيعا يشفع لهم عند هؤلاء المعتدين ، أو يخفف مما يرمونهم به من ضر وأذى ؟ وهل سلم المسيح نفسه اذ سالم اليهود ، واستسلم لهم ؟

الحق أن ذلك كان اغراء لأهل السوء بأهل الصلاح والتقوى .. اذ انهم ما أن علموا بأن المسيح وأتباعه لايقابلون الشر بالشر والعدوان بالعدوان ، حتى تسابقوا الى مد أيديهم بالضر والأذى الى هذه الجماعة المسالمه المستسلمة التى كانت هدفا قريب المنال ، لكل من يريد اشباع شهوته الى البغى والعدوان ، أو ارواء ظمئه الى التسلط والقهر واذلال الناس .. فما أكثر الجياع فى الناس الى البغى والعدوان ، وما أكثر الظمآى فيهم الى التسلط على الناس وقهرهم واذلالهم .. !

فكم لقى « المسيح » وكم لقى أتباعه من ضر وأذى ؟ وكم احتملوا من بلاء وعذاب ؟ لقد كانت خطوات المسيح وخطوات أتباعه معه ، على طريق مخضب بالدماء .. دمائه — كما شبه لأعدائه — ودماء أتباعه من بعده .. وليس ثمة قطرة دم مراقة من هؤلاء الذين أراقوا دماء هؤلاء المسالمين المستسلمين .

ولحكمة ما أراد الله سبحانه للمسيح أن يأخذ هذا الطريق ، وأن يحمل تلك الدعوة الداعية الى الاستسلام ويجرى تلك التجربة البكر فى الحياة ..

انها دعوة قاسية ، تسير فى اتجاه مضاد لسير الحياة .. وقد أرادها الله سبحانه هكذا ، لعنة من اللعنات التى صبها على اليهود وأخذهم بها فى كل مرحلة من مراحل تاريخهم مع الأنبياء والرسل ..

فالمسيح ــ عليه السلام ــ هو نبى الى اليهود خاصة ، ودعوته مقصورة عليهم لا تتعداهم الى غيرهم كما يقول المسيح عليه السلام : « ما جئت الا لحراف بيت اسرائيل الضالة » .. وقد جاءهم المسيح بتلك الدعوة التى آن استقاموا عليها ، كان فيها اذلالهم ، وجعلهم موطئا لأقدام الناس .. وان هم أبوا أن يقبلوها ، ويأخذوا أنفسهم ، بها كانوا كافرين بالله ، مأخوذين بما أعد الله للكافرين من خزى فى الدنيا وعذاب مهين فى الآخرة ..

وقد أخذ الله تعالى اليهود بأحكام دينية قاسية ، غايتها تأديبهم واعناتهم واذلالهم ، لا اصلاحهم ، وتقويمهم .. فقد حرم عليهم العمل فى يوم السبت ، كما حرم عليهم ما أحل لغيرهم من طيبات الطعام وفى هذا يقول الله تعالى : **« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم »** (١٦٠ : الأنعام) .

ويقول سبحانه : **« وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ماحملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون »** (١٤٦ : الأنعام) .. وذلك مما لا تحتمله النفس ، أو تصبر عليه .. واليهودى من هذا بين أمرين : اما أن يمتثل أمر الله فيه فيهلك أو لا يمتثله فيكفر .. !

نقول : ان تجربة السلم أو الاستسلام تلك التى دعا اليها المسيح عليه السلام ، وعاش فيها ، قد كشفت عن حقيقة لاشك فيها ، وهى أن الحياة ترفض هذه التجربة ، ولا تقبلها كمبدأ من المبادىء العاملة فيها ، وانما تقبلها كدواء مر ، لأجل موقوت ، الى أن يشفى المريض ، أو يموت بدائه .. ولقد ترك المسيح اليهود ليموتوا بدائهم ، بعد أن حطموا بأيديهم قارورة الدواء ، الذى أبت طبيعتهم أن تستجيب له !!

والسيد المسيح نفسه قد أنهى هذه التجربة فى الأيام الأخيرة من حياته ، ورد الى اتباعه وحواريبه حقهم فى الحياة وفى الدفاع عن أنفسهم ..

يقول المسيح فى آخر موقف له مع تلاميذه : « حين أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية .. هل أعوزكم شىء ؟ فقالوا : لا ، فقال لهم : ممكن الآن .. من له كيس فليأخذه .. ومزود كذلك ، ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفا » . (٢٢ : لوقا) !! .. نعم ، من ليس له كيس، فليبع ثوبه ، وليشتر سيفا ، ليحفظ وجوده ، ولو عاش عريانا بلا ثوب ، والا فقد الثوب ، وفقد الحياة معـــا !!

السـيف وموضعه :

ان السيف أمر لابد منه لدفع العدوان ، ولردع المعتدين .. والله سبحانه وتعالى يقول : **« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض »** .. تلك هى سنة الله فى خلقه ، وذلك هو واقع الناس فيما أخذهم الله به من سنن .

فالقول بأن الاسلام دين قام على السيف ، دعوى كاذبة مضلة ، يراد بها النيل من المسلمين ودولتهم ، كمـــا يراد بها النيـــل من الاسلام وشريعته .. انها دعوة خبيثة مسمومة ، يراد بها أن تنهزم فى نفس المسلم معانى العزة والقوة ، لأنه ان أراد أن يسقط تلك الدعوى الباطلة ، ويدفع هـــذه التهمة الظالمة ، كان أقرب سبيل اليه ، هو أن يتجرد من كل سلاح ، وأن يتعـــرى من كل قوة .. وما حاجته الى السلاح أن كان السلاح سبة تدين دينه ، وتريه منه أنه دين بداوة وهمجية ، وشريعة غاب ، يحكم مجتمعها التناطح بالقرون ، والتقاتل بالمخالب والأنياب ؟

هذه هى الحركة النفسية التى تحدثها تلك الدعوى الماكرة فى نفوس المسلمين ، حين يلقون آذانهم الى هذه التخرصات الفاسدة الماكرة ، التى تجعل القوة التى يبعثها الاسلام فى مجتمعه ، شارة دالة على بدائية هذا الدين وتخلفه ..

وتلك الحركة النفسية من شأنها ــ لو وجدت قبولا ــ أن تفعل فعلها فى تفكير المسلمين ، وفى سلوكهم ، فتصرفهم صرفا قويا حادا عن كل سبب من أسباب القوة ، وبذلك يخلو الطريق للعدو المتربص بالاسلام والمسلمين ، فتمكنه الفرصة من التسلط عليهم ، والاستبداد بأوطانهم وأرزاقهم .. الأمر الذى وقع على ابشع صورة وأشنعها ، حين وقعت أوطان المسلمين جميعها فريسة للاستعمار ، الذى سلط عليها سيف القوة ، فسلبها كل مقومات حياتها المادية والخلقية ، وكاد يسلبها حياتها الروحية ، لولا وثاقة هذا الدين ، الذى يجرى فى مشاعر أهله ، جريان الدم فى العروق .

والحق أن هــذه الدعاوى الباطلة التى يدعيها المدعــون على الاسلام ، وأنه دين بداوة وشريعة غاب ، يتعامل مع الناس بالظفر والناب ــ هذه الدعاوى لا يقف أمرها وخطرها عند حد تشكيك المسلمين فى الاسلام ، وانحلال الرابطة التى تربطهم به أو توهينها، بل يتجاوز هذا الى صرف غير المسلمين عن الالتفات الى الاسلام ، باثارة هذا الجو المريب حوله ، حتى لا ينظر فيه أولئــك الذين خلت نفوسهم من الدين ، من أهل أوربا وأمريكا ، الذين اصطدمت معارفهم العلمية بقضــايا الدين الــذى ورثوه ميراثا عن آبائهم وأجدادهم ، والذى استبان لهم منه بعد أن عرضوه على أضواء العلم الحديث أنه لا يلتقى مع عقل ، ولا يستقيم على منطق ، فهجروه ، وزهدوا فيه ، وأصبحوا على غير دين ، الأمر الذى لا يصبرون طويلا عليه ، اذ لابــد أن يطلبوا دينــا ، تعيش فيه مشاعرهم ، وتتغذى منــه أرواحهم ، حيث لا يمكن أن يعيش انسان ــ أى انسان ــ من غير دين !!

دعوى وتفنيــدها :

ونعود الى قضية السيف التى يدعيها المدعون على الاسلام ، وأنه قام عليه ، وفتح طريقه الى القلوب به ــ فنقول :

انه لو كان أمر الاسلام أمر قوة مادية ، لما كان فى الحياة اليوم انسان يدين بالاسلام ، ولما كانت دعوة الاسلام أكثر من حدث من أحداث

التاريخ ، عاش فى الحياة زمنا ، ثم طواه الزمن فيما طوى من وقائع وأحداث .

فهل هذا هو واقع الاسلام ؟ وهل هذا هو شـأنه فى وقائع الحياة وأحداثها ؟ ان الأمر لعلى عكس هذا تماما ..

وان شهادة الواقع لا تحتاج الى بيان .. فهى ناطقة بأفصح لسان ، بأن دولة الاسلام تزداد على الأيام امتدادا واتساعا ، وأن زحفه السلمى المكتسح لم يتوقف لحظة واحدة ، حتى فى أقسى الظروف وأحلكها ، التى مرت بالاسلام ، وألقت بكل ثقلها عليه ..

لقد قطع الاسلام من حياته المباركة أربعة عشر قرنا .. وانه اذا سلمنا بالقول بأن الاسلام قام على السيف والقوة فى أول حياته، فانه محال أن يسلم بالقول بأن ذلك السيف وتلك القوة قد صحبا الاسلام ، وكانا مستندا له على امتداد هذا الزمن كله ..

فما عرف الناس فى الحياة قوة تظل حارسة ساهرة لمبدأ من المبادىء أو نزعة من النزعات ، أكثر من سنوات معدودات .. لجيل أو جيلين من الناس .. أما أن تظل هذه القوة قرونا متطاولة من الزمن ، قائمة على حراسة مذهب من المذاهب ، أو نزعة من النزعات ، فذلك ما لم يكن ولن يكون أبدا .. ان القوة انمـا تخدم غرضا ذاتيـا يعيش فى كيان انسـان من الناس ، أو جماعة من الجماعات ، ولن تتجاوز حياتها بحال حياة الجيل الذى يعيش فيه هذا الانسان أو تلك الجماعة .. ثم يموت المبدأ أو المنزع ، بموت القوة التى أقامته ، وحرسته !

ونفترض ـــ جدلا ـــ أن تقوم قوة ما لخدمة غاية من الغايات أجيالا متعاقبة ، ونفترض ـــ جدلا كذلك ـــ ، أن هذه الأجيال قد تواصت فيما بينها على اتخاذ هذه القوة حارسة على هذه الغاية التى تنشدها وتعيش فيها ..

فهل حدث هذا فى المجتمع الاسلامى ؟ وهل كانت القوة دائما الى جانب الاسلام ، تحرسه ، وتدافع عنه ؟

التاريخ يشهد شهادة لاشك فيها ـ وواقع المسلمين اليوم ينطق بها ـ بأن دولة المسلمين التى قامت فى صدر الاسلام ، والتى كان لها ما كان من قوة وسطوة ـ هذه الدولة ، قد تفككت وانحلت بعد ثلاثة قرون ، وعراها الوهن والضعف ، وأصبحت دولة الاسلام امارات ودويلات متنابذة متخاصمة ، وخضع كل صقع من اصقاع هذه الدولة ، لقوى غاشمة طاغية ، تضمر للمسلمين كل عداوة ، وترصد للاسلام كل شر ..

لقد وقع الاسلام والمسلمون فى وجه عواصف عاتية جائحة ، للغزو البربرى ، الذى كان من شأنه أن يدمر كل شىء ، ويأتى على كل شىء ، لولا قوة هذا الدين ، وما غرس فى أتباعه من معالم الحق والخير .. وحسبك أن تذكر هنا الغزو التترى ، أو الغزو المغولى .. فما مر أحدهما بموطن من المواطن الا أحاله خرابا يبابا .. ثم حسبك أن تذكر الحروب الصليبية التى ساقت فيها أوربا كلها جميع ما لديها من قوى لتدك حصون الاسلام ، وتأتى على قواعده ، وقد ظلت الحروب الصليبية هكذا عدة قرون ، ترمى المسلمين ، وأوطان المسلمين بكل ما لديها من وسائل الاهلاك والتدمير ، ومع هذا ظل الاسلام حيا نابضا بالحياة ، بل وتحول وهو واقع تحت الغزو الى قوة غازية تغزو الغازين ، وتفتح عقول وقلوب كثير منهم الى هذا النور الذى يشع منه دائما ، والذى يزداد ـ مع أطباق الظلام عليه بريقا ـ وضياء ، وحسبك أن تذكر هنا أن التتار الذين كانوا وحوشا ضارية ، قد صافح الاسلام قلوبهم ، فدخلوا فى دين الله ، وتحول بهم هذا الدين من عالم الوحشية والهمجية الى عالم الانسانية ، وفى المستوى الكريم منها .. ثم بحسبك أيضا أن تذكر الاستعمار الغربى الذى تسلط على قارتى أفريقيا وآسيا ، حتى لقد كانت مواطن الاسلام كلها تحت يده .. فما حل الاستعمار بأرض الا أجدبت من كل خير ، وأصبحت مرعى خصبا لآفات الجهل والفقر والضعف .. ومع هذا كله ، ومع ما أصاب المسلمين من بلاء ، فقد بقى الاسلام فى قلوب أهله متمكنا قويا ، لا يتحولون عنه أبدا ، ولو أخذوا بكل ألوان الضر والأذى ، فى أموالهم وأنفسهم ، أو جىء اليهم بكل مغريات الحياة من مال ونساء على يد المستعمرين والمبشرين ..

فتاريخ الاستعمار للدول الاسلامية ، يؤلف كتابا ضخما ، أسود الصفحات ، لما كان يأخذ به المستعمرون الامم الاسلامية بصفة خاصة ، والعربية بصفة أخص ، من بغى وعدوان ، وتسلط قاهر ، على مقومات الحياة فى تلك الأمم ، وخاصة ما يتصل بالعقيدة الدينية ، وما تلقاه عنها أهلها من لغة وعادات وتقاليد ، وذلك ليضعفوا الصلات التى تصل المسلمين بدينهم ، وليوهنوا من الأسباب التى تربط جماعاتهم .. ومع هذا كله فقد بقى الاسلام متمكنا فى القلوب ، راسخا فى الضمائر ، مختلطا بالمشاعر ، لم يسلم للمسلمين شىء غيره ، مما كان لهم فى هذه الدنيا ، التى سلبهم الاستعمار اياها ، أو قتلها ، حيث لم يكن له حاجة فيها .. وكان الاسلام دائما هو القوة التى يستند اليها المسلمون ، كلما خذلتهم قوى الحياة جميعا ، من علم ، ومال ، ورجال ..

وتاريخ التبشير الالحادى فى المحيط الاسلامى يحدث عن أكبر هزيمة ، وأعظم خيبة منى بها عمل من الأعمال ، أو أصيبت بها حركة من الحركات ، أو انتهت اليها دعوة من الدعوات .

فما استطاعت تلك الحملات التبشيرية التى رصدت لها دول أوربا وأمريكا الأموال الضخمة ، وجندت لها العقول الجبارة — ما استطاعت هذه الحملات أن تنال من الاسلام منالا ، أو أن تحول مسلما واحدا عن دينه ، أو تفتنه فيه ، بل كان المسلم الأمى الساذج ، يفحم بفطرته السليمة ، وبعقيدته السمحة الواضحة كل منطق ، ويخرس كل ذى لسان ، حين يرفع بصره الى السماء قائلا : « لا اله الا الله » . !

فاذا ادعت حملة من حملات التبشير أنها استطاعت بحولها وحيلتها أن تخرج مسلما عن اسلامه ، فقد كذبت وافترت ، لتخدع اولئك الذين يمدونها بالمال ، كى يدوم لها هذا المدد .. فانها — وقد فاتها الكسب الدينى — حريصة على الا يفوتها الكسب المادى من هذا المال الذى يتدفق اليها فى سخاء من كل جهة ، وانه لمال كثير ، أثرى به عدد وفير من أدعياء الدين ، الذين يتخذون التبشير تجارة لهم ، ودعاية للاستعمار ، وتمكينا للمستعمرين ..

نريد من هذا ان نقول ، ان الاسلام بقوته الذاتية ، هو الذى حمى المسلمين فى ساعات العسرة ، وأمسك بهم على ضربات الزمن القاتلة ، وأمدهم بامداد لا تنفد من القوى الروحية ، التى لم تنل منها يد التسلط والبغى ، ولم تنفذ اليها ضربات المتسلطين والباغين .. وانه لولا الاسلام لما بقى لمواطن المسلمين معلم من معالم الحياة ، يعرفون به مكانهم فى هذا التيه الذى رماهم الزمن بـه .

فالمسلمون ليسوا هم الذين وسعوا رقعة الاسلام ، ومكنوا له فى الأرض ، ودفعوا به الى كل أفق من آفاقها ، بل الاسلام نفسه هو الذى جعل للمسلمين دولة .. والاسلام نفسه هو الذى غذى هذه الدولة بأسباب الحياة والنماء .. والاسلام نفسه هو الذى كان الدرع الواقية والحصن الحصين لأهله ، يلوذون بـه ، ويستظلون بجناحه ، كلما لفحهم هجير الحياة ، وتعاوت حولهم الذئـاب ..

ان الذى كان يمكن أن يكون موضع طعن فى الاسلام لمن تسول له نفسه الطعن فيه ، هو أن يتجه بذلك الى مبادئه وأحكامه .. أهى حق أم باطل ؟ أهى خير ورحمة للانسانية أم هى شر ووبال عليها ؟ وهل سعدت الانسانية فى ظل الاسلام أم شقيت ؟ وهل هذه المئات من الملايين التى تدين بالاسلام اليوم مكرهة عليه ، وواقعة تحت قوة قاهرة ، تحملها عليه ، وتلجئها الى التمسك به ؟ .

هذا ما كان ينبغى أن يكون مدار هذه الدعوى ، ان كان لابد من دعوى يدعيها أعداء الاسلام على الاسلام ..

أما تلك الدعوى الخبيثة التى تتجه اتجاها مباشرا الى تجريد المسلمين من القوة ، وخلق عقدة نفسية بينهم وبينها ، فذلك هو الغرض الذى تحاول تلك الدعوى أن تحققه فى المجتمع الاسلامى ، ليتعرى من القوة وأسبابها ، وليظل أعزل من كل سلاح ، على حين يعمل اعداء الاسلام والمسلمين جاهدين على الاعداد للقوة ، والأخذ بكل أسبابها .

القوة أمر لابد منه :

ثم ما الاسلام ؟ أهو مجرد مبادىء وأحكام ملقاة فى العراء ، لا يلتفت اليها أحد ، ولا يتأثر بها انسان ، أم هو مبادىء وأحكام ، يؤمن بها الناس ، ويعيشون فى ظلها ، ويعملون بوحيها ؟

وقد يصح أن يكون الاسلام مجرد مبادىء وأحكام ، وذلك فى معرض الدراسات النظرية التى تعنى بدراسة الأفكار وتمحيضها، دراسة فلسفية نظرية ، بعيدة عن مجال التطبيق العملى لها .

أما حين تصبح هذه المبادىء وتلك الأحكام فى مواطن العقول ، وفى قرارة القلوب ، وفى خلجات الضمائر ، ومسرى المشاعر ، فانها اذ ذاك لا يمكن أن تكون شيئا منفصلا ، له حقيقة مستقلة ، تقع عليها أحكام خاصة بها .

فدعوى ان الاسلام قام على السيف ، لا يمكن أن توجه الى الاسلام فى مبادئه وأحكامه ، وقد رأينا كيف عاش وسيعيش الاسلام بلا سيف ولا قوة ، قرونا متطاولة ، لا تنتهى الا بانتهاء الحياة ..

وانما تتجه هذه الدعوى — قبل كل شىء — الى المجتمع الذى يدين بالاسلام ، ويعيش فى ظل أحكامه وتعاليمه ..

ومع هذا نستطيع أن نقول ان وجه الدعوى يجب أن يكون على هذا الوضع : « المجتمع الاسلامى مجتمع قام على السيف .. » وحينئذ يمكن أن تسمع هذه الدعوى ، وتكون موضع نظر وبحث ..

فالدعوة الاسلامية — فى ذاتها — لم تقم على السيف ، وانما الذى قام على السيف ، وكان لابد أن يقوم عليه دائما ، هو المجتمع البشرى الذىانضوى تحت لواء هذه الدعوة،ثم امتد وامتد حتىصار دولة عريضة طويلة ، تنتظم شطر العالم أو أقل من شطره قليلا .

وطبيعى أن مجتمعا كهذا المجتمع فى الامتداد والسعة ، لايمكن أن يكون أعزل من السلاح ، مجردا من القوة .. فان طبيعة الحياة تأبى أن يعيش الضأن مع الذئاب .. بل لابد أن يكون هناك توازن فى القوى ، والا ، فالويل للضعيف !

ان المجتمع الاسلامى — كأى مجتمع فى الحياة — له ذاتيته المتميزة وله وجهته وفلسفته فى الحياة .. وطبيعى أن تقوم فى ظل هذه المعانى عصبية ، هى التى تجتمع عليها الامم والشعوب ، وتقيم منها وحدة مميزة فى مشاعرها ،، ومنازع أفكارها ، ومتجه سلوكها .. كما كان لابد أيضا أن يتعصب على هذه الامم وتلك الشعوب أعداء يخافون قوتها ، أو يطمعون فى ضعفها ، ومن هنا يكون الصراع الذى لابد منه فى الحياة ، والذى لابد له من قوة ، ولابد لهذه القوة من سيف ، بل ومن سيوف !

ونعود فنذكر من نسى ، فنقول : ان اليوم الذى تخلى فيه المسلمون عن القوة ، كان هو اليوم الذى فيه حينهم ومصرعهم ، بأيدى من يملكون القوة .. ثم لم يكن للمسلمين حينئذ من قوة يستندون اليها الا الاسلام ، الذى منحهم الايمان ، والصبر ، والعزم ، وعمر قلوبهم باليقين بأن شاطىء النجاة قريب منهم ، ان هم تمسكوا بدينهم ، وقاموا على شريعته ، وأخذوا بهديه ، والتمسوا أسباب القوة المادية التى أمرهم الله بها فى قوله تعالى : « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** » الى جانب القوة الروحية التى عمر الاسلام قلوبهم بها .. ومن خلال هذه المشاعر كانت تنقدح فى صدور المسلمين شرارات الأمل والرجاء ، فيشتد عزمهم ، ويقوى ايمانهم ، وتذهب وحشتهم ، وهم فى صحبة دينهم ، وفى ظل مما يفىء عليهم من خيره الكثير .

سيف دفاع لا هجوم :

ان السيف الذى فى يد أتباع الاسلام هو سيف حارس للسلام ، لا يسل من غمده أبدا الا حين تسل له سيوف الأعداء ، والا حين تعدو عليه قوى البغى والعدوان .. فكيف اذن يراد من الاسلام

أن يخلي يده من السيف ، وسيوف الاعداء مسلولة عليه ، ورماحهم مشرعة لهم ؟ .. فعلى أى منطق يقوم هذا القول ، وعلى أى وجه يقبل ؟ أيستقيم على عقل أن يؤخذ باللوم والتأنيب من يعيش فى غابة مليئة بذوات المخالب والأنياب اذا هو حمل بين يديه سلاحا يدفع به ذا مخلب يهجم عليه ، أو ذا ناب يحاول أن يفتك به ؟

فلنحذر اذن هذه الدعوى الخبيثة ، التى تجعل من تهم الاسلام عندها ، أنه قام على السيف ، ولنعدل موقفنا تجاه هذه الدعوى ، فاننا — عن حسن نية — قد عملنا جاهدين على دفعها ، وتبرئة ساحة الاسلام منها ، كما أننا حمدنا لبعض المستشرقين — ونواياهم معروفة — ما كان منهم من دفاع فى تبرئة ساحة الاسلام من هذه التهمة !!

والاسلام فى غنى عن الدفاع فى وجه هذه الفرية الخبيثة ، التى يراد من ورائها أن يتخلى المسلمون عن كل قوة ، وأن يقتلوا من أنفسهم كل عصبية تجمعهم على الاسلام ، ليقيموا من هذا شاهدا على أنهم أهل سلام ، ومسالمة ، فلا يلقون القوة بالقوة ، ولا يردون العدوا بالعدوان ، وحينئذ يمكن أن ينفوا عن دينهم أنه دين أقامته يد البطش والقوة ، وأن الناس قد جاءوا اليه طائعين ، لما فيه من مبادىء انسانية ، ينعم الناس فى ظلها بالأمن والسلام !

هذا هو الكيد الذى يكيد به أعداء الاسلام له ، ليجردوا أتباعه من كل ما من شأنه أن يقتل أطماع الطامعين فيهم ، وبهذا تتسلط عليهم يد البغى والعدوان ، فلا تبقى لهم أثرا على وجه هذه الأرض !

ونسأل : هل حين زايلت القوة مواطن الأمة الاسلامية ، وحين لم يكن فى يد المسلمين هذا السيف الذى يشهرونه فى وجه أعدائهم ، ويقطعون به الأيدى التى تمسك بهم صيدا لها — هل شفع هذا للمسلمين أن يعيشوا فى سلام داخل أوطانهم ؟ وهل رد عنهم ذلك أطماع المستعمرين ، الذين استباحوا ديارهم ، ودماءهم وأعراضهم ؟

الا ليت للمسلمين اليوم بدل هذا السيف ما لأمريكا من مخـازن القنابل الذرية والهيدروجينية ، التى تهزها أمريكا فى يدها ، مهددة متوعدة العالم كله باطلاق هذا الجحيم من يدها ، فلا يجرؤ أحـد على الوقوف فى وجهها ، أو التردد فى الانصياع لحكمها — اذن لما أمكن أمريكا أن تطلق هذه الكلاب المسعورة المدموغة بنجمة اسرائيل ، وتدفع بها الى مواطن الاسلام ، وتخرج أهلها منهـا عراة مشردين فى وجوه الأرض ، وتضع يدها الدنسة على الأرض المقدسة ، وفيها بيت المقدس ، أول قبلة للاسلام ، وغايته مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام !

الا ليت سيوف المسلمين تبعث اليوم من جديد ، لتعيد للاسلام مجده ، وللمسلمين عزتهم وكرامتهم ، ولتخرج هؤلاء الحيات أبنـاء الأفاعى من أجحارهم التى اندسوا بها فى كيان الأمة العربية ، كما أخرجت آباءهم من قبل : بنو قينقاع ، وبنو قريظة ، وبنو النضير ، وطهرت ربوع الاسلام من أرجاسهم !

فليت ، ثم ليت ، ثم ليت !!

وهذه دعوة الله تعالى الى المؤمنين : ((**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوء الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم**)) .. وهذا أنسب أوقاتهـا ، وأقوى أسباب دواعيها .. فهل يستجيب المسلمون لهـا ، وهل يعدلوا عن ابتناء القصور الشامخة ، وركوب المراكب الفاخرة ، الى الانفاق فى سبيل الله ، واقامة مصانع الحرب ، وعدد القتال ، ليحموا أوطانهم ، وأعراضهم ، ويملكوا أمر أنفسهم ، والثروات التى فى أيديهم ؟ ذلك ما نرجوه ونتمناه على الأيام !!

خاتمة

خاتم النبيين.. وما يقول السفهاء من الناس

« يأيها النبى .. انا أرسلناك شـــاهدا ومبشرا ، ونـــذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا » (٤٥ ــ ٤٦ الأحزاب)

الذين يحاربون الاسلام ويكيدون له ، يلتقون على مختلف نزعاتهم وتباين غاياتهم ، وتعدد مناهجهم ــ على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسوق المفتريات اليه ، وادعاء الأباطيل عليه .. فاذا كان فى أعداء الاسلام من يتجه الى القرآن الكريم بالطعن فى أنه من عند الله ، ويأتى على ذلك بالزور والبهتان ، واذا كان فيهم من يقيم من ظاهر آيات القرآن ومن الانحراف فى تأويلها ، دليلا على قصور الشريعة الاسلامية عن الوفاء بحـــاجات المجتمعات الانسانية ، وأنها فى أحسن أحوالها لا تصلح الا لمجتمع البادية ، وما طبعته به الحياة هناك من عادات وتقاليد ــ اذا كان فى اعداء الاسلام من يذهب هـــذه المذاهب ــ وهم كثير ــ فان الطعن فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومحاولة النيل منه ، هو عمل مشترك بينهم جميعا ، يبدءون به ، وينتهون عنده ، وان اتخذوا بين البدء والنهاية طرقا شتى ، ومسالك مختلفة ..

ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو صاحب الرسـالة ، ومبلغها ، والمبين لأحكامها ، والشـارح لقضاياها ، فاذا أمكن النيل من النبى ووضعه موضع الشك والاتهام ــ وحاش لله أن يطوف بحماه شك ، أو يعلق بمقامه اتهام ــ فان ذلك يكفيهم مئونة هـــذه الحروب الطويلة المتصلة بينهم وبين القرآن ، وشريعة القرآن ..

من هنا نجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان منذ أذن فى الناس أنه رسول الله ــ هدفا أول ، لتكذيب المكذبين ، وافتراء المفترين ،

من المشركين ، واليهود .. فقالوا فيه مقولات فاجرة كاذبة ، ذكرها القرآن الكريم على لسانهم .. ومن ذلك قوله تعالى : **((وقالوا يايها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون ، لو ما تاتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين))** (٦ ــ ٧ : الحجر) وقوله سبحانه : **((أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون))** (٣٠ : الطور) وقوله تبارك اسمه : **((بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون))** (٥ : الأنبياء) .. وقوله له جل شأنه : **((أألقى الذكر عليه من بيننا ، بل هو كذاب أشر))** (٢٥ : القمر) الى كثير من المقولات التى أراد بها المشركون ، ومعهم اليهود ، أن يبطلوا دعوى النبى انه رسول الله وأن ما يتلوه هو كلام الله .. ومع هذا اللجاج ، واللدد فى الخصومة والعناد ، فقد تكسرت نصالهم على صخرة الحق، ورد كثير منها الى نحورهم فأصاب منهم المقاتل !

القرآن وشخصية الرسول :

وقبل أن نعرض لقولات المفترين على رسول الله صــلى الله عليه وسلم ، وما صوبوا من سهامهم الى شخصه الكريم ، نود أن نعرف من هو رسول الله ؟ وما هى الصفة أو الصفات التى وصفه القرآن بها ! وما هى النظرة التى ينظر بها اليه ؟

والمسلمون جميعا ، أولهم وآخرهم على أمر واحد فى رسول الله ، وهو أنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، وأمه آمنة بنت وهب ، ولد يتيما ، فقيرا ، ونشأ بين لداته من قومه ، صبيا، وغلاما، وشابا، لم يخرج عن مستوى الاعتدال فى أى حال من أحواله الجسدية ، أو النفسية ، أو العقلية ، فلم يرتفع عن هذا المستوى ارتفاعا لم تألفه الحياة ، بل كان فى جميل خلقه ، وحميد سيرته ، بحيث يجد المجتمع لكل خلق من أخلاقه ولكل فعل من أفعاله مثلا فى فلان أو فلان من كرام قومه ، وان تفرقت هذه الأخلاق فيهم ، واجتمعت له وحده ، على صورة هادئة هدوء النسيم ، رقيقة رقة النور ، ليس فيها ما يعشى الابصار ، أو يحير الألباب ..

فلما اصطفى الله محمدا لرسالته الى الناس ، لم يخرج بذلك عن حاله التى كان عليها ، ولم يفاجأ الناس بمعجزات خارقة تتفجر من

بين يديه ، بل انه صلوات الله وسلامه عليه ، لم يكن من شأنه أن يستجيب لتحدى قومه له ، وما يقترحونه عليه من معجزات مادية تجيء وفق ما يطلبون لتكون شاهدا على صدقه . فيقول سبحانه : **« وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون ، لوما تأتنا بالملائكة ان كنت من الصادقين »** (٦ — ٧ : الحجر) **« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه »** (٩٠ — ٩٣ : الاسراء) ويتولى الله سبحانه وتعالى الرد عليهم على لسان نبيه الكريم ، فيقول : **« قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا »** (٩٣ : الاسراء) .. ويقول تبارك اسمه : **« قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون »** (١٨٨ : الأعراف) .. ويقول جل شأنه : **« قل ما كنت بدعا من الرسل ، وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ، ان أتبع الا ما يوحى الى »** (١٥ الاحقاف) .

وهكذا يقف الرسول الكريم مع قومه على قدم المساواة أمام سلطان الله ، وقدرته ، وتقديره ، وتدبيره .. انه ان فضل عليهم بشيء فذلك من فضل الله عليه ، يتلقى من فضل الله واحسانه ما يشاء الله تعالى ، شأنه فى ذلك شأن عباد الله جميعا ، وما ينال كل واحد من عطاء الله المقسوم له : **« يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانا واناثا ، ويجعل من يشاء عقيما انه عليم قدير »** (٤٩ — ٥٠ : الشورى) .. فما يستطيع من يولد له الاناث أن يجعل مواليده ذكورا ، ومن كان منهم عقيما لا يستطيع أن يكون ولودا : **« نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون »** (٣٢ : الزخرف) .

وأكثر من هذا ، فانه فى مقام الوعيد ، يأخذ الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — مكانه بين البشر ، فهو واقع تحت المسئولية أمام سلطان الله وعدله .. انه لا محاباة أمام عدل الله سبحانه .. انه يزان واحد ، « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى

الذين أحسنوا بالحسنى » (٣١ : النجم) .. وفى هذا يقول سبحانه عن النبى الكريم : **«ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين »** (٤٤ — ٤٧ : الحاقة) ويقول تبارك اسمه : **« لئن أشركت ليحبطن عملك »** (٦٥ : الزمر) .. ويقول جل شأنه : **« ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير »** (١٢٠ : البقرة)

وما كان للرسول — صلوات الله وسلامه عليه — أن يتقول على الله ، وما كان له أن يشرك بالله ، وما كان له أن يتبع أهواء قومه الضالين .. ولكن هكذا يكون الحساب عند الله ، لو أنه حدث شىء من هذا ، وهو محال أن يحدث ، وذلك من شأنه أن يضع الرسول الكريم والناس جميعا على سواء .. انه ليس له من الأمر شىء ، وليس له مع سلطان الله سلطان ..

وهكذا تتنزل آيات الله تعالى بالحق ، ليحملها الرسول الى الناس كما تنزلت عليه ، كلمة كلمة ، وآية آية ، ليس فيها كلمة واحدة مضافة اليه !

ولو كان محمد — صلوات الله وسلامه عليه — هو الذى جاء الى الناس من عند نفسه ، بدعوى انه رسول من عند الله اليهم لما جاءهم على تلك الصورة التى تجرده من كل قدرة ذاتية له ، بل لادعى ما يدعيه السحرة ، والمشعوذون ، والكهان ، الذين عرفتهم الحياة ، وكان لهم فى الناس من تستهويه الاعيبه ، وحيله ، وشعوذته ، ولأراهم من نفسه أنه ذو قدرة خارقة ، وذو شأن عجيب ، يملك فى كيانه من القوى الذاتية ما ليس للناس جميعا شىء منه !

هذه واحدة ..

وأخرى ، هى أن شخصية رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — شخصية من أوضح شخصيات الانسانية التى سجلتها صحف التاريخ الموثقة بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة ، التى ان أنكر الناس الشمس ودورتها فى الفلك ، كان لهم أن ينكروا « محمدا » وظهوره فى هذه الفترة من التاريخ وفى هذا المكان من العالم .

ولله تعالى فى هذا حكمة وتدبير !

فقد أراد الله تعالى للنبوة المحمدية أن تكون فى هذا المكان الذى ينكشف فيه للناس كل شىء ، ويتعرى للحياة فيها كل شىء .. بيئة عارية من كل ما يستر أو يكن .. فلا مدن صـــاخبة ، ولا أدغال متشابكة ، ولا قصور ، ولاقلاع ، ولا حصون ، يستطيع أن يعيش فيها الانسان ، وأن يقيم دنياه كما يشاء ، دون أن يطلع الناس من أمره على كل دقيق أو جليل .. يظهر متى يشاء ، ويختفى متى يريد !

ان حياة البادية عارية من كل هذا ، والناس فيها عراة ، والخيام أو الحجر التى يسكن اليها الناس ، لاتكتم سرا ، ولا ترد سمعا أو بصرا عما يدور فيها .. انها أشبه بالثياب التى يرتديها الناس ، قد تنفع فى اتقاء حر أو برد ، ولكنها لا تنفع فى الاحتجاب عن الناس والتستر دونهم .

ان أهل البادية فى فراغ ، وخاصة سكان القرى الذين لايشغلون بشىء حتى برعى الابل والغنم .. أما أهل مكة ــ البلد الحرام ، ومبعث النبى ــ فلم يكن لهم من عمل الا التجارة : قافلة فى الشتاء الى اليمن ، وأخرى فى الصيف الى الشام ، يندب لها جماعة منهم .. ولم تشغلهم تلك الحروب التى كانت تشغل أحيانا سكان البادية ، اذ كانوا أهل بيت الله الذى تعظمه العرب ، وتعظم جيرته ، لايعتدى عليهم ، ولا يعتدون !!

فهذا الفراغ الذى يعيش فيه سكان البادية ، وســـكان القرى بخاصة ، وأهل مكة بوجه أخص ــ قد جعل الناس يشغلون بالتافه من الأمور ، ليقطعوا به الوقت ويجعلوه مادة حية للحياة !

فاذا وقع فى هذه البيئة حدث ، التفتوا اليه جميعا . وقاموا له وقعدوا ، وان يكن مثل هذا الحادث مما لا يلتفت اليه غيرهم من سكان الحضر حيث يغرق فى خضم الحياة الصاخبة هناك .

فاذا ظهر فى صحراء العرب نبى ، فما ظنك بما يقع فى حياة الناس من هذا الحدث ؟ تصور أن الجبال تتبادل مواقعها ، والشمس تغير

مشرقها ومغربها .. أو تصور ما شئت من المذهلات والأعاجيب فى الأحداث ، ووقعها على الناس ـ فانك لن تدانى تلك الصورة التى وقعت بقريش ومن حولها حين طلع عليهم « محمد » بقوله : انه رسول رب العالمين !!

لقد وقع انقلاب شامل فى حياة الناس ، فأخلوا أنفسهم من هذا الفراغ الذى هم فيه ، وفرغوا بكل جوارحهم وعقولهم وقلوبهم لهذا الحدث الجلل العجيب !

ولك أن تحصى عيون أهل مكة وما حولها ، عينا عينا ، وآذانهم ، اذنا اذنا ، وعقولهم عقلا عقلا ، وقلوبهم قلبا قلبا ، والسنتهم ، لسانا لسانا ، وايديهم ، يدا يدا ، وأرجلهم رجلا رجلا ، ثم ان لك بعد هذا أن تضيفها كلها الى حساب « محمد » والى استطلاع أنبائه ، ورصد حركاته مدة الثلاثة عشر عاما التى عاشها نبيا فى مكة قبل الهجرة ، والسنوات العشر التى عاشها بعد الهجرة .. ان هذه الجوارح جميعها لم تكن تعمل خلال تلك المدة الا لحساب « محمد » ومن أجل « محمد » .. له ، أو عليه ، موالية أو معادية !

فهل تظن بعد هذا شيئا يخفى من حياة « محمد » عن القوم أو يفلت من أيديهم والسنتهم ؟

وهل تستطيع أن تقع فى الحياة ـ طولا وعرضا ـ على حدث من الأحداث ، أو شخصية من الشخصيات ، وقعت تحت ملاحظة الناس ، مثل ما وقع لمحمد من أهل مكة والمدينة وما حولهما ؟ .. ذلك بعيد !!

فاذا أضفت الى هذا ما كان من صحابة « محمد » ومن ولائهم له ، وامتزاجهم به ، هذا الامتزاج المادى ولنفسى ، فى الحل والترحال ، وفى السلم والحرب ، فى المسجد وخارج المسجد ، فى ليله ونهاره ، فى يقظته ونومه ، فى حديثه وصمته ، فى قيامه وقعوده ، فى مشيه وركوبه ـ كان من كل أولئك اعداد لا حصر لها من الوثائق والسجلات المتشابهة المتطابقة ، التى تسجل حياة « محمد » لحظة لحظة ، وتحصيها نفسا نفسا وحالا حالا ..

ما وجه الحكمة فى هذا كله ؟

نستطيع أن نجد لهذا التدبير السماوى فى شأن « محمد » على هذا الذى كان من كشف شخصيته للناس ، ووقوفهم على جميع أحواله — أكثر من وجه ، وأكثر من دلالة ، وأكثر من حكمة :

فأولا : هذا الكمال الانسانى الذى اشتمل عليه « محمد » كان ينبغى أن يشهده الناس عيانا ، وأن يملأ وجودهم ، اذ ليس فى الحياة مثل هذا الكمال البشرى المتاح للناس أن يشهدوه مرة أخرى ، وأن يأخذوا بحظوظهم كاملة منه !

وثانيا : أن رسالة « محمد » — كما أشرنا من قبل — رسالة عقلية ، تعتمد على الحجة الواضحة ، والمنطق القويم ، وأن «محمدا» — صلوات الله وسلامه عليه — وقف من هذه الرسالة موقف المدافع عنها فى وجه خصومة عنيفة ، قد اتخذ أصحابها من الكلام بضاعة وصناعة ، فلا بد اذن أن يكون « محمد » قائما من وراء رسالته ، يدفع كيد خصومها ، ويدحض باطلهم ، ويكشف عن سفههم وضلالهم .. ومن أجل هذا كانت تلك الرسالة من بين الرسالات السماوية كلها « منجمة » لم تنزل مرة واحدة ، بل ظلت نحو ثلاثة وعشرين عاما ، تتنزل آية آية ، وآيات آيات ، حسب دواعى المواقف ، وحاجات النـــاس !

ولو نزل القرآن جملة واحدة — كما كان يقترح المشركون — لكانت مهمة الرسول سهلة ميسرة ، اذ تكون فى هذه الحالة على صـــورة متعارف عليها ، بين أوليائها وخصومها ، وتكون الخصومة فيها على واقع معروف ، وكان يكفى فى هذا أن يدفع بها النبى كاملة الى الناس ، ويدعهم وشأنهم بها ، أو يعيد تكرارها عليهم مرة ومرة ، دون أن يجيئهم بجديد ، يفتح للعقول مجـــالا للنظر ، وبابا للجدل والخصام !! وبهذا التدبير الالهى الذى نزل به القرآن منجما ، ظل مادة حية للأخذ والرد بين الناس .

وثالثا : من وجوه الحكمة فى كشف شخصية «محمد» — صلوات الله وسلامه عليه — ان رسالة « محمد » ليس بين يديها معجزة من المعجزات المادية ، وانما معجزته التى بين يديه ، هى القرآن الكريم ، والمعجزة فيه شائعة بين آياته وسوره ، يعجز كثير من الناس عن ادراكها على وجه محقق . فكان لابد — لكى تتضح المعجزة

القرآنية ــ من أن يكون الذى يقوم عليها ، هو فى ذاته معجزة فى كمالاته ، وفى مقررات دعوته التى يدعو اليها .. فاذا دعت رسالته الى معروف ، أو نهت عن منكر ، ثم رأى الناس فى حياته ، وفى سلوكه تطبيقا كاملا واضحا لما يدعو اليه ، بان لهم وجه الاعجاز فى كلمات الله ، وتجسد لهم منها فى صورة « محمد » أكثر من معجزة !

هكذا كانت رسالة « محمد » .. تخير الله تعالى لها من صور الكلام أصدقه ، وأبلغه وأروعه ، وهو القرآن الكريم ، وتخير لحملها ، وعرضها أتم صورة من صور الأداء وأكملها ، وأعدلها ، وهو « محمد ابن عبد الله » والله سبحانه وتعالى يقول : **« الله أعلم حيث يجعل رسالته »** (١٢٤ : الأنعام) ..

تقول السيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ وقد سئلت عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « كان خلقه القرآن » .. فمحمد ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ كان آية من آيات الله .. كان قرآنا يمشى بين الناس ، فتشع منه أنوار الهدى ، كما تشع أضواء الحق من آيات الله وكلماته !!

ان كثيرا من الناس ، آمنوا بمحمد ، وصدقوا برسالته ، قبل أن يتلو عليهم آيات الكتاب الكريم ، وقبل أن يسمعهم كلام الله .. آمنوا بما آمن به ، وتابعوه دون أن يسألوه شيئا عما عنده من دلائل النبوة ومعجزاتها ، لأنهم رأوا فيه آية الآيات ومعجزة المعجزات ، فى أمره كله ، ظاهره وباطنه جميعا .. كذلك كان ايمان السابقين الأولين من صحابة رسول الله ، أبو بكر ، وعلى ، وعثمان ، وطلحة والزبير ، وسعد بن ابى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وبلال ، وعمار ، وأبوه ، وامه .. آمنوا جميعا بمحمد قبل أن ينزل عليه من القرآن الا آيات معدودات .

روى الترمذى ، ان عبد الله بن سلام ، قال : « لما قدم النبى المدينة جئته لأنظر اليه ، فلما تبينت وجهه ، عرفت أن وجهه ليس وجه كذاب ! » ..

وعن ابى رمثة التميمى ، قال : « اتيت النبى صلى الله عليه وسلم ومعى ابن لى ، فلما رأيته ، قلت : هذا نبى الله ! » .

وروى مسلم أن « ضمادا » لما وفد على النبى فى قومه ، خطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، من يهدى الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادى له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله » قال « ضماد » : أعد على كلماتك هؤلاء ، فلقد بلغن قاموس البحر(١) ، هات يدك أبايعك » .

وعن الجلندى — ملك عمان — أنه لما بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الاسلام ، قال : « والله لقد دلنى على هذا النبى الأمى ، أنه لا يأمر بخير الا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شىء الا كان أول تارك له ، وأنه يغلب فلا يبطر ، ويغلب فلا يضجر ، ويفى بالعهد ، وينجز الوعد ، وأشهد أنه نبى !! » .

هذا هو رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه : كما تنطق بذلك صحف التاريخ التى لايشك فيها حتى أعداء الاسلام الذين كادوا رسول الله ، قديما وحديثا !!

الذين يرجمون الشمس بالحصا :

ولا نريد هنا أن نعرض تلك المفتريات التى افتريت وتفترى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففى مجال الافتراء متسع لكل مفتر ، الأمر الذى لا يمكن أن يقف عند حد ، حيث يتوالد ويتكاثر حالا بعد حال ، كما تتوالد وتتكاثر الجراثيم فى البرك والمستنقعات ! وانما نود أن نقف عند فرية واحدة توارد عليها المفترون ، ونسجوا من خيوطها الواهية مقولات من الكذب والضلال ، يلقون بها فى ساحة النبوة ، كلما بدا لهم أن يتحككوا بالاسلام ، ويصرفوا الوجوه عن شمسه الساطعة ..

تلك الفرية ، هى أن « محمدا » صلوات الله عليه وسلامه عليه ، قد ظفر من دعوته تلك بأكبر مغنم ، وهو النساء اللاتى ضمهن الى بيته ، واحتجزهن لاشباع شهوته !

الا كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ان يقولون الا كذبا !!

---

(١) قاموس البحر : عمقه .. يريد انها نفذت الى قلبه .

ومتى ضم النبى الى بيته هذا العدد الكثير من النساء ؟ .

ان النبى صلى الله عليه وسلم قد قضى فورة الشباب عزبا لم يتزوج حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، على خلاف عادة قومه ، وطبيعة الحياة هناك ، حيث كان يتزوج الشبان فى سن مبكرة لاتتجاوز الرابعة عشرة ، أو الخامســـة عشرة من سنى العمر ، والذين يدخلون مرحلة الشباب ، ولا يتزوجون ، كانوا يقطعون ليالى الحياة مع الخليلات ، وأصحاب الرايات ، اللائى كن فى مكة مجتمع الشبان والشيوخ على السواء !

فهل عرفت قريش فى شباب « محمد » زلة أو هفوة فى هذا الأمر ؟ وهل وقعت عليه عين من عدو أو صديق أنه ألم بفاحشة أو طاف حولها ؟ انه لو حدث شىء من ذلك لما أنكرته عليه قريش قبل أن يعلن أنه نبى ، أما وقد جاءهم فى صورة نبى ، فان هذه الصورة كانت تهتز اهتزازا مدمرا ، لو أنهم كانوا أخذوا عليه هفوة أو زلة ، ولقالوا فيه ما يفضح داعى السماء على أعين الناس ! ..

ان قريشا لم تستطع أن تنطق بكلمة ــ ولو زورا وبهتانا ــ تعكر صفاء هذه السيرة النقية الطاهرة ، اذ كان الحق أكبر وأظهر من أن يتسع لقبول أية فرية ، ولو على سبيل المكابرة !!

ثم هاهو ذا « محمد » يتزوج وهو فى الخامسة والعشرين من عمره .. فمن تزوج ؟

لقد تزوج من خير نساء قريش حسبا ، ونسبا ، وعفة وطهرا .. خديجة بنت خويلد ، رضى الله عنها ..

وخديجة ، وان كانت على حظ موفور من الجمال ، الا انها كانت قد جاوزت مرحلة الشباب ، ودخلت فى دور الكهولة .. لقد كانت فى الأربعين من عمرها ، وكانت قد صرفت نفسها عن الزواج بعد أن مات زوجها ، الا أن تجد الرجل الذى ترضاه خلقا ، وتعشقه عظمة!! .. فكانت أن رضيت بمحمد زوجا ، بل وخطبته لنفسها ، ولم تجد حرجا فى أن تعرض هى نفسها للزواج منه !!

ثم ماذا ؟

لقد عاش رسول الله صلوات الله وسلامه عليه مع خديجة الى أن ماتت ، وقد جاوزت السبعين ، وهو لم يتجاوز الخمسين .. ثم لم يتزوج عليها امرأة أخرى الى أن لقيت ربها .. ومع هذا فقد ظل الرسول الكريم يذكرها ، ويترحم عليها ، ويشيد بفضلها ، وبموقفها منه ومن دعوته ، حتى لقد كان ذلك مبعث غيرة من عائشة رضى الله عنها ــ وهى تراه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ يحن لذكرها ، ولذكر كل ما يتعلق بها ، فكانت تقول له : مايعنيك من عجوز ، أبدلك الله خيرا منها ، فيقول ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ « والله ماأبدلنى الله خيرا منها .. لقد صدقتنى اذ كذبنى الناس » .. ذلك هــو موضع اعزاز رسول الله لها ، والاشادة بذكرها ، وهو تصديقها له اذ كذبه الناس !

ثم ماذا أيضا ؟

ثم لقد كان زواج من تزوج بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خديجة ، وبعد هجــرته الى المدينــة ــ كان ذلك ، وهو فى العقد السادس من عمره ، وفى حرب دائمة مشبوبة الاوار مع المشركين واليهود ، وفى سياسة المجتمع الاسلامى الكبير الذى دخل فى دين الله .. فهل فى مثل هذه السن العالية ، وفى مثل هذه الظروف المحيطة به ، يجد من فراغ البال ، وراحة الجسد ، ما يتيح له الفرصة للتمتع بالنســاء ؟

ان الذى يريد أن يفهم الوضع الصحيح لحال النبى مع المرأة ، يجب ألا يقصر نظره على هذا الجانب من الحياة ، جانب المرأة وحدها ، ويغفل الجوانب الاخرى من شهوات النفس ، التى تنزع اليها نزعات الانسان ، وتتجه اليها ميوله اتجاها قويا لا يقل عن الاتجاه الى المرأة والرغبة فيها ..

فهناك الى جانب شهوة المرأة شهوات أخرى مشبوبة فى كيان الانسان : تتوقد جمراتها وتغلى مراجلها .. هناك شهوة المال ، وشهوة الجاه والسلطان ، وشهوة الطعام والشراب ، وشهوات كثيرة من حياة الترف يقتتل الناس من أجلها ، ويفنون وجودهم فيها ، ويستهلكون أعمارهم فى الجرى اللاهث وراءها ..

ففى هذه الشهوات يتقلب الناس ، واليها يتسابقون ، وعليها يتزاحمون .. وليست واحدة منها بمغنية عن الاخرى ، بل ان بعضها ليغرى ببعض ، ويدعو اليه ، حتى لكأنها كائن واحد ، هى منه بمنزلة الأعضاء فى الجسد ، لا يكمل وجوده الا باجتماعها ، ولا يؤدى وظيفته الا بها مجتمعة !

وهل يكفى الرجل الذى ركبته الشهوة الى النساء ، أن يجد امرأة أو أكثر ، وهو فقير جائع ، فارغ الجيب والبطن ؟ انه لابد لكى يقضى وطره من تلك الشهوة ، أن يتغذى الغذاء الطيب ، وأن يوفر لجسده الراحة ، وأن يتيح له فرص الاستجمام من عناء مابذل فى قضاء تلك الشهوة ، كى يجد القدرة على الاستجابة لها ! .. ثم لابد لمثل هذا الانسان أن يطلب المال ويلح فى طلبه ، ويتهالك على جمعه ، كى يجد من النساء من يسكن اليه ، وكي يجدن فى جواره من متع الحياة ما يرغبهن فيه .. فليس يكفى المرأة أن تجد الرجل الذى يضمها الى نسائه ، ويمنحها حظا منه ، ثم لاتجد الحياة التى تتسع لمطالبها ، من كساء وغذاء ومتاع !

ونقول للذين قالوا ، أو يقولون فى نبى الاسلام ، من استكثاره من النساء ، وافراطه فى الحياة معهن : انظروا فى هذا الذى كان يحيط بالحياة الزوجية التى كان يحياها زوجات النبى معه ..

أكانت تلك الحياة حياة ترف ورفه ومتع مادية ولذات جسدية ؟ وهل من أجل هذه الحياة أحببن النبى ، وحرصن على السكن اليه والحياة فى ظله ؟

لقد شهدت الدنيا كلها أن الحياة المادية فى بيت النبى كانت حياة كفاف ، بل حياة جوع يكاد يكون متصلا ! كان النبى ــ صلوات الله وسلام عليه ــ يلقى أهله فيسأل : هل من طعام ؟ وكان أكثر مايكون الجواب : أن لا طعام .. فيحمد الله ، ويطوى نهاره صائما .. هكذا كان أغلب أيامه !!

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها ــ « ما شبع النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا من خبز ، حتى مضى لسبيله ! » .

وتقول : « لقد مات النبى صلى الله عليه وسلم ، وما فى بيته شىء يأكله ذو كبد ، الا شطر شعير فى رق لى ! » .

أما فراشه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ فكان أدما ــ أى جلدا ــ حشوه ليف .

أما البيت الذى يضم نساءه فهو « خوخات » أشبه بالأكواخ التى يتخذها رعاة البدو فى الصحراء ! يقول العالم الأمريكى «ول ديورانت» مما حققه من وثائق التاريخ ، وهو يصف بيت النبى فى المدينة : «كانت المساكن التى أقامها النبى واحدا بعد واحد ، كلها من اللبن ، لايزيد اتساعها على اثنتى عشرة ، أو أربع عشرة قدما ، ولا يزيد ارتفاعها على ثمان أقدام . . سقفها من جريد ، وأبوابها ستائر من شعر المعز أو وبر الجمل » (١) .

ونساء النبى ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ قد شاركنه هذه الحياة ، ووجدن فى جواره من أنوار النبوة وجلالها ما أسعدهن وأنساهن شظف العيش ، وخشونة الحياة ، فقد كان لهن من الغذاء الروحى الذى وجدنه فى ظلال النبوة زاد طيب يزرى بكل زاد ، ومتاع كريم يعلو كل متاع !

ومع هذا ، فقد شعر النبى صلى الله عليه وسلم بأن هذا الحرمان الذى يعيش فيه نساؤه ، ربما كان مفروضا عليهن بحكم الطاعة الواجبة للرسول ، والولاء له ، فهن كمسلمات ، مفروض عليهن أن ينزلن على حكم الآية الكريمة : **« من يطع الرسول فقد أطاع الله »** (٨٠ : النساء) والآية الكريمة أيضا : **« النبى اولى بالمؤمنين من أنفسهم »** (٦ : الأحزاب) . . كما شعر ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ وقد دانت له الجزيرة العربية كلها بالطاعة والولاء ، بحيث ملك بسلطانه الروحى الناس وكل ما يملك الناس ــ شعر أن هذا ربما ألقى فى نفوس نسائه أن أيام الجوع قد ولت ، وان حياة الشظف والجفاء قد ذهبت ، لتجىء أيام الرخاء والمتاع ، ولهذا أراد صلوات الله وسلامه عليه ، أن يعزل

---

(١) قصة الحضارة ، الجزء الثانى من المجلد الرابع ص ٤٥ .

هذا الشعور عن نسائه ، وأن يقيمهن معه على بينة من الأمر ، فجاءه أمر ربه ، يدعوه الى ان يعرض على نسائه قبول الحياة معه على هذا الأسلوب الذى يعيش عليه ، من ترفع عن متاع الحياة الدنيا وزينتها ، أو أن يطلق سراحهن بالطلاق ، ليحيين الحياة التى تروق لهن .. يقول الله تعالى : **« يأيها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن اجرا عظيما »** (٢٨ ــ ٢٩ : الأحزاب) .

فهاتان الآيتان ، تشهد الدنيا كلها فى غير لبس على الحياة التى كان يحياها النبى ونساؤه معه ، قبل الفتح وبعده .. انها حياة لايراد بها الحياة الدنيا وزينتها ، وانماهى حياة يراد بها الله ورسوله والدار الآخرة ..

هذا ما أذاعه القرآن على أسماع الناس ، وأعلنه فيهم على لسان النبى ، وشهدوا واقعه شهادة حضور فى حياة النبى وحياة زوجاته معه .. ولن يعقل أبدا أن يكون النبى وأزواجه فى حياة ناعمة رافهة ، ثم يجىء القرآن ليكشف هذه الصورة من حياة الحرمان فى بيت النبوة .. ان ذلك يهدم الدعوة الاسلامية من أساسها ؛ ومايدعيه « محمد » من أنه رسول الله .. اذ كيف يخرج على الناس بقرآن يحدث عن حياته بخلاف الواقع الذى يراه الناس منه !

ثم ماذا مرة ثالثة ؟

لقد قلنا أن النبى صلوات الله وسلامه عليه ، قد قطع فترة شبابه، وفتائه الى أن جاوز الخمسين ، وهو لم يعرف من النساء الا السيدة خديجة ، رضى الله عنها ــ والتى كانت تكبره بخمسة عشر عاما ..

ونقول انه صلوات الله وسلامه ، قد تزوج بعد هذا من تزوج من النساء ، لا ليشبع شهوة ، فقد فات عهد الشهوة ، ان كان من أصحابها ، وقد شهد الواقع بغير هذا ، وانما كانت زيجاته كلها صلوات الله وسلامه عليه ، رعاية لمودة أصحابه ، او عزاء لامرأة مصابة فى زوجها ، أو اكراما لعزيزة قوم وقعت فى أسر ..

وها نحن أولاء ، نعرض فى ايجاز صورة لزوجات النبى اللاتى تزوج بهن ، بعد السيدة خديجة :

الأولى : سودة بنت زمعة .. تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موت خديجة ، وكانت متقدمة فى السن ، وهاجرت معه الى المدينة، وبدت بين نسائه — فيما بعد — فى موقف حرج ، اذ كانت أشبه بأم لا زوجة .. ولهذا هم النبى بطلاقها ليخرجها من هذا الحرج ، فلما فاتحها بذلك ، قالت « لاتطلقنى ، وأنت فى حل من شأنى ، فانما أريد أن أحشر مع أزواجك ، وانى قد وهبت يومى لعائشة ، وانى ما أريد ما تريد النساء .. » فأمسكها الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

هذه واحدة ..

والثانية : عائشة بنت أبى بكر الصديق .. تزوجها النبى وهى بنت تسع سنين ، وكان صلى الله عليه وسلم قد شارف الخامسة والخمسين ..

وامرأة أو فتاة ، لا تصلح فى مثل هذه السن أن تكون زوجة لمتعة رجل ..

اذن فلابد لهذا الزواج المبكر من الفتاة أن يكون لغاية غير غاية المتعة ، ومطلبا أسمى من الزواج لمجرد الزواج :

والمعروف أن أبا بكر الصديق — رضى الله عنه — هو والد السيدة عائشة ، والمعروف أيضا أن مكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان المكان المكين من الحب والتقدير .. لما كان من موقفه من الاسلام ، وبلائه مع رسول الله ، واحتماله الصدمات الأولى فى سبيل الدعوة ..

كان ابو بكر أول من أسلم من الرجال — على أصح الروايات — فهو بهذا ثانى اثنين فى الاسلام ،كما كان ثانى اثنين فى الغار ، الرسول الكريم ، ثم هو .

وقد أذن الرسول الكريم — وهو بمكة — لأصحابه بالهجرة ، ولم

يأذن لأبى بكر ، ليكون له ظهيرا ، وسندا قبل الهجرة ، ورفيقا وأنيسا على طريق الهجرة !

هذا هو بعض مالأبى بكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما يرفعه عنده الى مقام الحب والاعزاز .

لقد كان زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عائشة ، بنت أبى بكر بعض ما يجزى به — صلوات الله وسلامه عليه — أبا بكر ، فيضم الى بيته ابنته تلك ، ليكون اتصاله برسول الله دائما ، وليكون بيت رسول الله مفتوحا له فى أى وقت من ليل أو نهار ..

وهذه هى الزوجة الأثيرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واحب النساء اليه ، لم يكن زواجه منها لشهوة ، لأنها لم تكن عند الزواج بها تصلح للاشتهاء ، ولم تكن دوافع الزواج بها المتعة الزوجية .. وقد توفى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى فى الثامنة عشرة من عمرها ، أى فى مطلع شبابها واكتمال نضجها !

والثالثة : هى حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وما يقال عن عائشة يقال كثير منه فى زواج حفصة ، اذ كان شأن عمر فى الاسلام فى المنزلة الثانية بعد أبى بكر ..

وكانت حفصة — رضى الله عنها — من المهاجرات مع زوجها خنيس بن حذافة السهمى ، وكان ممن شهد بدرا .. فلما مات عنها زوجها وتأيمت .. كان من بر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك المهاجرة فى سبيل الله وبأبيها وماله من بلاء فى دين الله — أن يضمها اليه وأن يدخلها بيت النبوة ، ليكون هذا البيت الكريم مزارا دائما لصاحب رسول الله ، عمر !

والرابعة : هى زينب بنت خزيمة ، وكانت تدعى فى الجاهلية أم المساكين ، لكثرة احسانها اليهم ، وبرها بهم .. وكانت زوجا لعبيدة ابن الحارث بن عبد المطلب ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قتل زوجها يوم بدر ، ضمها رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجا له ، جبرا لكسرها ، وعزاء لها فى زوجها ، وبرا بابن عمه الشهيد .. فيهـا ..

والخامسة : أم سلمة هند بنت أبى أمية ، كانت زوجا لأبى سلمة ابن عبد الله المخزومى ، وكانت هى وزوجها من أول المهاجرين الى الحبشة .. فلما مات زوجها تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عزاء لها ، وعرفانا بقدرها فى الاسلام .

والسادسة : زينب بنت جحش ، وكان اسمها برة ، فسماها النبى صلى الله عليه وسلم زينب ، وهى من قرابة رسول الله ، وقد زوجها النبى متبناه ، زيد بن حارثة ، وكانت هى وأهلها على غير رضى بهذا الزواج غير المتكافىء ، لأنها قرشية فى نظرهم ، وهو غير قرشى ، بل كان رقيقا مشترى ، فأعتقه رسول الله وتبناه .. ولهذا لم تقم ألفة ومودة بين الزوجين .. وكان أن انتهى الأمر بطلاقها من زيد .

ولهذا الطلاق حكمة ، أراد الله تعالى بها أن يبطل عادة التبنى التى كانت شائعة فى العرب ، والتى كانت تفرض على آباء الأبناء المتبنين الا يتزوجوا من نساء هؤلاء الابناء ، اذا طلقن ، أو مات عنهن ازواجهن .. تماما ، كان الشأن مع زوجات الأبناء من الاصلاب !

وانه لكى يحسم هذا الأمر بطريق عملى ، فقد أمر الله تعالى نبيه الكريم أن يتزوج من مطلقة متبناه زيد ، ليكون فى ذلك المثل والقدوة للمؤمنين ، الذين يتحرجون من أن يتزوجوا نساء من طلق أو مات من الأبناء بالتبنى ، على مألوفهم فى الجاهلية !

وفى هذا يقول الله تعالى : **« ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل ادعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق ، وهويهدى السبيل »** (٤ : الأحزاب) .

ثم يقول سبحانه : **« واذ تقول للذى انعم الله عليه وانعمت عليه امسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك مالله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا »** (٣٧ : الاحزاب) ..

هذا، وقد كثر لفط اللاغطين ، وتخرص المتخرصين فى زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من « زينب » حتى نسجوا من هذا الزواج قصصا اسطوريا ، وقال قائلهم — كذبا وبهتانا — ان محمدا نظر مرة الى زينب ، وهى فى بيت زوجها زيدا ، فرأى منه ما أعجبه ، ورغبه فيها ، ونسوا أن محمدا هو الذى زوج زيدا منها ، وأن زينب كانت على مرأى من رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل زواجها .. وليدة وصبية وشابة ، ولو كان له فيها أرب لكانت أقرب شىء اليه . وانه ليكفى فى دفع هذه الأكاذيب الملفقة أن نذكر قول الله تعالى هنا فى التعليل لهذا الطلاق والزواج : **« فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا »** فتلك اذن هى حكمة هذا الزواج ، وهى الا يتحرج المؤمنون من تزوج نساء أدعيائهم ، بعد انفصالهن عنهم .. فانه لا حرج بعد هذا فى أتيان فعل فعله رسول الله ، وبهذا يقضى على التبنى قضاء حاسما ، لا تردد فيه .

السابعة : وهى جويرية بنت الحارث ، وهى من سبى بنى المصطلق ، وكان أبوها الحارث بن أبى ضرار سيد قومه ، وقد تزوجها رسول الله بعد أن أعتقها من الأسر ، وبعتقها أعتق المسلمون كل من وقع فى أيديهم من بنى المصطلق ، اذ أصبحوا أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبهذا دخل بنو المصطلق جميعا فى دين الله ، وأصبحوا قوة من القوى المدافعة عنه .

ففى هذا الزواج اكرام لعزيزة قوم ذلت ، واكرام لقوم أراد الله تعالى أن يدفع عنهم عوادى الأسر والمهانة والذلة ..

والثامنة : هى أم حبيبة بنت أبى سفيان ، كانت زوجا لعبد الله ابن جحش من مهاجرى المسلمين الى الحبشة ، وقد هاجرت مع زوجها هذا ، ثم ارتد زوجها عن الاسلام هناك ، وثبتت هى على اسلامها ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمرى الى النجاشى ، ليخطبها له ، ويزوجه اياها ، فخطبها النجاشى لرسول الله ، واصدقها أربعمائة دينار ! .

وواضح من هذا الزواج ما فيه من ترضية لهذه السيدة الكريمة

التى لم تستجب لاغراء زوجها لها بالارتداد عن الاسلام ، ولم تأبه بما تلقاه فى هذه الغربة النائية ، بل احتفظت بدينها ، وحسبها ذلك من كل مافى هذه الدنيا ..

والتاسعة : وهى صفية بنت حيى بن أخطب من بنى النضير ، وكان أبوها سيد من سادات قومه .. فلما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى النضير ، وقعت صفية فى الأسر مع من وقعن من نساء قومها ، فاعتقها رسول اللهصلى الله عليه وسلم ، وتزوجها ..

وفى هذا الزواج مواساة كريمة ، لامرأة كريمة ، ووقاية لها من أن تعرض عرض السائمة للبيع والشراء !

والعاشرة : ميمونة بنت الحارث ، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سنة سبع من الهجرة ، وقد خطبها له ابن عمه جعفر ابن ابى طالب ، وكانت أختها اسماء زوجا لجعفر ، كما كانت أختها سلمى عند حمزة عم رسول الله ، واختها الرابعة ام الفضل عند عمه العباس بن عبد المطلب !

والحادية عشرة : ريحانة بنت زيد بن عمر بن خناقة بن شمعون، من يهودى بنى قريظة ، وقد وقعت فى السبى يوم أن مكن الله الرسول وللمؤمنين من بنى قريظة ، فكانت ريحانة فى قسم رسول الله من الغنائم ، فأعتقها ، وخيرها بين الاسلام ودينها ، فاختارت الاسلام ، ثم تزوجها ..

* * *

هذه هى زيجات النبى ، وأولئك هن زوجاته ، والأحوال والملابسات التى تزوجهن فيها ..

وانه لن يستطيع منصف يحترم الحق ، ويحترم العقل ، أن يقول ان هذا العدد الكثير من النساء اللاتى جمعهن الرسول فى بيت الزوجية ، كان لاشباع رغبته فى النساء ، وارواء ظمئه من المرأة !

ان ذلك افتراء على التاريخ ، واجتراء على الحق ، واعتداء صارخ على الواقع !

ويكتفى هنا أن ندلى برأى عالم من علماء الغرب ، لم يكن مسلما ، ولا كان من أشياع الاسلام والمسلمين ، ولكنه رجل أقام نفسه لكتابة تاريخ البشرية ، فأخلى كيانه من كل عاطفة كره أو حب لأحد .. أنه يكتب الوقائع والاحداث كما تنطق بها شواهد الحال ، أو تنتصب لها الأدلة والبراهين ..

وهذا العالم هو « ول ديورانت » صاحب موسوعة قصة الحضارة فى العالم .. يقول فى الحديث عن النبى ، وما ضم فى بيته من نساء :

« ولقد كان بعض زيجاته من أعمال البر والرحمة بالأرامل والفقيرات اللاتى توفى عنهن أتباعه او أصدقاوه .. وكان بعضها زيجات سياسية كزواجه بحفصة بنت عمر ، أراد به أن يوثق صلته بأبيها ، وكزواجه من ابنة أبى سفيان ، ليكسب بذلك صداقة عدوه القديم ، وربما كان الدافع الى بعضها أمله فى أن يكون له ولد ! »

فماذا تعلق بعد هذا مغيظ من الاسلام ، محنق على شريعته ، بهذا اللون الظاهرى للصورة التى يبدو فيها هذا العدد الكثير من النساء فى بيت النبوة وعمى أو تعامى عن المعانى الجليلة السامية التى تكمن فى أعماقها ، فحسبنا أن احدا مهما اعماه الحقد ، وأكل صدره الغيظ ، يستطيع أن يجد كلمة زور تستجيب له ليتهم النبى — مع ما يدعيه له من قوة شهوته الى المرأة — فى شيء من عفته وطهارته فى حياته كلها قبل البعثة وبعدها ، وذلك مما يزيد النبى عظمة الى عظمته ، وجلالا الى جلاله .. فان انسانا ملء كيانه قوة وشهوة للمرأة ، ثم لا تعلق بذيله هفوة ، ولا تؤخذ عليه زلة ، لهو فريد فى الرجال ، طهرا وعفة وسموا ونبلا ..

فصلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته عليك يا رسول الله ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ..

فهـــرس

الباب الثالث

مفاهيم خاطئة عن الاسلام

الباب الرابع

الرسالة الخالدة

الباب الخامس

الرسالة الخاتمة

خاتمة

نبى الاسلام وما يقول السفهاء من الناس

دار الشروق

مطابع الأهرام التجارية

رقم الايداع بدار الكتب
٢٠٨٦ / ١٩٧٣